



ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية





من تاريخ العدل والتسامح في الإسلام

د. يوسف القرضاوي

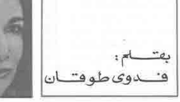




محمود درويش في حديث صريح عن الشعر والحياة

وفدوى طوقان تكتب عن تجربتها في الأرض المحتلة

من أصداء الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية والقطاع





بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، ومن خلال الانهيار التام للسقف الفلسطيني ، قام الجسر بين شقي البيت المشطور ، وضمن هذا الواقع الجديد المشؤوم ، واقع الاحتلال الصهيوني للضفة والقطاع أخذ أفراد العائلة الفلسطينية يسعون عبر ذلك الجسر إلى لقاء بعضهم بعضاً . وكانت ابتسامات اللقاء آنئذ تندى بدموع الانكسار ، وكانت القلوب تنزف تحت الراية المطعونة بخنجر الأيام الستة .

منذ اليوم الأول للاحتلال التزمت بيتي ولم أبرحه قبل مرور شهرين أو أكثر على دخول الجيش الاسرائيلى إلى نابلس ، كنت أحس بضربات قلبى تتسارع كلما فكرت بالنزول إلى المركز التجارى لشراء بعض ما أحتاج إليه . فلقد كان مجرد تصوري للواقع المتجسد بوجود الجنود بأسلحتهم ودباباتهم وانصاف مجنزراتهم يهز كيانى ويعطل قدرتى على الحركة .

خلال هذه الأيام الأولى من الاحتلال شرع يفد علي بعض الزائرين من الشباب العربى المقيمين في حيفا ويافا والناصرة وعكا وسواها من المدن والقرى العربية ممن لهم اهتمام بالشعر والأدب ، وكان وجه القاص « توفيق فياض » من أوائل الوجوه التى هلت علي في ذلك الحين وانعقدت بيني وبينهم مودة وصداقة . كان يقاسم حينئذ محمود درويش وسميح القاسم السكن في بيت واحد ، وكان ثلاثتهم يتقاسمون الجوع والحياة الصعبة . كان حديثه عنهما يشوقني ، فقد كانا مع توفيق زياد وسالم جبران قد أصبحوا بالنسبة إلينا في العالم العربي رموزاً وطنية تجسد المقاومة والرفض والصمود والتمسك بالهوية القومية وسط عالم وواقع رهيب يهددهم ويهدد الأقلية العربية في اسرائيل بالاندثار والفناء .

ولقد كان توفيق فياض يوافيني في كل زيارة بجريدة « الاتحاد » وبمجلتي « الجديد » و« الغد » وكانت ولا تزال من الصحف المحظور توزيعها في الضفة والقطاع . من خلال هذه الصحف الواعية تعرفت على أميل حبيبي والدكتور أميل توما والأستاذ صليبا خميس وسواهم من رسل القوة وأعداء الضعف والانهيار . أولئك المعلمون الكبار حاملو الشرارة من النار المقدسة والمبشرون بانتصار الحياة .

في يوم من أيام منتصف أيلول عام ١٩٦٧ أرسلت إلى جريدة « الاتحاد » بواسطة توفيق فياض قصائدي الخمس الأولى : « مدينتي الحزينة » « الطاعون » « إلى صديق غريب » « الطوفان والشجرة » « حي أبداً » وقد نشرت هذه القصائد في جريدة الاتحاد بتاريخ ٢٢/ ايلول/ ١٩٦٧ .

في الأخير ، كان لابد لي من أن ألم نفسي وانتزعها من الانهيار والدمار والغربة والاغتراب في الذات والوطن . وقد انتزعتها فعلاً ويممت وجهي شطر حيفا لألتقي بهم وفي يدي هديتي إليهم ، قصيدتي « لن أبكي » :

وفي بيت عصام عباسي والصديقة سلمى ماضي بحيفا كان لقائي الأول بمحمود درويش . قال محمود وهو يضحك : « ها نحن نلتقي يافدوى ، وقد اصبحت أخشى من مجيء يوم تأتي الينا فيه أم كلثوم ونزار قباني » لم تخدعني ضحكته ، فقد كان وراءها دموع غير منظورة .

حين انتهيت من انشاد قصيدتي « لن أبكي » قال : نحن مدينون لك منذ اليوم بقصيدة .

وسألتني الصديقة سلمي ماضي انشاد قصيدة أخرى فتلوت قصيدتي « الفدائي والأرض » التى نظمتها على اثر استشهاد البطل الفلسطيني مازن أبو غزاله في معركة « طوباس » التى قامت بين رجال المقاومة والجيش الاسرائيلى بعد مرور شهور قليلة على الاحتلال الصهيوني للضفة والقطاع .

منذ ذلك اليوم ، يوم زيارتي الأولى لحيفا ، تكررت زياراتي لحيفا والناصرة وأذكر أن سميح القاسم كان في تلك الفترة محكوماً بالاقامة الجبرية في البيت فكنا نذهب إليه لقضاء بعض الأمسيات في غرفته الصغيرة المتواضعة .

وهكذا تم التصاقي بمحرري وكتاب جريدة « الاتحاد » ومجلتى « الجديد » « والغد » . لقد كانوا بالنسبة إلى قطرات الضوء في ليل الاحتلال البهيم ، فبين أولئك الكتاب والشعراء الذين كانت السياسة والانتماء الحزبي عملهم من أجل الحياة ومن أجل الوطن ومن أجل الانسان ، بين أولئك وجدت نفسي ، ومعهم وجد التحول النوعي طريقه إلى نفسى وتفكيرى وكأنما لمستني كف المعجزة . كنت أعود من لدنهم بعد كل لقاء وفي نفسي ترتعش المشاعر المعافاة كارتعاش الأزهار .

في واحدة من الأماسي في بيت محمود درويش قرأ علينا شاعر الشعراء مسودة رباعياته المهداة إلي : « يوميات جرح فلسطيني » ، ولعل هذا هو المكان المناسب لأذكر أن محموداً حين قال في الرباعية الثانية من هذه القصيدة :

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام

ولـــذا لـــم يتفتت حبنـــا بيـــن السلاسل
نحـــن يـــا أختـــاه مـــن عشـــرين عـــام
نحـــن لا نكـــتب أشعاراً ولكنـــا نقـــاتل

إنما كان يشير إلى قصيدتي التي نشرت قبل ذلك في جريدة «الاتحاد» وفيها أخاطب صديقاً حالت الهزيمة الحزيرانية دون لقائه :

لو أن الهزيمة لا تمطر الآن أرض بلادي
حجارة خزي وعار
ولو أن قلبي الذي تعرف
كما كان بالأمس لا ترعف
دماه على خنجر الانكسار
ولو أنني يا صديقي كأمس
أدل بقومي وداري وعزي
لكنت إلى جنبك الآن، عند شواطيء حبك أرسي سفينة عمري
لكنا كفرخي حمام

ولعل من الجدير بالذكر أيضا أن المقاطع ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ من رباعيات جرح فلسطيني تشير إلى البطل الشهيد مازن أبو غزالة والذي أنشدت قصيدتي فيه «الفدائي والأرض» أمام محمود في لقائنا الأول في حيفا .

* *

ذات مساء تلقيت مكالمة هاتفية من محمود ، وكان آنذاك رئيس تحرير مجلة «الجديد» سألني فيها المساهمة في الكتابة من أجل باب جديد استحدثه في المجلة عنوانه (صفحات من مفكرة) . قال محمود إنه من هذا الباب يتسلل إلى يوميات الكتاب والشعراء الخاصة ، ويسرق منها صفحات يهديها إلى القراء ، ولكن عملية التسلل تجري بأسلوب جديد إذ يعلن محمود لصاحب اليوميات المرشحة للسرقة أن يومياته معرضة للفضيحة ، وما عليه لكي ينجو من الفضيحة ــ إلا أن يتبرع بصفحات مختارة من يومياته .

بالطبع استجبت لرغبة محمود ، ونشرت صفحات من مفكرتي في أحد أعداد مجلة الجديد . ومن المناسب أن أذكر الآن أن تلك الصفحات التي نشرت آنذاك في باب (صفحات من مفكرة) كانت النواة التي انبثق عنها فيما بعد كتابي «رحلة صعبة ــ رحلة جبلية» والذي نشرت منه عدة حلقات في مجلة الجديد ما بين عامي ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ حين كان يرأس تحريرها سميح القاسم .

* *

بعد هزيمة حزيران بعدة شهور زارني واحد من جماعة «الكويكرز» وكان يقيم في قبرص بحكم عمله . خلال حديثي معه عن الواقع الجديد الذي نكابده في الضفة والقطاع ، أشرت إلى الحصار الثقافي الذي قطعني عن مواكبة الفكر والأدب العربي الحديث ، والذي حرمني بالتالي من الاطلاع على المجلات الأدبية التي تصدر في بيروت ومصر وسواهما من البلاد العربية ، فتعهد ذلك الانسان الكريم بتزويدي بالمجلات التي أفضلها ، فاكتفيت بذكر مجلتين هما «الآداب» مجلة الدكتور سهيل ادريس ومجلة «مواقف» التى كان يصدرها الشاعر الصديق ادونيس . وهكذا صرت أتلقى هاتين المجلتين بانتظام عبر «بريد خاص» ... وكان يسعدني جدا أن أوافي «محمود وسميح» بهاتين المجلتين بعد مطالعتهما . ولقد كان محمود مفتوناً بأدونيس وبمجلته «مواقف» إلى حد الاصرار على الاحتفاظ «بمواقف» لنفسه ، وكنت أتنازل له عنها مع أحساس هو مزيج من الغبطة والأسف .

* *

في أيلول عام ١٩٧٣ وجهت إلى سميح القاسم دعوة باسم «نادي الفتيات» ليتحفنا بأمسية شعرية في نابلس . وفي رسالته المتضمنة استجابته للدعوة قال سميح : (رغم كوني مدين لك بعدة مجلات فإنني أجد في نفسي المزيد من الجرأة لأطلب المزيد من المجلات والصحف ، وحتى لو أنت فقدت بعض هذه المجلات ــ ويشير هنا إلى احتفاظه ببعض مجلاتى لديه ــ فلن تخرب الدنيا أكثر مما هي عليه من خراب :

أنا فاقد وطناً فما أسفي على فقدان زهرة ؟ ثم ألف شكر على قصيدة «أريش فريد» التى بعثت بها لتنشر في «الجديد» : فهو شاعر يهودي نمساوي «يحب» اسرائيل كما نحبها نحن ! ... سأنشر القصيدة في الجديد لأنها شهادة شاهد من أهله .

* *

في لقائي بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر رحمه الله ــ كان ذلك في أواخر شهر ديسمبر عام ١٩٦٨ ــ حدثته عن أولئك المتجذرين في أرضهم منذ عام ١٩٤٨ رغم كل تحديات الحركة الصهيونية التى تواجههم لاسيما المحاولات المبذولة لترسيخ العدمية القومية في وجدان الأقلية العربية في اسرائيل . كما حدثته عن معاناة المثقفين الوطنيين وما يكابدونه من الاعتقالات وأوامر الاقامة الجبرية التى تحدد تجولهم في وطنهم والتى أصبحت جزءاً من حياتهم اليومية بسبب رسالتهم الكفاحية التى يحملونها ويبشرون بمضمونها الوطني والانساني في الوسط العربي هناك . وقد غمرني الشعور بالسعادة حين سمعت من إذاعة القاهرة التحية الحارة التى وجهها جمال عبد الناصر بعد ذلك اللقاء إلى العرب الصامدين المكافحين تحت جناحي الخفاش الكبير ..

بالرغم من كون سلطات الاحتلال تمنعني دائماً من الاشتراك في الندوات الوطنية والأدبية في عكا والناصرة وسواهما من بلدان أرضنا المحتلة منذ عام ١٩٤٨ فقد تمكنت من التسلل إلى بعض الاحتفالات التى تقيمها في الناصرة كل عام حركة النساء الديمقراطيات ، وفي الاحتفال الذي أقامته النساء الديمقراطيات بمناسبة النصر الذي حققه شعب مدينة الناصرة بانتخاب بلدية ديمقراطية ألقيت قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

أنا اليوم جئت إلى مهرجانك أشرب من كأس هذا الفرح
لأني ، لأني نسيت الفرح
لأني على طول تسع سنين من القحط ما ذقت طعم الفرح
أتيت لكي أسترد اليقين بأن الحياة تظل سخيه
لكي أستمد لقلبي منك وريداً يضخ دماء جديدة
لكي استرد لنفسي رؤيا تعافت وحلماً بدنيا سعيدة

والخطاب هنا موجه إلى المرأة العربية الديمقراطية في الناصرة وقد نشرت القصيدة في جريدة «الاتحاد» التى تصدر في حيفا .

* *

لا أزال أذكر الحملة التى شنها بعض المزاودين في العالم العربي على الشاعرين محمود درويش وسميح القاسم بسبب اشتراكهما مع الوفد الاسرائيلي في مهرجان صوفيا للشباب . كنت في عمان اتصفح ذات صباح جريدة «الأنوار» اللبنانية وأنا أحتسي القهوة في مقهى «الديبلومات» ، وجدتني أصعق وأذهل أمام مقال مزدحم بتهم وافتراءات موجهة ضد الشاعرين وكان واضحاً أن القصد من ذلك المقال هو تحطيم هذين الرمزين الوطنيين وتشويه صورتيهما في الوجدان العربي . قمت للفور واشتريت من مكتبة مجاورة للمقهى بعض أوراق للكتابة وعدت إلى المقهى لأكتب من هناك رسالة إلى غسان كنفاني رحمه الله ــ وكان آنذاك محرراً في جريدة الأنوار ــ ضمنتها عتبي الشديد على الجريدة لنشرها مثل ذلك المقال الخطير والمغرض ، ثم حدثته عما يعانيه الشاعران في وطنهما بسبب مواقفهما الملتزمة ، ومقاومتهما لسمك القرش المفترس فيما هما يكابدان تجربة اللجوء والاغتراب على أرض الوطن المسروق . قلت في رسالتي : «... أنت ياغسان أول من عرفنا بشعراء المقاومة الرافضين ، وأول من علمنا تقديس أولئك الذين يقاتلون العدو الصهيوني الشرس من جبهة الكتابة ، فكيف تسمح بنشر مثل ذلك المقال ؟ الخ ...» وحين زرت غسان في جريدة الأنوار ببيروت عبر لي عن حقيقة كونه لم يطلع على المقال قبل ظهوره في الصحيفة ولولا ذلك لحال دون نشره ، كما حدثني عن تمزيقه لمقال آخر شبيه بالأول كانت قد بعثت به إلى الأنوار فتاة فلسطينية تحاول كتابة الشعر ، وكانت قد غادرت إسرائيل حديثاً لتقيم في بيروت .

* *

هذه بعض جوانب من تجربتي الخاصة بالنسبة إلى التفاعل الحيوى المثمر الذي ظل محافظاً على استمراريته من جراء التحام كتاب الضفة والقطاع بالكتاب الفلسطينيين المقيمين في الجزء المحتل من فلسطين منذ عام ١٩٤٨ ومن هذا التفاعل ستظل تتكون قطرات الضوء في ليل الاحتلال وسوف يستمر العمل معاً لإعادة تركيب ما هو كائن انطلاقاً من الحلم بما سيكون !

العدل والتسامح في تاريخ الإسلام

بقلم: الدكتور يوسف القرضاوي

في العدد الماضي من مجلة «الدوحة» تحدثت عن موقف الاسلام السمح والعادل من الأقليات غير المسلمة من مصادر الشريعة ونصوصها، وهو موقف ثابت، وفي هذا الجزء الثاني نشير إلى الحقيقة المؤكدة والناصعة، وهي أن تطبيق الشريعة الاسلامية لا يضر بحقوق غير المسلمين، بل يضمنها ويثبتها بشهادة التاريخ وشهادة المنصفين..

أما تاريخ المسلمين في معاملة غير المسلمين، فلم تر البشرية مثله نصاعة واشراقاً، إنه صحائف رائعة من التسامح الفذ المنقطع النظير بين المؤمنين بالايديولوجيات دينية أو علمانية مما جعل الشعوب المسيحية وغيرها ترحب بالحكم الاسلامي منقذاً لها من تعصب حكامها الذين كانوا في بعض الأحيان على دينها، ولكن يخالفونها في المذهب.

ولن أنقل هنا كلام أحد من المسلمين، وأكتفي بما سجله المؤرخون الباحثون من غير المسلمين.

يذكر لنا المؤرخ «لودفيج» في كتابه «النيل ــ حياة نهر» كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامي ــ بقيادة عمرو بن العاص ــ استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين وكيف كان ترحيبهم بالغاً حد الحماسة (١).

ويقول لودفيج: انه ما عدا فرض الجزية على المسيحي فان عمرا لم يفرق في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين، بل إنه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعاً، ولاقامة شعائرها وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، مساواة شملت كل حق لهم وكل واجب عليهم، بما في ذلك وظائف الدولة، بغض النظر عن الجنس أو الدين (٢).

يقول جيروم وجان تارو:

إن فضيلة التسامح التي كانت أزهى السمات الخلقية في العرب، والتي تندر أن تتوافر لغيرهم في جميع الأزمان. هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيراً ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطري وذوقهم الفني ونزعاتهم: لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح (٣).

يقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» متحدثاً عن عدل الفاتحين المسلمين وسماحتهم:

«كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم مايقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم.. ولكن العرب اجتنبوا ذلك فقد

أدرك الخلفاء السابقون ــ الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ماندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة ــ أن النظم والديانات ليست مما يفرض قسراً(٤) فعاملوا ــ كما رأينا ــ أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب ، إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه سابقاً ، في مقابل حفظ الأمن بينهم . فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولاديناً سمحاً مثل دينهم(٥) » وينقل عن جوتييه في كتابه « أخلاق المسلمين وعاداتهم » :

« لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية فضيلة المسامحة التي لم تكن تتوقع من أناس يحملون ديناً جديداً . وما فكر العربي قط في أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد أن يطفئ بالدماء ديناً منافساً لدينه ، وقد جاءنا العالم (متز) في باب التسامح الإسلامي بتفاصيل أشد غرابة من هذه . قال : إن من أعظم بواعث الاستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأسر في الدول الإسلامية ــ وقد شوهد المسلم في بلاده يحكم عليه النصارى ، وحدث مرتين في القرن الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب ، وكان على القواد ــ حماة الدين ــ أن يقبلوا أيدي الوزير وينفذوا أمره ، هذا والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى » .

ولم يكن التسامح مقصوراً على عهد الراشدين أو المسلمين الأولين أو جنس العرب كما يظن ذلك بعض الناس ، بل بقي هذا التسامح صفة أصيلة ملازمة للمجتمع المسلم . وللحكم الإسلامي في كل عصر وفي كل مكان ، أيا كان الحاكمون وكان المحكومون . حتى في أشد العصور اشتهاراً بالعصبية الدينية ، بل كانت الدولة الإسلامية هي الملاذ الذي يلجأ إليه المضطهدون من أي دين ، فيجدون فيها التسامح والأمان والاطمئنان .

يقول توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : « وحدث أن هرب اليهود الاسبانيون المضطهدون في جموع هائلة . فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر » .

ويقول أيضاً « حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركي لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أي حكومة » .

ويقول ريتشارد ستيبز من أبناء القرن السادس عشر :

« على الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب .. فقد سمحوا للمسيحيين جميعاً : للاغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق ــ بدليل اثنى عشر عاماً قضيتها في أسبانيا ــ أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل إننا في خطر على حياتنا وأحفادنا » .

وهذا ما جعل بطريرك انطاكية واسمه مكاريوس يقول : أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد فهم يأخذون مافرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء كان رعاياهم مسيحيين أويهوداً أو سامره (٦) .

والعجيب أن يتم هذا التسامح في الوقت الذي كان المسلمون يبادون من الأندلس بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون ينشرون العلم والحضارة ويهدون أوروبا إلى طريق النور في زمن لم تكن ترى فيه الضوء إلا من مثل سم الخياط . وظل هذا التسامح سارياً في كل الديار الإسلامية ومع كل الطوائف والأقليات ما دام الشرع الإسلامي هو الذي يحكم ويسود .

حتى اليهود الذين يتصرفون كثيراً تصرفات تثير مواطنيهم عليهم وتوقد شعلة الكراهية لهم ، وخاصة حين يدبرون المكايد خفية أو ينشرون الفساد جهرة .. حتى هؤلاء اليهود عاشوا في المجتمع الإسلامي آمن مايكونون على أنفسهم ومعابدهم وأعراضهم وأموالهم التي لم يتورعوا عن استخدامها في الربا المحرم عند المسلمين .

وأكتفي هنا بذكر وثيقة تاريخية تبين لنا كيف يعامل الحكم الاسلامي الأقليات ولو كانت يهودية

● وثيقة هامة تبين لنا كيف يعامل الحكم الإسلامي الأقليات

● هكذا حاول الغرب أن ينشر بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين في الشرق

وهذه هي الوثيقة نص الفرمان « الظهير » الذي نشره السلطان محمد بن عبدالله سلطان المغرب في ٥ فبراير سنة ١٨٦٤ م :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر أيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام ، حتى لا يلحق أحدهم منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام . ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام والا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وألا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم . لأن الظلم ظلمات يوم القيامة . ونحن لا نوافق عليه : لا في حقهم ولا في حق غيرهم ، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ومن ظلم أحداً منهم أوتعدى عليه فانا نعاقبه بحول الله ، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ، ومعروفاً محررا ، لكن زدنا هذا المسطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً في حق من يريد ظلمهم وتشديداً ليزيد اليهود أمناً إلى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفاً إلى خوفهم .

صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ١٢٨٠ ثمانين ومائتين وألف » . (٧)

وكفى بهذه الوثيقة وحدها ردا على الأفاكين الذين يثيرون العجاج ويفتعلون الضجيج ، بغير مسوغ ولا برهان .

ما سر هذه الضجة ؟

وليت شعري إذا كان هذا هو موقف الاسلام الواضح المبين في شريعته وفي تاريخه : وهو البر والاقساط والتسامح مع غير المسلمين فما سر هذه الضجة حول « الأقليات » ؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الذي يبديه غير المسلمين كلما ذكر الحكم الاسلامي ، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الاسلام وشرع الاسلام؟

والجواب إن هذا التوتر لم ينبع من الداخل وإنما جاء من الخارج ، جاء من الغرب الذي شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة ولم يرفع يده عنها بعد والعجب أنه شنها باسم المسيح رسول المحبة والسلام والمسيح منها ومن أهلها براء .

ولا زال الغرب يكيد للمنطقة وأهلها متذرعاً إلى ذلك بشتى الذرائع المختلفة ومنها مسألة الأقليات .

إن السياسة التي اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هي استخدام مسألة الأقليات في الشرق لاثارة الفتن والقلاقل التي تخدم أغراضه دائماً ، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والأقليات ، ويصف المؤرخ ليدوفيك دي

كونتش هذه السياسة فيقول : « كان الغرب يعمل جاهداً على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين في نفوس المسيحيين يتلقونها خلفاً عن سلف ويرضعها الطفل من شعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها ، فتسري في كيانه مسرى الدم في عروقه وينشأ على عقيدة تقضي على العلاقة بين المسيحي وبين المسلم إلى الأبد (٨) ».

وفي سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامي الذي لم تعرف الإنسانية له نظيراً ، متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع في بعض البلاد وبعض الأزمان ، نتيجة لظروف خاصة تحدث في كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا.

من هذه الظروف أن التسامح الإسلامي هيأ للكثير من أهل الذمة مراكز قوية في النواحي المالية والادارية فلم يحسنوا معاملة المسلمين بل أظهروا التسلط والتعنت والجبروت.

وفي هذا يقول « متز » وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولاً إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين. (٩)

ويقول أيضاً : إن أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر ـ يعني في القرون الأولى ـ نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط (١٠) ومن هذه الظروف أن بعض النصارى كانوا يبدون ارتياحاً إذا انتصر الروم النصارى على المسلمين فيؤدي ذلك إلى هياج العوام عليهم.

ولا ننكر أن هناك حكاماً ظلموا أهل الذمة أوتشددوا عليهم ولكن مثل هذا يعتبر شذوذاً عن القاعدة العامة في التسامح الإسلامي مع غير المسلمين.

وفي الغالب أن هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين قبل اليهود والنصارى فإن الظالم لا يقف ظلمه عند حد.

بل إن كثيراً من ظلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم على حين يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم ، حتى وجدنا الشيخ الدردير علامة المالكية وشيخ علماء عصره يذكر عن أمراء زمانه : أنهم أعزوا أهل الذمة ورفعوهم على المسلمين. حتى يقول : ويا ليت المسلمين عندهم كمعشار أهل الذمة وترى المسلمين كثيراً ما يقولون : ليتهم يضربون علينا الجزية كالنصارى واليهود ، ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم ؟ « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (١١).

ولكن الرجاء معقود بعقلاء المسيحيين الذين يدركون كيد الغرب ونواياه الشريرة التي لم تشرب روح المسيحية قط ، حتى يوم غزت هذا الشرق باسم المسيح ، وتحت عنوان الصليب.

فإن كان المسيحيون وغيرهم من الأقليات يخافون سيادة الاسلام ، فلا محل لهذا الخوف ، وقد أمنوا في ظله قروناً طوالاً .. وإن كان بينهم من يحقدون على الإسلام ، ويكرهون سيادته ، فهذا ما لا حيلة لنا فيه ونسأل الله أن يطهر قلوبهم وقلوبنا من الضغن والسخيمة.

الإسلام تراث حضاري

على أن هنا أمراً له أهميته ، ويجب التنبيه عليه . وهو أن الاسلام بالنظر للمسيحيين العرب ـ بالذات ـ يعتبر تراثاً قومياً وحضارياً لهم ، فهم وإن لم يؤمنوا به ديناً ، يؤمنون به ثقافة وحضارة يعتزون بها ويفخرون بأمجادها وآثارها.

وهذا ما جعل بعض المنصفين من المسيحيين في مصر وفي سوريا وغيرها يقول : « أنا مسيحي ديناً ، مسلم وطناً وثقافة » !

ولا عجب أن رأينا كثيراً من أدباء النصارى يحفظون القرآن كله أو جله باعتباره كتاب العربية الأكبر.

كما كان السياسي المصري المسيحي الشهير مكرم عبيد ، وكما حكى عن نفسه الكاتب الأديب نظمي لوقا في مقدمة كتابه القيم « محمد : الرسالة والرسول » ووجدنا كثيراً من هؤلاء الأدباء يكتبون عن محمد رسول المسلمين مقالات وقصائد جيدة بوصفه عندهم أعظم شخصية عربية.

● عندما قال فارس الخوري : لا قوة بغير الإسلام ، وما أعظم رصيد الأمة العربية الثقافي في البلاد الإسلامية

يقول الشاعر الماروني ـ رشيد الخوري :

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت
عروبتي مثلي الأعلى وايماني

ويقول أمين نخله : « الاسلام اسلامان : واحد بالديانة ، وواحد بالقومية واللغة ومن لا يمت إلى محمد بعصبية ، ولا إلى لغة محمد ، وقومية محمد ، فهو ضيف ثقيل علينا ، غريب الوجه بيتنا.

ويا محمد : يمينا بديني ودين ابن مريم .. أننا في هذا الحي من العرب نتطلع اليك من شبابيك البيعة ، فعقولنا في الإنجيل ، وعيوننا في القرآن ! ».

ولا غرو أن وجدنا أيضاً بعض القانونيين المسيحيين يدرسون الفقه الاسلامي ويدافعون عنه ، ويعتبرونه تراثاً تشريعياً للأمة كلها ، مسلمين وغير مسلمين.

بل وجدنا من زعماء المسيحيين المعدودين من يدعو إلى تبني النظام الاسلامي في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع.

من أقوال فارس الخوري

وأبرز مثل لذلك هو الزعيم السوري الشهير فارس بك الخوري ، الذي شغل منصب مندوب سوريا في هيئة الأمم ، كما شغل منصب رئيس الوزراء مدة من الزمن.

فهذا الاستاذ محمد الفرحاني تلميذه وملازمه وراويته يحكي عنه فيقول :

قال لي فارس الخوري ذات يوم في مجلسه بحضور عدد من زواره ومن بينهم القسيس البروتستانتي داود متري :

« أنا مسيحي ولكنني أجاهر بصراحة : أن عندنا النظام الاسلامي ، وبما أن الدول العربية المتحدة « كان ذلك في عهد الوحدة المصرية السورية واتحادها مع اليمن » بأكثريتها الساحقة مسلمة ، فليس هناك ما يمنعها من تطبيق المبادئ الإسلامية في السياسة والحكم والاجتماع.

« عقيدتي ويقيني أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدامة التي تهدد كلاً من المسيحية والإسلام إلا بالإسلام .. وأن هذا هو الذي يحد من نشاط الشيوعية ويقضي عليها القضاء المبرم لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها » (١٢).

« فالاسلام هو الدرع الحصينة ضد الشيوعية ، وهذا ما صرحت به مراراً وتكراراً سواء في المحافل الدولية أو في مجالس الخاصة للعرب ، ولا قوة بغير الاسلام .. هذا أمر أنا أومن به . ولقد كنت في هيئة الأمم المتحدة منسجماً كل الانسجام مع وفد

الباكستان وغيره من الوفود الإسلامية ، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا بأشد من الروح التي يدافعون بها عن قضاياهم ... إنهم يحبون العربي حباً عظيماً بل يقدسونه تقديساً » .

ويقول الأستاذ الفرحاني :

قال لي فارس الخوري :

هذا هو إيماني . أنا مؤمن بالاسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي وقوته في الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها ، لقد قلت ولازلت أقول : لايمكن مكافحة الشيوعية والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام والاسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها (١٣) .

ولقد نقلت هذا الكلام في حينه إلى الاستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق فقال لي :

من الغريب حقاً أن يستهان بأمر الإسلام ، من قبل بعض أبنائه ، ويعمل على ابعاده عن واقع الحياة ، في حين يقف أعظم مسيحي في الشرق يجهر بضرورة الأخذ بأحكام الاسلام والعمل بشريعته (١٤) .

والأعجب من ذلك أننا نراه يؤيد قيام حكومة اسلامية قوية حازمة ، بل دكتاتورية لتضرب بشدة على أيدي مروجي الالحاد والفساد والانحلال فيقول : « نحن بحاجة إلى حكومة حازمة تؤمن بالاسلام كدين ونظام متكامل ، وتعمل لتطبيقه ، فكما أن الشيوعية تحتاج لدكتاتورية حازمة تشق لها طريق الانتشار والازدهار والثبات فالاسلام أشد حاجة لمثل ذلك .

ومن ذا الذي يرضى ضميره ويطمئن قلبه إلى سلامة أمته وكيان بلده وهو يعلم أن التحلل والفساد منتشران لدرجة يصعب معها صدهما وايقاف تيارهما ومن ذا الذي ينكر على المسئولين فيه ، مكافحة ذلك التحلل ، وذلك الفساد بشريعة هي من تلك الأمة وفيها (١٥) .

وفي مناسبة أخرى يبين الاستاذ الخوري فضل التشريع الجنائي الاسلامي في تحقيق الأمن والأستقرار للمجتمع ، والقضاء على الجريمة والمجرمين فيقول :

« تذكرون ولاشك عندما تضعون الموازنة العامة للدولة المبالغ الطائلة التي تخصص للأمن العام ، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات ..

فلو طبق الشرع الاسلامي وقطعت يد في حلب مثلاً .. وجلد آخر في دير الزور ورجم ثالث في دمشق . وكذلك في بقية المحافظات ، لانقطع دابر هذه الجرائم ولتوفر على الدولة ثلاثة أرباع هذه الموازنة .

واستدرك الأستاذ فارس الخوري يقول :

في العهد العثماني كان في دمشق ثلاث محاكم شرعية وصلحية تنظر في الدعاوي الجزائية والبدائية .. وكان قضاة هذه المحاكم ، يقضون أغلب أوقاتهم في مراكز عملهم بدون عمل .. فاذا

● لماذا يُستهان بأمر الإسلام من قِبل بعض أبنائه ، ولماذا نحاول إبعاده عن واقع الحياة ؟!

قسنا ذلك الظرف وقارناه بظرفنا الحالي وجدنا أن السبب في كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدني الأخلاق ، وانتشار الفساد وعدم الاكتراث بما تفرضه الدولة من عقوبات غير رادعة ولا زاجرة ، لعدم تطبيق التشريع الاسلامي في الحكم . (١٦) .

ولقد انتبه هذا السياسي الكبير إلى علاقة العرب بالعالم الاسلامي ومالهم من رصيد كبير لدى الشعوب المسلمة ينبغي الحرص عليه والاستزادة منه فكان يقول : إننا نستطيع أن نثير بهذا الاسلام ، قوى خطيرة جبارة ، ليس في العالم الاسلامي فحسب ، وانما في جميع أقطار الدنيا . فالمسلمون بروابطهم الدينية الوثيقة واتجاههم نحو قبلة واحدة وايمانهم بكتاب واحد وعملهم بسنة نبي واحد انما هم يشكلون أمة واحدة متماسكة مفروض بها أنها تتعاون على البر والتقوى ، والعدل والاحسان ، وإن لم تكن كذلك تختفي عنها صفة الاسلام ، هذه الأمة الاسلامية إذا ماأثيرت بأفرادها العاطفة الدينية بشكل جيد ، وأحسن تسييرها فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ (١٧) .

ومما لفته إلى هذا الأمر مالمسه من حماس المندوبين الاسلاميين في هيئة الأمم للقضايا العربية ــ كما ذكر ذلك من قبل ، كما أنه شهد مرة حفلاً أقيم لتكريم رئيس أندونيسيا ورفقائه فلما وصل ضيف الشرف الرئيس الأندونيسي ومن معه من وزراء وسفراء أندونيسيين فوجئ المرحوم فارس بك بأنهم يحدثونه باللغة العربية الفصحى فعجب وسألهم أين تعلموا اللغة العربية ؟ فأجابوه بأنهم تعلموها في أندونيسيا . حيث تقوم ألوف من المدارس العربية المتخصصة بتعليم اللغة العربية حيث جعلت اللغة العربية لغة التدريس الأساسية لجميع العلوم .

فاعجب فارس بك جداً بما سمع وخاطب الحاضرين من المدعوين العرب قائلاً : ماأعظم رصيد الأمة العربية الثقافي في البلاد الاسلامية ، وماأجدرنا ، نحن العرب ــ المسيحيين منا والمسلمين ــ أن نعض بالنواجذ على صلاتنا بالأقطار الاسلامية وأن نوثق علاقتنا بمئات الملايين من سكانها الذين يكنون لنا أصدق مشاعر الحب والولاء ، فإن لنا بذلك فوائد عظيمة ثقافية وسياسية واقتصادية وان من واجب الأمة العربية ان تسعى هذه الحقيقة وتعرف كيف تفيد من هذه الكنوز الثمينة المدخرة لنا في أقطار العالم الاسلامي (١٨) .

وبعد هذه النقول الناصعة من زعيم مسيحي منصف لم يبق هناك مجال لمتوجس أو متعنت فقد حصحص الحق ووضح الصبح لذي عينين .

ومع هذا زيادة في البيان وقطعاً لكل تعلة ــ نسجل هنا ماكتبته مجلة « الدعوة » القاهرية في عددها الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٩٧ هـ تحت عنوان « المسيحيون في مصر والحكم بشرع الله » فقد وجهت بعض الاسئلة إلى بعض أهل الفكر من ممثلي الطوائف المسيحية في مصر ، فكانت اجاباتهم امتداداً لما نقلناه عن الزعيم السوري فارس الخوري . قالت الدعوة :

« وربما انبعثت أصوات هنا وهناك تتساءل : وماذا عن الأقليات فى هذا المجتمع الذي يطبق شرع الله ؟ وربما هذا السؤال ليس له ما يستدعيه . شريعة الله لكل خلق الله : عدل كاف وصون للمال والعرض والحياة وفى ذلك توجهت الدعوة بأسئلة محددة إلى إخواننا أهل الرأى الممثلين للطوائف المسيحية فى هذا البلد تستطلع رأيهم الحكيم فى شرع الله وهجر كل القيم والقوانين والنظريات الوضعية .

وقد وجهت الدعوة سؤالين محددين :

« إذا كان الاسلام والمسيحية ملتقيين في تحريم الزنا ــ مثلاً ــ ومحاربته ، فهل عندكم مانع في تطبيق حد الزنا وبقية الحدود الاسلامية الأخرى على من استوجب اقامتها عليه في المجتمع المصري ، وهل ترى في تطبيقها ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم ؟

« من خلال دراستكم للتاريخ ماذا ترون في حكم الاسلام بالنسبة للأقليات من ناحية العبادة والأموال ، والأعراض ؟

عن السؤال الأول يجيب الكاردينال اصطفانوس بطريك الأقباط الكاثوليك :

« الأديان السماوية تشير إلى تحريم القتل والزنا ، وإلى المحبة ، والمعروف أن من يحب الله يجب أن يحب أخاه ومن يدعي أنه يحب الله ولا يحب أخاه فهو كاذب ، فالقتل والزنا والسرقة إلى آخر المنكرات ضد المحبة لأن الله خلق الانسان ليكون مستقيماً غير منحرف ، ويستفيد من التعاليم الآلهية . ولذلك فالذي يشذ عن نظام الله وتعاليمه ــ بعد أن تكفل له أسباب العيش ومستلزماته ــ يجب أن تطبق عليه حدود شريعة

الله ليرتدع ويكون عبرة لغيره ، وحتى لاتعم الفوضى عندما يقتل أحد أخاه ولا يقتل ، أو يسرق ولا تقطع يده ، أو يزني ولا يقام عليه حد الزنا ، وهذا ماوجدناه في القوانين الوضعية التي تجامل الناس وتلتمس لهم مختلف الأعذار ، مما جعل المجتمع غير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه ، وأعود فاكرر أن تطبيق حدود الشريعة الاسلامية ضروري على الشخص وعلى المجتمع حتى تستقيم الأمور وينصلح حال الناس ، وليس في تطبيقها ــ أبداً ــ مايمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم . كما يجيب غبطة الكاردينال عن السؤال الثاني فيقول :

« إن الذي يحترم الشريعة الاسلامية يحترم جميع الأديان ، وكل دين يدعو إلى المحبة والاخاء ، وأي إنسان يسير على تعاليم دينه لا يمكن أن يبغض أحداً أو يلقى بغضاً من أحد ، ولقد وجدت الديانات الأخرى ــ والمسيحية بالذات ــ في كل العصور التي كان الحكم الاسلامي فيها قائماً بصورته الصادقة ، مالم تلقه في ظل أي نظام آخر ، من حيث الأمان والاطمئنان في دينها ومالها ، وعرضها وحريتها ».

أما الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمي والدراسات العليا وممثل الأقباط الارثوذكس ، فيجيب عن السؤال الأول السابق قائلا :

« إن تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية أمر لاشك فيه ولا اعتراض عليه . فالشرائع السماوية نور وهداية للبشر ، ونحن نؤمن أن الدين لم يعط للناس إلا ليكون عوناً لهم ، لتصير حياتهم به أفضل مما تكون بغيره ، والهدف من الوحي الإلهي تحديد الطريق الذي يساعد الانسان على أن يعيش بمبادئ الدين سعيداً كريماً . وقال : إن موضوع تطبيق الحدود السماوية في نظري يجب أن نتناوله من شقين ..

الأول : شق التوجيه والحض على الفضيلة والتمسك بالقيم الروحية الدينية . ولكي يجدي هذا لابد من اصلاح الأسرة حتى تستقيم العلاقة بين أفرادها ، والاهتمام بتعليم الدين بجميع مراحل التعليم عن طريق المدرسين الأكفاء المنتقين لهذه الرسالة علماً وقدوة فالدرس هو المدرس ! كما يجب صرف مكافآت للمدرسين الذين يؤدون واجبهم في هذا المجال بأمانة ، وكذلك للطلاب الذين ينبغون في مادة الدين . ولكي تثمر هذه المادة في تقويم النشء والشباب يجب ألا ننسى دور وسائل الاعلام من إذاعة وتليفزيون وسينما ، حيث يجب أن تتضمن بث الدعوة الروحية بين الشباب وتقديم الأمثلة والنماذج الحية من الماضي والحاضر . وتبغيض الناس في الشر ، وتنفيرهم من الرذيلة عن طريق التلميح من غير عرض لصور الخطيئة الفاضحة التي تستثير الشباب وتغريهم على الخطيئة .

أما الشق الثاني : وهو جانب الردع والعقاب والمنع لما يتعارض مع مبادئ الدين والفضيلة والقيم الروحية .. وهذا ما تتولاه الحدود السماوية التي شرعت لردع المستهترين أومعاقبتهم ليكونوا عظة لأنفسهم وعبرة لغيرهم . وأضاف الأنبا غريغوريوس قائلاً : رغم أن الديانة المسيحية ليس في نصوصها قطع يد السارق أو قتل القاتل الخ .. إلا أننا كمسيحيين لا نعارض في تطبيق حدود الشريعة الاسلامية إذا كانت هذه رغبة اخواننا المسلمين وفي نظري أن هذا لن يتحقق كما يجب إلا إذا ضمنا للقضاء سيادته الكاملة التي تعطي له حرية التحقيق الشامل والتقصي للجريمة وأسبابها .

أما السؤال الثاني فيجيب عنه أسقف البحث قائلاً :

لقد لقيت الأقليات غير المسلمة ــ والمسيحيون بالذات ــ في ظل الحكم الاسلامي الذي كانت تتجلى فيه روح الاسلام السمحة كل حرية وسلام وأمن في دينها ، ومالها وعرضها .

أما القس برسوم شحاته وكيل الطائفة الإنجيلية في مصر فكان رده على السؤال الأول : ان الأديان كافة تحرم الجريمة ، والنفوس الانسانية يجب أن تعالج من الوقوع في الجريمة وقبل الوقوع بكل وسائل الاصلاح والتربية الجادة القائمة على احياء القيم الروحية وسريانها في النفوس والارتباط بالشرائع السماوية في ارشادها وهديها . أما النفوس المتحجرة والقلوب القاسية التي لايجدي معها النصح والارشاد والتوجيه فهذه تعتبر شاذة وجرثومة في جسم المجتمع يجب انقاذه منها ..

وهنا لابد من تطبيق حدود الشريعة الاسلامية لتحقيق العدالة والسلام والحب في المجتمع ، ويطالب في نظري بدقة التنفيذ الجاد لهذه الحدود وزير الداخلية الذي يمثل سلطة الأمن شخصياً ، مع ضرورة أن تعود للقضاء سيادته وحرمته التي تعطيه الحرية الكاملة في البحث والتقصي عن كل حادثة أو جريمة .

ويضيف وكيل الطائفة الإنجيلية مجيباً على السؤال الثاني بقوله :

« في كل عهد أوحكم إسلامي التزم المسلمون فيه بمبادئ الدين الاسلامي كانوا يشملون رعاياهم من غير المسلمين ــ بكل أسباب الحرية والأمن والسلام ، وكلما قامت الشرائع الدينية في النفوس بصدق بعيدة عن شوائب التعصب المقوت والرياء الدخيلين على الدين ، كلما سطعت شمس الحريات الدينية والتقى المسلم والمسيحي في العمل الايجابي والوحدة الخلاقة .

وأخيراً ..

وبعد أن وضحت الأمور وأصبح موكداً اجماع كل الفئات على ضرورة تطبيق حدود الشريعة الاسلامية ، فإن السؤال الآن :

هل هناك بعد ذلك ما يحول أو يقف أمام تطبيق الشريعة الاسلامية .. ومن الذي يستفيد من عمليات التسويف المستمرة والاحتجاج بالاقليات وغير الاقليات ؟!

إن المناخ الآن مهيأ .. والفرصة سانحة .. والظروف تستحث وتنادي .. وعلينا أن نعقد العزم ، ونعد الخطط ، ونهيء الأسباب لتطبيق اسلامي سليم ، يعود علينا بالخير في ديننا ودنيانا .. ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يوسف القرضاوي

هوامش

(١ ، ٢ ، ٣) الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (المرحلة الأولى) للأستاذ محمد على الغتيت ص ٧٤ ــ ٧٥ .

(٤) الواقع أن هذا الادراك من الخلفاء الأولين ليس راجعا إلى مجرد عبقرية سياسية كما ذكر الكاتب ، بل إلى تعاليم الاسلام التى كانت هى الموجه الأول لهؤلاء الخلفاء والتي علمتهم أن : لا اكراه فى الدين وغرست فيهم روح العدل والسماحة المنقطعة النظير .

(٥) حضارة العرب ص ٥ : ٦ .

(٦) أنظر « الدعوة إلى الاسلام » لتوماس ارنولد ترجمة د . ابراهيم حسن وزميله فهو يحوى مئات الوقائع والأمثلة على سماحة المسلمين .

(٧) تاريخ العرب فى القرن العشرين تأليف روم لاندو ترجمة نقولا زيادة ، نقلا عن كتاب « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » للأستاذ عبد الله التل ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٨) الغرب والشرق السابق ذكره ص ٩٧ .

(٩) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ــ ١٠٦ .

(١٠) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(١١) من الشرح الصغير للدردير المطبوع مع حاشية الصاوى جـ ١ ــ ص ٣٦٦ .

(١٢) عن كتاب فارس الخوري وأيام لا تنسى للأستاذ محمد الفرحانى ص ٢٦٧ .

(١٣) نفس المصدر ص ٢٧ : ٢٧١ .

(١٤) نفس المصدر ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(١٥) نفس المصدر ص ٢٦٩ .

(١٦ ، ١٧ ، ١٨) نفس المصدر ص ٢٧٢

ملامح التغير في بعض الظواهر الاجتماعية في قطر

بقلم: بشير يوسف الكحلوت

يمر المجتمع القطرى كغيره من المجتمعات الخليجية والمنتجة للنفط بوجه عام بفترة من فترات التحول الاقتصادي والاجتماعي الناجمة عن انخفاض ايرادات النفط وترشيد معدلات الانفاق . وهناك أيضا بعض التحولات التى طرأت على الظواهر الاجتماعية في البلاد بتأثير عوامل أخرى غير ترشيد الانفاق ، ونحاول فى هذه المقالة أن نتحدث عن بعض الظواهر الاجتماعية لمعرفة ما حدث من تبدل وتغير مع دراسة الاتجاهات الجديدة لتلك الظواهر والعوامل التي أثرت فيها وندرس بوجه خاص الظواهر التالية : التردد على دور السينما . الليالي السياحية ونزلاء الفنادق ، التردد على دور الكتب ، زوار العيادات الخارجية ، عدد المواليد أحياء .

أولاً : التردد على دور السينما :

ارتفع عدد المترددين على دور السينما باضطراد خلال السبعينيات مما شجع على بناء دارين حديثتين للعرض فى مدينة الدوحة هما سينما الخليج والدوحة . وقد بلغ عدد المترددين على دور السينما ذروته فى عام ١٩٧٨ عندما تجاوز المليون ونصف المليون مشاهد ، عرض عليهم نحو ٩٠٤ فيلماً منها ٨٣١ فيلماً أجنبيا و٧٣ فيلماً عربياً . وابتداءا من عام ١٩٧٩ تراجع عدد المترددين على دور السينما تدريجياً وصاحب ذلك زيادة فى عدد الأفلام المعروضة في محاولة للحد من تراجع عدد المترددين ، ورغم ذلك انخفض العدد إلى أقل من ١,٢ مليون مشاهد فى عام ١٩٨٠ رغم ارتفاع عدد الأفلام المعروضة إلى ١١٤٠ فيلما منها ١٠٦٢ فيلما أجنبياً .

وقد استمر تراجع عدد المشاهدين فى السنوات التالية بصورة مضطردة إلى أن بلغ أقل مستوياته فى عام ١٩٨٤ حيث انخفض العدد إلى نحو ٢٧٦ ألف متفرج فقط وفي المقابل تراجع العدد الكلى للأفلام المعروضة إلى ٨٤٨ فيلما فقط في عام ١٩٨١ وظل حول هذا المستوى تقريباً فى السنوات التالية . وقد كان التراجع على حساب الأفلام الأجنبية فى حين حافظت الأفلام العربية على قدر أكبر من الثبات عند مستوى ٧٠ فيلماً فى السنة الواحدة .

وإذن لدينا ظاهرة واضحة وهي انخفاض عدد المترددين على دور السينما فى قطر منذ عام ١٩٧٨ .

وقد يكون هناك بعض العوامل التى نرجح أن تكون وراء حدوث هذه الظاهرة وهي :

١ ــ انخفاض عدد العمال الأجانب بعد انتهاء الكثير من المشروعات الصناعية والعمرانية .

٢ ــ استغناء بعض الشركات الخاصة والادارات الحكومية عن بعض الموظفين والعمال الأجانب .

٣ ــ انتشار استخدام أجهزة الفيديو وتعدد محلات بيع وتأجير أشرطة الكاسيت .

٤ ــ تزايد عدد ساعات البث التليفزيونى بعد افتتاح البرنامج الثانى (القناة ٣٧ من تليفزيون قطر) ووصول البث التليفزيونى من دول الخليج المجاورة بشكل واضح أغلب فترات السنة .

٥ ــ الاقبال على النشاطات الرياضية والترفيهية الأخرى .

ثانياً : الليالي السياحية ونزلاء الفنادق :

تتوفر لدينا بيانات عن هذه الظاهرة منذ عام ١٩٨٠ فقط ويتبين من تلك البيانات أن النشاط الفندقى قد ارتفع تدريجياً ليصل ذروته فى عام ١٩٨٢ عندما بلغ عدد النزلاء نحو ١٢٥,٨ ألف شخص قضوا فى مجموعهم نحو ٤١٠ ألف ليلة وخلال العامين التاليين تراجع عدد النزلاء ليصل إلى نحو ١١٠ ألف شخص في العام الماضى ١٩٨٤ مع حدوث انخفاض أكبر في عدد الليالي السياحية حيث وصلت إلى نحو ٢٦٦ ألف ليلة . أي أننا هنا أمام ظاهرة انخفاض عدد الليالي السياحية في البلاد من مستوى الذروة عام ١٩٨١ عندما بلغت ٤٢٠ ألف ليلة إلى نحو نصف هذا الرقم في عام ١٩٨٤ مع انخفاض بنسبة أقل فى عدد النزلاء . ومن بين الأسباب المحتملة لتفسير هذه الظاهرة مايلي :

١ ــ ترشيد الانفاق منذ عام ١٩٨٣ فى البلاد ، وانتهاج سياسة مالية تتفق مع خطط الترشيد المدروسة بعناية .

٢ ــ الانفراج الذي تم فى مسألة السكن باستكمال إنشاء الآف الوحدات السكنية التي جعلت من الممكن توفير السكن للقادمين الجدد بعد فترة وجيزة من الاقامة في الفنادق بدلاً من الاقامة لفترات طويلة كما كان يحدث في السابق .

٣ ــ قد يكون للتطور في هذه الظاهرة أيضاً علاقة بتنظيم دخول وإقامة الأجانب في البلاد .

جـــدول رقم (١)

تطور عدد رواد دور السينما والأفلام المعروضة

١٩٧٦ ـ ١٩٨٤

السنوات	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
عدد الرواد « بالمليون »	١,١٤٢	١,٢١١	١,٥٦٩	١,٤٧٢	١,١٦٦	٠,٨٠٢	٠,٧٠٧	٠,٥٢٣	٠,٢٧٦
عدد الافلام	٦٩٢	٩٨٨	٩٠٤	١٠٢٩	١١٤٠	٨٤٨	٨٩٦	٨٨٧	٨٣٦

المصدر : الجهاز المركزي للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ص ١٣٦

ثالثا : التردد على دور الكتب :

بينما شهدت دور الكتب العامة فى قطر زيادة مضطردة في عدد المترددين عليها والمستعيرين كتبها فإن عدد الكتب المستعارة قد تراجع بشكل واضح منذ عام ١٩٨٢ . فقد زاد عدد المستعيرين من ٥٥١٦ شخصاً فى عام ١٩٨١ إلى ٩٣٤٦ شخصاً فى عام ١٩٨٤ بزيادة نسبتها ٦٩ بالمائة فى حين زاد عدد الكتب المستعارة فى عام ١٩٨٢ قليلاً إلى ٢٠٦٨٩ كتاباً ثم انخفض بشكل تدريجي ليصل إلى ١٦١٧٢ كتاباً في عام ١٩٨٤ أي بانخفاض نسبته ٢٢ بالمائة بالمقارنة بعام ١٩٨٢ . ويلاحظ أن هذه الظاهرة قد حدثت فى دارين للكتب فقط هما دار الكتب بالدوحة ومكتبة الخور العامة فى حين كانت هناك زيادة مضطرده فى عدد الكتب المستعارة فى المكتبات الأخرى وهي مكتبات الشمال والخنساء والريان ومكتبة المرحوم الشيخ على آل ثاني . ورغم هذه الزيادة الأخيرة واصل الاتجاه العام للظاهرة ـ أى اجمالى عدد الكتب المستعارة ـ انخفاضه المستمر وقد نتج عن ذلك تراجع واضح فى متوسط ما يستعيره الشخص الواحد فى العام حيث كانت النسبة ٣,٦٤ كتاباً للشخص فى عام ١٩٨١ وانخفضت إلى ١,٧٣ كتاباً فقط فى عام ١٩٨٤ .

وقد يكون وراء هذه الظاهرة عامل إيجابى يتمثل فى تركيز المترددين على عنصر النوع دون الكم فى عملية الاستعارة أو قد يكون الأمر على النقيض من ذلك ويدل على عزوف الشباب عن القراءة بتأثير انتشار استخدام الفيديو ووسائل الترفيه والأنشطة الرياضية المختلفة ، كما قد يكون وراء الظاهرة سبب ثالث يتمثل فى انتشار المكتبات الخاصة فى الأندية والجامعة والمؤسسات والادارات الحكومية بحيث أن الشخص الواحد لا يستعير كتباً من المكتبات العامة فقط بل من المكتبات الخاصة أيضاً التى له علاقة بها سواء كان طالباً أو باحثاً أو موظفاً .

رابعاً : التردد على العيادات الخارجية

يلاحظ أن هناك زيادة مستمرة فى عدد المترددين على العيادات الخارجية والمراكز الصحية ، فقد زاد هذا العدد من نحو ١,٤٨ مليون مريض فى عام ١٩٧٩ إلى نحو ٢,٤٤ مليون مريض فى عام ١٩٨٤ اي بزيادة مقدارها مليون مريض فى الفترة محل الدراسة وبنسبة ٦٥ بالمائة . ومن بين الأسباب المحتملة لهذه الظاهرة :

• الزيادة فى عدد السكان ، وهذا السبب لا يفسر إلا جانبا بسيطا من الظاهرة باعتبار أن الزيادة الطبيعية في السكان لا تزيد عن ٤ بالمائة سنوياً كما أن معدلات الهجرة إلى الداخل قد تناقصت كثيراً

• ادخال نظام الرعاية الصحية الأولية في البلاد وانتشار المراكز الصحية في أنحاء متفرقة من الدوحة بعد أن كانت تتركز في العيادات الخارجية لمستشفى الرميله ومثل هذا الانتشار يساعد عادة فى تيسير تردد المواطنين على العيادات وحصولهم على العلاج اللازم في وقت قصير خاصة وأن عدد الاطباء قد تضاعف فى نفس الفترة وبلغ نحو ٥٠٤ طبيباً فى عام ١٩٨٤ مقارنة بـ ٣٠٧ في عام ١٩٨١ وأقل من ذلك في عام ١٩٧٩ .

• انتشار الوعي الصحى بين المواطنين كنتيجة منطقية لانتشار التعليم وتأثير أجهزة الاعلام المختلفة التى تهتم ببرامج الرعاية الصحية .

• إزدياد حالات الإصابة ببعض الأمراض وتشير البيانات الأحصائية بهذا الخصوص إلى أن عدد حالات الإصابة بمرض القلب قد زادت من ٥٦٥٦ حالة في عام ١٩٨٢ إلى ١٤٧١٠ حالة فى عام ١٩٨٤ كما زاد عدد المصابين بمرض السكري إلى

جـدول رقم (٢)

تطور عدد نزلاء الفنادق وليالي الاقامة

السنوات	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
نزلاء الفنادق بالألف تقريباً	١٠٢	١٠٩	١٢٦	١٢٤	١١٠
الليالي السياحية بالألف تقريباً	٢١٤	٤٢٠	٤١٠	٣٣٠	٢٢٦

المصدر السابق ص ١٤٢

جـــدول رقم (٣)

تطور عدد المستعيرين والكتب المستعارة من المكتبات العامة

السنوات	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
عدد المستعيرين	٥٥١٦	٦١٥٠	٨٩٧٦	٩٣٤٦
عدد الكتب المستعارة	٢٠١٢٠	٢٠٦٨٩	١٧٢٩٩	١٦١٧٢

المصدر السابق ص ١٤٠

جـدول رقم (٤)

تطور عدد المترددين على العيادات الخارجية والمراكز الصحية

السنوات	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
العدد لأقرب ألف	١٤٨١	١٥٦٢	١٥٩٦	١٦٠١	٢٠١١	٢٤٣٧

المصدر السابق ص ١١٩

أكثر من الضعف في نفس الفترة وحدثت زيادات مماثلة في المصابين بأمراض الربو والأنف والأذن والحنجرة والكبد والمسالك البولية والعيون والأمراض العصبية والعظام والروماتيزم وغيرها .

• إنشاء مستشفى حمد العام وتزويده بأحدث أنواع الأجهزة الطبية وبالاخصائيين في مختلف التخصصات الطبية مما ساعد على استقطاب المرضى ليس من دولة قطر فحسب بل من الدول المجاورة .

هذه مجموعة من العوامل التي ساهمت جميعها وإن بدرجات متفاوتة في زيادة عدد المترددين على العيادات الخارجية والمراكز الصحية ، وهي كغيرها ظاهرة تحتاج إلى مزيد من الدراسة لتطوير الجوانب الايجابية فيها كزيادة عدد المراكز الصحية ونشر الوعي الصحي بين الناس والتصدي للجوانب السلبية المتمثلة في ازدياد حالات الاصابة ببعض الأمراض .

خامساً : عدد المواليد أحياء :

يلاحظ أن هناك زيادة مستمرة في عدد المواليد أحياء بحيث تضاعف العدد في عشر سنوات من ٤٥٥٩ مولودا في عام ١٩٧٥ إلى نحو ٨٦١٣ مولودا في عام ١٩٨٤ . ورغم هذه الزيادة في العدد الكلي للمواليد فإن هناك تبايناً في الزيادات التي تطرأ بين سنة وأخرى على عدد المواليد القطريين والزيادات التي تطرأ على عدد المواليد غير القطريين فمنذ عام ١٩٧٥ كان العدد السنوي للمواليد أحياء يزداد بمعدل ١٩٠ مولوداً بالنسبة للقطريين و٢٥٤ مولوداً بالنسبة لغير القطريين . وحدث في عام ١٩٨٤ أن تناقصت الزيادة في عدد مواليد غير القطريين لأول مرة منذ عام ١٩٧٥ حيث بلغ عدد المواليد أحياء نحو ٤٨٠١ مولوداً مقابل ٤٨٤٥ مولوداً في عام ١٩٨٣ . ونتيجة لذلك تناقصت نسبة المواليد غير القطريين إلى الاجمالي لتصبح ٥٥,٧٤ بالمائة في عام ١٩٨٤ مقابل ٥٨,٦٤ بالمائة في عام ١٩٨٣ . وفي المقابل ارتفعت نسبة المواليد القطريين إلى ٤٤,٢٦ بالمائة مقابل ٤١,٣٦ بالمائة فقط في عام ١٩٨٣ . وإذا استمر هذا الاتجاه في عام ١٩٨٥ فإنه يكون نتيجة منطقية للظروف الاقتصادية .

ويكون بذلك أحد التغيرات الايجابية التي ستعمل على تصحيح الخلل في التركيبة السكانية للمجتمع القطري .

سادساً : احصاءات المباني :

تعتبر احصاءات المباني من المؤشرات الهامة في الدلالة على مستوى النشاط الاقتصادي ، حيث ينخفض عدد الوحدات المبنية عادة كنتيجة لانخفاض مستوى النشاط الاقتصادي في البلاد مع وجود فارق زمني بين حدوث التغير في مستوى النشاط والتراجع في عدد الوحدات المبنية ، والعكس صحيح في حالة الزيادة .

وقد تزايد عدد الوحدات المبنية في قطر بإضطراد خلال السبعينيات وبلغ الذروة في عام ١٩٨٣ ببناء نحو ٢٥٨٤ وحدة ، ثم تراجع العدد في عام ١٩٨٤ إلى ٢١٠١ وحدة أي بانخفاض نسبته ٢٣ بالمائة .

وفي المقابل فإن الرخص الممنوحة للبناء قد بلغت ذروتها في عام ١٩٨٢ عندما أعطيت الموافقة لبناء ١٩٩١ مبنى تشتمل على ٧٨٦٥ وحدة ، وفي العامين التاليين تراجع عدد الرخص بشدة إلى ١١١٥ رخصة في عام ١٩٨٤ تشتمل على ١٩٠٥ وحدة فقط . وهذا التراجع الشديد في عدد رخص البناء يجعلنا نتوقع بالتالي استمرار انخفاض عدد الوحدات المبنية في عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ وخاصة فيما يتعلق ببناء العمارات السكنية التي انخفض عدد التصاريح الخاصة بها من ٦٣١ رخصة في عام ١٩٨٢ إلى ٢٤٦ رخصة في عام ١٩٨٣ ثم إلى ٨٩ رخصة فقط في عام ١٩٨٤ .

إذن نحن بصدد ظاهرة انخفاض نشاط قطاع البناء والتشييد بوجه عام وتراجع عدد العمارات السكنية الجديدة بوجه خاص .

الخلاصة التي نخرج بها من هذا الاستعراض السريع لبعض الظواهر الاجتماعية في قطر أن هناك تغيراً ملحوظاً يطرأ على اتجاهات تلك الظواهر وأن هذه التغيرات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث لمعرفة مسبباتها الأصيلة وقياس التأثير الكمي لتلك المسببات إن أمكن ومعرفة اتجاه تلك الظواهر خلال الأعوام القادمة .

بشير يوسف الكحلوت

جـدول رقم (٥)

تطور عدد المواليد أحياء المسجلة حسب الجنسية

١٩٧٥ — ١٩٨٤

السنوات		١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
قطريون	عـدد	٢٠٤١	٢١٨٠	٢٢٦١	٢٨١٣	٢٧٥٢	٢٨٥٣	٣٠٠٢	٣٤٥٧	٣٤١٦	٣٨١٢
٪		٤٤,٨	٤٤,٦	٤٢,٦	٤٧,١	٤٥,٤	٤٢,٣	٤١,٧	٤٣,٠	٤١,٤	٤٤,٣
غير قطريين											
عـدد		٢٥١٨	٢٧١٣	٣٠٥٢	٣١٦٤	٣٣٠٥	٣٨٩٧	٤١٩٠	٤٥٧٤	٤٨٤٥	٤٨٠١
٪		٥٥,٢	٥٥,٤	٥٧,٤	٥٢,٩	٥٤,٦	٥٧,٧	٥٨,٣	٥٧,١	٥٨,٦	٥٥,٧
الاجمالي		٤٥٥٩	٤٨٩٣	٥٣١٣	٥٩٧٧	٦٠٥٧	٦٧٥٠	٧١٩٢	٨٠٣١	٨٢٦١	٨٦١٣

المصدر السابق ص ١٧

جـدول رقم (٦)

تطور عدد المباني والرخص الممنوحة للبناء

السنوات	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
عـدد المباني	٥٤١	٨٨٣	٩٠٣	٦٩٦
ما تم بناؤه :				
عـدد الوحدات	١٣٤٥	١٨١٨	٢٥٨٤	٢١٠١
عـدد المباني	٢٦١١	١٩٩١	١٥٦٥	١١١٥
الرخص الممنوحه				
عـدد الوحدات	٥٩٧٣	٧٨٦٥	٤٠٤٠	١٩٠٥

المصدر السابق ص ٢٩٧ ، ٢٩٨

شاعر خليجي أهمله التاريخ

دعوة إلى جمع ديوانه ورسائله وتقديم آثاره للأجيال الجديدة



بقلم: عبد الرزاق البصير

بخل تاريخنا الأدبي في أن يحدثنا حديثاً يرسم صورة لهذا الأديب أبي عبدالله محمد بن يوسف المعروف بالأربلي ، هذا الشاعر العربي الخليجي الغني بما منحه الله من مواهب عديدة . فقد كان إماماً مقدماً في علم العربية متفنناً في أنواع الشعر ، ومن أعلم الناس بألوان الأدب وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه وأدقهم نظراً في اختياره . استطاع أن تكون له يد في علم الهندسة فقد قال المؤرخون عنه بأنه حل كتاب إقليدس أشهر علماء الرياضيات في العصور القديمة ، فكل من يستطيع أن يتفهم كتابه المتضمن أصول علم الرياضيات المعروف بكتاب « الأصول » ، من يتفهم هذا الكتاب فإنه يعد نابغة من النوابغ ، لذلك نجد المؤرخين يعدون تفهم هذا الكتاب علامة بارزة على تفوق هذا الشاعر المجيد .

وقد شاء الله أن يولد هذا الأديب في عصر ضعفت فيه أمور الحكم وشاع فيها الفساد بحيث أصبح الحكم ريشة في مهب الرياح . فقد توزع النشاط العلمي الذي كان منحصرا في بغداد إلى العواصم التي اتخذتها الدول المستقلة مستقراً لها ، إذ أن السلطان العربي القوي الواسع تفتت إلى دويلات صغيرة وكبيرة .

وكانت كل دولة تسعى إلى أن يكون لها مجد مؤثل ، وذلك بأن تستقطب الأدباء والعلماء والشعراء ، تغدق عليهم الأموال وتنزلهم أشرف المنازل لتشيع مكانتها الأدبية بين الناس . وكانت أكثر هذه الدول يقوم أمرها على عنصر غير العنصر العربي كالسلاجقة والبويهيين والفرس ، ولم تكن الحالة الاجتماعية أفضل من الناحية العلمية . فقد كان العنصر العربي يشعر بغربة شديدة منذ قيام الدولة العباسية ، ثم أخذت هذه الغربة تشتد على النفوس حين بنى المعتصم « سامراء » وجعلها عاصمة للأتراك واعتمد عليهم فكنت ترى العنصر العربي يبذل كل ما في وسعه لتخفيف هذه الغربة عن نفسه فكان يبرز قوته قدر المستطاع . فقد رجع العرب إلى قبائلهم يستعينون بها على ايجاد سلطة لهم . فلما قووا أخذوا يحتلون القلاع والمدن يؤسسون الدويلات كالعقيلين والحمدانين والمرداسيين والمزيدين . وقد نبغ منهم شعراء اعتزوا بعروبتهم كأبي تمام والمعري والمتنبي وغيرهم كثيرون ، كما نبغ منهم أبطال خاضوا المعارك وأبلوا فيها أحسن بلاء . وبرز فيهم مفكرون استطاعوا أن يسيروا دنيا السياسة « كالربيع بن يونس وابنه الفضل » .

● كان شاعرنا محظوظاً لأنه عاصر انتصار صلاح الدين الأيوبي ورأى كيف استرد المسلمون كرامتهم

● قصيدة عصماء لهذا الشاعر أطالب بأن تُغْرَس في نفوس ناشئينا ليحفظوها عن ظهر قلب

أشهر أجواد العرب

وليس من شك أن العنصر العربي كان يعتز حين يرى منهم شاعراً يضيء دنيا الأدب أو مفكراً أو فيلسوفاً يبرز في دنيا الفلسفة أو فارساً ينجح في قيادة المعارك أو سياسياً يبرز في علم السياسة ، وكيف لا يشعر العنصر العربي بهذا الشعور وهو يرى فرسانه يضطرون إلى الاختفاء لأن السلطان العربي لا يجد من ينتصر له إلا حين تضيق الأمور . والأدلة على ذلك كثيرة . منها ما جرى « لمعن بن زائد الشيباني » ذلك الفارس الذي تجسدت فيه المروءة العربية . فقد قال المؤرخون عنه إنه كان من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان الفصحاء ، أدرك العصرين الأموى والعباسي . وكان يتنقل من منصب إلى منصب آخر في الحكم . فلما صار الأمر إلى بني العباس طلبه المنصور ، فتستر وأمعن في البادية خوفاً من دسائس الأعاجم عليه ، فلما كان يوم الهاشمية وثار جماعة من أهل خراسان على المنصور وقاتلوه ثارت في نفسه الغيرة القومية فتقدم وقاتل بين يدي المنصور حتى أفرج الناس عنه ، عندها عرف المنصور « لمعن » مكانته فأكرمه وجعله في خواصه . فولاه اليمن فسار إليها محتملاً ما لقيه من مصاعب ، ثم ولي سجستان وابتنى بها قصراً وطبقت شهرته الآفاق لكرمه وشجاعته . لكن العنصر الأجنبي لم يرقه ما تمتع به هذا الفارس العربي من مكانة رفيعة فدخل عليه أناس في زي العمال فقتلوه غيلة .

وأخباره كثيرة باهرة نرجو أن نعود إليها في فرصة أخرى لنعطيه بعض حقه . على أن من يتتبع سيرة التاريخ في تلك العصور يجد الخلافة تسير إلى الانحدار بسرعة شديدة حتى بلغ من ضعف الخلافة أن الطامعين بالحكم لا يكتفون بخلع الحاكم وإنما يسملون عينيه ليكون عدم صلاحه للخلافة واضحاً للناس كما حدث « للقاهر » الخليفة العباسي ، فقد وقف يستجدي في جامع المنصور فأعطاه رجل خمسمائة دينار . وقد بلغ من ضعف السياسة الإدارية أن وصلت الأمور أن « أم موسى القهرمانية » أصبحت تشير بتعيين وزير وعزل آخر وتنصيب وال وتنحية غيره ، أو تتوسط فتمنع مصادرة أموال المعزولين والمقبوض عليهم من محاسيبها وأنصارها . لا لكفاية أو مقدرة أو علم وإنما لأنها قهرمانة ترعى وترأس جواري القصور . فأي ضعف أعظم من هذا الضعف !

موهبة الشعر

وقد شاء الله أن ينشأ شاعرنا البحريني في هذه الظروف الرديئة ، إلا أنه كان محظوظاً لأنه عاصر انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين مما جعل العزة تسري في قلب كل مسلم بصورة عامة وفي قلب كل عربي بصورة خاصة . وكانت موهبة الشعر قد ملأت نفس شاعرنا منذ صباه ، وظل يعزز موهبته بما يذيع من قصائد في مدح صلاح الدين الأيوبي بعد أن رحل إلى دمشق ليشاهد استرداد كرامة العرب والمسلمين بإبعاد الصليبيين عن البلاد . وكان يكتب عدة رسائل يرسم فيها ما يجول في نفسه من أفكار وآراء حتى اجتمعت له من ذلك رسائل حسنة ، وكان له القدح المعلى في الشعر . وكان والده من أهل إربل وصنعته التجارة وكان يتردد من إربل إلى البحرين ويقيم بها مدة لتحصيل اللآلئ من المغاصات أسوة بأمثاله من التجار . ولعل أشهر قصيدة عرف بها الشاعر الموهوب ، تلك القصيدة التي مدح بها (زين الدين أبو المظفر) صاحب إربل ، ذلك الوالي الذي استطاع أن ينشر الأمان والاستقرار في تلك البلاد . ومن يقرأ هذه القصيدة يجد فيها التعبير الكامل عما ألم بالأمة العربية والاسلامية من خطوب وأهوال أدت إلى وهنها وجرح عزتها وكرامتها في تلك العصور مما قد أشرنا إليه فيما سبق وأي تعبير أقوى من قوله :

كنت مشغوفاً بكم إذ كنتم
شجراً لا يبلغ الطير ذراها
لا تبيت الليل إلا حولها
حرس ترشح بالموت ظباها
وإذا مدت إلى أغصانها
كف جان قطعت دون جناها
فتراخى الأمر حتى أصبحت
هملاً يطمع فيها من يراها
تخضب الأرض فلا أقربها
رائداً إلا إذا عز حماها
لا يرائي الله أرعى روضة
سهلة الأكناف من شاء دعاها
وإذا ما طمع أغرى بكم
عرض اليأس لنفس فثناها

أين الديوان ؟

ومعظم هذه القصيدة العصماء تجري على هذا النسق وأعتقد أنني محق إذا اقترحت أن تغرس في نفوس ناشئينا ليحفظوها عن ظهر قلب فإنها من الشعر الذي يحبب العزة والكرامة في النفوس . وقد ذكر « ابن خلكان » أن لشاعرنا « أبي عبدالله الأربلي » ديوان وعدة رسائل ولقد اجتهدت في أن أعثر على ديوانه ورسائله فلم أوفق إلى ذلك ، فهل لمن لديه ديوان هذا الأديب ورسائله أن يحققها لتبصر النور فإنه إن فعل ذلك فسيحيي أديباً متمكناً تنطوي جوانحه على نفس أبية عزيزة . أما إذا أردت أن تعرف مقدار رحلته في هذه الدنيا فإنك لن تظفر بذلك لأن تاريخنا الأدبي لم يخبرنا عنه إلا أنه توفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة دون أن يشير إلى مقدار عمره وكل ما ذكر عنه أنه اختصر « عمدة بن رشيق » و « مفضليات الضبي » إلا أن المنية عاجلته دون إتمامه . وكم من كنز من كنوزنا الأدبية والفكرية حرمنا منها وبقيت في ركام النسيان .

خواطر تسر الخاطر

كلام من تعوّدوا السّكوت..



بقلم: زكريا تامر

قالت الغيمة :

ــ لست متجنية ولا حاقدة ، ولا أبوح بسر من الأسرار إذا ما قلت إن رحلات السندباد ليست سوى سبع رحلات فقط ، ومع ذلك فقد كتبت عنها الحكايات الطويلة المثيرة الشوقة الطريفة ، وترجمت إلى شتى لغات الأمم ، وتحولت إلى أفلام سينمائية للكبار وللصغار ، أما أنا فمنذ ولادتي إلى مماتي دائمة الرحيل من بلد إلى بلد من غير توقف ، ولا ألجأ في أية ليلة الى فندق كي أنام فيه ، ولا أحد كتب منوهاً برحلاتي ، ولا أحد سيتمكن من اقناعي بأن السندباد لم يكن ثرياً يحسن استثمار أمواله ، وكلف بعض الأدباء بالكتابة عنه لتخليده ، ونال ما رغب فيه ، ولكن ما فعله السندباد لا أستطيع فعله لأني فقيرة ، ولا أملك سوى المطر ، والمطر من غير ثمن .

قالت الكلمات :

ــ لكل زمان دولة ورجال وحملة أقلام ، في القديم كان الأدباء يتبارون في التضحية بحياتهم في سبيلي ، أما الآن فكثيرون هم الأدباء الذين يضحون بي من أجل نيل مآرب غير أدبية .

قال الباب :

ــ في قديم الزمان ، كانت الأبواب العربية مفتوحة دائماً كي يخرج منها الرجال الذين كرسوا حياتهم لتحرير البشر من الظلمة والظلم والأصفاد ، ثم استسلم هؤلاء الرجال للكسل أو النوم ، تاركين الأبواب مفتوحة ، فدخل منها الغزاة محتلين ، ثم ظلت الأبواب مفتوحة ليخرج منها الغزاة مطرودين . وينبغي اليوم لمن يهمه الأمر التنبه إلى أن الأبواب مفتوحة وبلا حماية والغزاة يتأهبون للعودة ، وعودتهم في هذه المرة ستكون صارمة قاسية ، وسيعقبها اختفاء نهار الانسان .

قال الحروف :

ــ مطلع على حقائق الحياة ، وصادق ذاك الذي قال إن السكوت من ذهب . أثغو بوداعة فأذبح ، ويغرد العصفور فيسجن في قفص ، وتخور البقرة فيسلب منها حليبها . ويئن الناس قنوطاً أو غضباً فتحفر لهم القبور .

قال السيف :

ــ أنا مظلوم ومنسي في بلاد العرب ، فالتمجيد كله تستأثر به البندقية وحدها بينما لا وجود لأي فرق بيننا : أنا في المتاحف والبندقية في المخازن ، ولا تستخدم إلا نادراً .

قال الشتاء :

ــ لقد قرأت كثيراً عن نكران الجميل ، ولكني أعتقد أن أبشع أنواعه هو الذي يتجلى عملياً في سلوك المصانع المنتجة للثياب الصوفية ، فلولاي لما اشتغلت وأغلقت أبوابها وأشهرت افلاسها ، ومع ذلك فلم أتلق منها في أي يوم برقية شكر .

قال رغيف الخبز :

ــ لو رشحت نفسي لمنصب رئيس جمهورية في بلد من بلدان العالم الثالث لنلت أعلى نسبة من أصوات الناخبين ، وهزمت المنافسين كافة ولو بلغ عددهم الملايين .

قال الالتزام الأدبي :

ــ كثيرة هي الجرائم التي ترتكب باسمي ، فأصرخ مستنجداً ، معلناً أني بريء ، وأن المذنب هو الأديب الذي لا موهبة له ، فلا ينصت أحد لصراخي ، وتستمر معاملتي بوصفي المسؤول الأول عن تشويه الأدب الأصيل .

قالت العقرب :

ــ ما أكثر الجهات المختلفة التي تصدر الارشادات التي تحذر من سمي القاتل ، فلماذا لا تصدر ارشادات مماثلة تحذر من سموم أكثر فتكاً من سمومي وتختفي في صفحات الجرائد والمجلات أم أن سموم الأفكار مرغوب فيها لأنها تقتل ببطء ، والتشريح يثبت أن الموت كان طبيعياً ؟

قال الجدار :

ــ يقولون إن للحيطان آذاناً ، ولكنهم لا يقولون أيضاً إن الحيطان لا تكتب ما تسمعه بخط جميل ، وتقدمه إلى جهات رسمية مسؤولة ، طامحة إلى الفوز بمكافأة ما .

قال الورد :

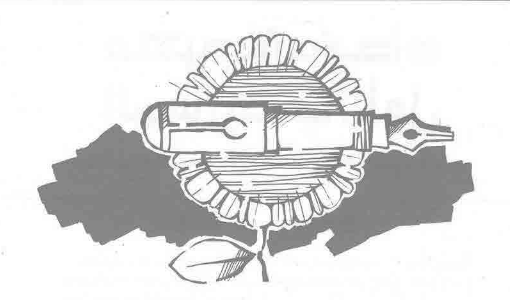
ــ أنا غاضب ويائس وأنوي الانتحار احتجاجاً ، فالناس لا يبالون بي حين أكون حياً ذا جذور متغلغلة في التراب ، ولكني حين أقطع وأباع في الدكاكين ميتاً يبادرون إلى شرائي بأسعار غالية ، فهل الميت أجمل من الحي ؟

قال القطار العتيق :

ــ بعض الصحافيين يكتب ممجداً دخاني ، محاولاً اقناع القراء بأن دخاني هو دخان معمل أو هو سحابة توشك أن تمطر فوق أرض عطشى . ومن المدهش أن هذه المحاولة لا تخفق ويسخر منها بل تظفر بقدر كبير من النجاح المادي والمعنوي .

قال الحبر :

ــ أخشى أن ينقرض استخدام الحبر ذي اللون



الأسود واللون الأزرق، ويحل محلهما الحبر الأحمر. فالدماء العربية تهرق بغزارة، وتعبئتها في زجاجات أقل كلفة من صنع أردأ نوع من أنواع الحبر الأسود أو الأزرق.

قال القط:

ـ شكوى الكتاب من فقدان حرية التعبير عن أفكارهم مضحكة ولا مبرر لها، فأنا أموء كما أشاء ومتى أرغب من دون أن أمنع أو أحاسب أو أعتقل.

قال قابيل:

ـ أنا لم أقتل أخي هابيل إلا لأنه ثبت لدي أنه يؤيد الغزو الاستيطاني، ويدعم الكيان العنصري الصهيوني، وقتل الأخ في سبيل قضية مصيرية مقدسة هو تضحية كبرى يجب أن تحظى بما تستحق من تكريم وإجلال.

قالت النجوم:

ـ يستحسن أن نتوارى ونختفي من السماء لأنه لا أحد ينظر إلينا، فمن يرغب في رؤيتنا سيضطر إلى رفع رأسه بينما الزمان المهيمن زمان الرؤوس المحنية، أما رافعو الرؤوس فهم ينظرون إلى أعلى باحثين فقط عن أنشوطة مشنقة يخشون أن تباغتهم.

قالت المجلة الأدبية:

ـ إذا كنت لا أحظى باقبال القراء على قراءتي، فاللوم يجب أن يوجه إلى رؤساء التحرير الذين لا ينشرون صوراً للأدباء في مرحلة ما قبل ابتكار الثياب.

قالت السمكة:

ـ لو كنت أستطيع الحياة خارج الماء لآثرت البقاء في الماء ولم أفارقه لحظة، ومن كان فضولياً وسأل عن السبب، فليبحث عن الجواب في حياة الذين يعيشون على سطح الأرض. وحين سيعثر عليه، فلابد من أنه سيحسدني لأنه لا وجود للإذاعة والتلفزيون في الأنهار والبحار.

قال الكلب:

ـ يغرد العصفور، فيحظى بقصائد المديح، وأنبح طارداً اللصوص والغرباء، مثبتاً أني أكثر نفعاً من العصفور، فلا يأبه لي أي شاعر، فهل تأويل هذا الأمر الغريب يكمن في أن العصفور صاحب دار نشر أم أن الشعراء هم عشاق لكل ما هو غير نافع؟

قالت الدجاجة:

ـ ما زلت سعيدة الحظ، فلحمي يؤكل بتلذذ ويرمى عظمي في صناديق القمامة بينما المرحلة الراهنة هي مرحلة أكل اللحم والعظم ولا سيما إذا كان المأكول شعباً.

قال قلم الناقد:

ـ ليتني أصبح عصا غليظة تؤدب الذين حولوا الحداثة في الأدب إلى رجس من عمل شيطان رجيم!

قالت كرة القدم:

ـ أنا أفضل حالاً من الناس، فالأقدام التي تتقاذفني أقدام لاعبين سبق لهم أن تدربوا طويلاً، واكتسبوا خبرة في تحقيق الأهداف، أما مصائر الناس فيتقاذفها لاعبون ناشئون، وطائشون عن قصد، تعوزهم الموهبة، ولا تعوزهم القوة.

قالت الشجرة:

ـ كل سنة، لي خريف ولي ربيع، أنا عارية الأغصان في الخريف، أما في الربيع فأنا خضراء مزهرة واعدة بالثمار، غير أن ثمة نتاجاً أدبياً لا يهيمن عليه إلا الخريف، ولن يزور عالمه أي ربيع.

قال الغراب:

ـ فليكف الكتاب عن هجائي بسبب لوني الأسود، فريشي وحده هو الأسود، أما قلبي فلا مكان فيه لأي لون قاتم.

قالت الصحيفة اليومية:

ـ أمنيتي الوحيدة هي أن أصدر ذات يوم بيضاء من غير سوء، تعبيراً عن احترام حقيقي لعقل كل مواطن سواء أكان مثقفاً واعياً أم أمياً جاهلاً.

قال جواز السفر:

ـ إذا بقيت الخلافات بين الدول محافظة على وجودها، فسيأتي يوم أستخدم فيه للانتقال من غرفة إلى غرفة في منزل واحد.

قال الشعر العربي المعاصر:

ـ وا معتصماه!

وقال زكريا تامر:

ـ سأنجب ابناً ثالثاً، وأسميه: أيوب الثالث.

مهرجان بغداد المسرحي الأول

يطرح الأسئلة .. ويقدم الإجابات

بقلم : الفريد فرج

منذ سنوات لم ألتق بمثل هذا الجمع الكبير من نخبة الفنانين المسرحيين العرب .. الذين سعدت بلقائهم في مهرجان بغداد المسرحي الأول في الشهر الماضي ، واستمتعت بانتاجهم الفني الرفيع ومناقشاتهم الحية في الندوة اليومية التي انعقدت طوال أيام المهرجان .



« المسرح التصويري » .. استخدام أثواب القماش في الملك لير

● اجتمع هذا الشمل المسرحي الكبير بمدينة بغداد ، فكانت المدينة بعمرانها الجديد الرائع .. بنظافتها وجمال ميادينها ونافوراتها وتماثيلها .. بمسارحها الثلاثة الجديدة الجميلة .. تضفي على اجتماع المسرحيين من روحها لمسة من الجد والحداثة ، ومن كبرياء الابداع وعزة الطموح ونبل النضال والدفاع .. ما يؤطر ذلك الابداع الفني الرفيع وتلك المناقشات الحية بإطار يليق برؤية فنانين يتطلعون إلى مستقبل الحضارة العربية .

وقد نظم المهرجان منتدى الأدباء الشبان ، فأضفى الشباب على المهرجان نغمة خاصة .. وعمق ذلك المعنى الخاص الذي ينطوي عليه الفن في كل العصور ، وهو أنه شباب الأمة وأنه إشارات للمستقبل .. وأنه رؤيا للغد .

ولكن روح الاحتفال التي تميزت بها المناسبة ، وفرحة اللقاء بين أصدقاء المهنة وأبنائها .. لم تستطع نفي ما يشغلهم من أسئلة وما يجتهدون لطرحه من إجابات .

وقبل أن نتعرض للأسئلة والاجابات .. فلنستعرض ما قدمته الفرق العربية من مسرحيات .

قدمت العراق « مقامات أبي الورد » ،وهي مسرحية تستلهم التراث من تأليف عادل كاظم واخراج ابراهيم جلال .. و « لمن الزهور » وهي مسرحية نفسية من تأليف محيي الدين زنكنة واخراج عزيز خيون ،و « الانسان الطيب » لبرتولد برخت واخراج عوني كرومي ، ورائعة شكسبير « الملك لير » من اخراج د . صلاح القصب .

وقدمت فرقة البحرين مسرحية « رجل من عامة الناس » تأليف عقيل سوار واخراج قحطان القحطاني .. وهي على نمط الحواديت الشعبية القديمة .

وقدمت فرقة المسرح العربي الكويتي « رحلة حنظلة » اقتبسها سعدالله ونوس عن بيتر فايس اقتباساً رائعاً وأخرجها فؤاد الشطي ، وهي عبارة عن رحلة رجل بسيط خلال ضغوط الحياة الطاحنة ..

وقدمت فرقة المسرح المتجول القاهرية « منين أجيب ناس ؟ » لنجيب سرور واخراج الفنان الشاب الصاعد بقوة إلى القمة مراد منير .

وقدمت الفرقة اللبنانية « صانع الأحلام » من اخراج ريمون جبارة وهي مسرحية غنائية معربة عن المسرحية الغنائية الأمريكية الشهيرة « رجل من لامانشا » تأليف جو داريون وميتش لي : وهي تروي قصة سجن سيرفانتس مؤلف دون كيشوت .

وقدمت الفرقة المغربية « الدجال والقيامة » من تأليف عبدالكريم برشيد واخراج مصطفى التومي ، وهي مسرحية فكرية حديثة حاشدة بالرموز .

وقدمت الفرقة التونسية « من أين هذه البلية » مترجمة عن جريجوري جورين وباخراج المنصف السويسي ، وهي مسرحية تحلل ظروف نمو الروح النازية في مجتمع ما .

وقدمت فرقة الممثلين العرب التي كونتها الفنانة نضال الأشقر من عناصر فنية من الأقطار العربية مسرحية « ألف حكاية وحكاية من سوق عكاظ » تأليف د . وليد سيف واخراج الطيب الصديقي .. وهي عبارة عن صور تراثية في إطار مسرحي احتفالي .

مساحة التأليف

وقد نال التأليف المسرحي جائزتين في المهرجان ، هما الجائزة التقديرية التي نالها اسم المرحوم نجيب سرور ،مؤلف « منين أجيب ناس » وجائزة التأليف التي نالها عبدالكريم برشيد ، الكاتب المغربي عن مسرحية « الدجال والقيامة » .

ومع ذلك فلم تستطع الجائزتان أن تحجبا أن نسبة التأليف إلى مجموع النصوص في خيرة انتاج



« منين أجيب ناس ؟ »
تأليف نجيب سرور .. إخراج مراد منير

« حنظلة » في المسرحية الكويتية
الفائزة بالجائزة الأولى

المسرح العربي بالمهرجان لم تتجاوز النصف ، وهي نسبة تدل على مشكلة وتشير إلى أزمة لم يتغاض عنها الفنانون في الندوات اليومية التي شغلت أيام المهرجان .

فمن جملة الأوضاع الهيكلية للمسارح العربية والمؤسسات الثقافية أنها استطاعت أن تهيء للممثل وللمخرج التكوين المهني اللائق ، وفرصة التجريب ، وأتاحت لهما ظروف الاحتراف .. بينما لم تهيء نفس الفرصة للمؤلف بالدراسة أو بالبعثة إلى الخارج أو باحتراف مهنة الكتابة المسرحية أو الانتماء للمسرح وظيفياً .. ما عدا الحالات الخاصة لبعض المؤلفين .

لذلك تشكو معظم المسارح العربية من ندرة النصوص المسرحية العربية المؤلفة ، بينما تشكو بعض هذه المسارح أيضاً من تضخم أعداد الممثلين !

وهي قضية لها جانبها المهني ، ولها جانبها الثقافي والفني .

أما جانبها المهني فلن أتناوله هنا ، أو أشير إلى مادار من مناقشات حوله .. لأنه قد لا يهم مجموع القراء .

أما جانبها الثقافي والفني فهو أمر لا يخصه التفكير البديهي .

فان أية تنمية مسرحية في بلادنا لا تتأسس على التأليف العربي ستتعرض حتما إلى منزلق التعريب .. وتبتعد بمسرحنا عما ينبغي له من ترسيخ لهويته الوطنية والقومية ، وترسيخ لشعبيته .

كما أن تطور مسرحنا القومي في جانب الاخراج والتمثيل مع استمرار ضعفه في جانب التأليف سيدفعه حتما إلى منزلق الشكلية وتنمية الاطار والزينة الفنية تعويضاً عن ضعف المحتوى والمضمون ، أو قد يدفعه إلى منزلق مسرح النجم والممثل الواحد القادر على تعويض ضعف الموضوع .. وهو ما نرى صورته في المسرح التجاري الشائع ، ويخرج بالمسرح عن وظيفته الأصلية كمنبر ثقافي قومي وظيفته إدارة الحوار الاجتماعي والسياسي والقومي والفلسفي مع المجتمع في إطاره الجمالي .

الغاية من استلهام التراث

لا شك أن استلهام التراث القومي والموروث الشعبي في فن المسرح هو من الأساليب المحببة إلى الفنان وإلى الجمهور .

وليس استلهام التراث من ابتكارات المسرح العربي التي يختص بها ، فالمسرح في كل عصوره وفي كل بلاد العالم قد استلهم التراث القومي أو الانساني بأساليب مختلفة وبصور مختلفة .

فلا ينبغي أن يفوتنا ملاحظة أن « أوديب » و « اجاممنون » .. الخ هي قصص من التراث اليوناني استلهمها المؤلف الاغريقي القديم واقتبسها للمسرح ..

كما أن تاريخيات شكسبير وفانتازياته هي في الأساس قصص من التراث البريطاني والأوروبي اقتبسها المؤلف للمسرح .

وقد استلهم المسرح الأوروبي التراث في كل العصور ، كما أن المسرح العربي منذ بداياته الأولى عرف الاقتباس من قصص ألف ليلة وليلة ، ومن التاريخ المكتوب والمروي ومن القصص القديمة .

المسرح كانت له دائماً علاقة ما بالتراث .. علاقة سحرية ، وحبل سري لم ينقطع .

إلا أن جيلنا من الفنانين قد وظف هذا الاستلهام من التراث وظيفة تتلاءم مع شعاراته الفنية ودعاواه الفنية لخصها في وعده باستلهام التراث بهدف تأصيل هوية فن المسرح العربي ووصله بالثقافة العربية والفنون والآداب العربية العريقة المتصلة الحلقات ..

كما حدد فنانو جيلنا هدفهم من استلهام التراث بتحقيق أسلوبهم في الاعراب المسرحي دون التورط في تغريب فن المسرح ، ووعدوا باليقظة بحيث لا يغريهم استلهام التراث بالغيبة عن الواقع وعن الحاضر وعن المستقبل أو بالغيبة عن قضايا الأمة وآلامها وآمالها الحاضرة .

فلم يكن استلهام التراث للمسرح توجها جزافيا أو شكليا أو فارغ المحتوى ، كما لم يكن حلما بالماضي فراراً من الواقع .

ومع أن مناقشات كثيرة قد دارت حول هذه القضية الحيوية التي تمس نصف عدد المسرحيات المؤلفة التي قدمت في المهرجان .. وانتهت المناقشات إلى مثل ما أوردته من رأي حول القضية بالاجمال .. فاني أود أن أضيف إلى ما دار من مناقشات ملحوظة أراها هامة .

نحن دائما نتحدث عن استلهام التراث في مجال التأليف المسرحي ، ولا نجد مادة لذلك الموضوع في مجالي الاخراج والتمثيل .

وهذا سؤال أطرحه على فناني المسرح ، وأرجو أن يتأملوه .. وربما عرضت له ثانية في موضوع التجريب المسرحي الذي يثير عندي بعض الملاحظات .

التجريب المسرحي

يثيرني لابداء هذه الملحوظة أن نصف المسرحيات التي شاهدناها في المهرجان تتصف بصفة التجريب المسرحي ، وقد تبارى المخرجون في مجال التجريب في هذه المسرحيات بابداع لاشك فيه .

ولكني سأقتصر على ايراد تجربتين أثارتا إهتمام الفنانين وجمهور المشاهدين هما تجربتا إخراج « الملك لير » للدكتور صلاح القصب ، و« ألف حكاية وحكاية من سوق عكاظ » إخراج الطيب الصديقي .

سمى د . القصب تجربته بالمسرح التصويري ، وقد اكتفى في إقامة الديكور بأثواب طويلة من القماش الأبيض استخدمه كستائر وكأثواب وكمخابئ للأبطال وكأدوات للتداول بالأيدي .. بأسلوب خلاب ومؤثر ، أتاح له أن يجعل من المسرح صورة متحركة حية درامية تصور فاجعة الملك الحزين وأبطال المسرحية التائهين الضائعين .

جعل المخرج من المسرحية قطعة موسيقية من الصور المتحركة ، مع احتفاظه المقتدر بوحدة اللون وبوحدة أغراض الصور .

أما تجربة الطيب الصديقي التي سماها الفنان بالمسرح الاحتفالي فهي تتأسس على كشف اللعبة المسرحية فالممثلون لا يبرحون المنصة ، والملابس التي سيبدلونها — ليقوم الممثل الواحد بتمثيل شخصيات متعددة — معلقة على المنصة ، والأدوات الموسيقية موجودة حين استعمالها أو قبل استعمالها ، وأدوات الاضاءة ظاهرة ..

والمسرحية تبدأ وتستمر وتنتهي والممثلون مجتمعون دائماً على المنصة في مجموعات كأنها تابلوهات حية .. فالمسرحية عبارة عن احتفال اتفق جماعة من المتسامرين على أدائه والقيام بأدواره أمام الجمهور اتفاقاً صريحاً ، وقد وضع المخرج صور الفسيفساء التراثية في إطار احتفالي من الغناء والرقص والاستعراض ، كأنها حفلة سمر تراثية يقوم بها أفراد الجماعة بلا تكلف أو تظاهر أو إيهام .

ويعتبر الطيب الصديقي واحداً من أهم الرواد في ابتداع هذا الشكل المسرحي الاحتفالي وأكثر المساهمين في مجاله من الفنانين ، وهو تطوير أصيل لمسرح الحلقة المغربي الشعبي ..

ومع ذلك فإننا لهذه المناسبة لابد أن نذكر واحداً من رواد هذا الشكل المسرحي ، وهو فنان كبير ننساه دائماً .. ربما لأننا لا نحب شططه ونزقه الفكري والسياسي ، وإن كان ذلك لا ينبغي أن ينسينا جهده الفني ، وانتماء ذلك الجهد بالضرورة للمسرح العربي ..

ذلك الفنان هو كاتب يسن ، ومسرحه الاحتفالي الشعبي في بلعباس بالجزائر ، ومسرحيته النقدية المشهورة « ٢٠٠٠ سنة » ذات الطابع الاحتفالي الشعبي .. التي أرجو أن يشاهدها فنانونا ، أو أن أكتب عنها في فرصة متاحة .

هاتان التجربتان الملفتتان للنظر لا ينبغي أن تحجبا عنا تجريبية الفنان الشاب مراد منير في

توظيف الديكور المتحرك توظيفاً تعبيرياً مؤثراً ، أو أن تحجبا عنا تجربة الطيب الصديقي نفسه في استخدام الخيمة العربية استخداماً تعبيرياً حياً ، أو تجربة المخرج الشاب عزيز خيون في توظيف إيقاع التمثيل للتعبير عن الجنون .

كل هذه التجارب أثرت الأمسيات المسرحية في مهرجان بغداد ، كما أثارت المناقشات في الندوات ..

إلا أنني أعود إلى ملحوظة مؤجلة لأتساءل : لماذا يقترن استلهام التراث عادة بالتأليف ، ولماذا لا يعطي المخرجون مادة تجريبية في استلهام الموروث الشعبي كما أعطى الطيب الصديقي ؟

وأشير هنا إلى أن التجريب المسرحي ، تماماً كما أن استلهام التراث في المسرح .. يجب أن يكون له غرض وله وظيفة .

فالمرء يشعر أحياناً ، حيال تجربة في الإخراج أنها لا تمت إلا للترف الفني ولا تنتمي إلا إلى الارستقراطية الفنية ..

المسرح له مشاكل معروفة .

والتجريب أخلق به أن يكون توجهاً فنياً نحو مشاكل المسرح ، وجهداً أساسياً في حل هذه المشاكل .

خليق بالتجريب في المسرح أن يتجه إلى زيادة شعبية المسرح وتأصيل التذوق المسرحي لدى الجماهير العريضة .

وخليق بالتجريب في المسرح في مجال الإخراج والتمثيل أن يعاون التأليف في قضية ترسيخ الفصحى في المسرح دون أن يخل ذلك بالواقعية الفنية . فالتأليف قد ساهم بمجالات متنوعة في هذا السبيل ، وبقي أن يجرب الممثل والفريق المسرحي والمخرج في التصدي لهذه القضية .

إلى آخره ..

الجوائز

إلى جانب جائزتي التأليف نال المنصف السويسي جائزة الإخراج ، ومحسنة توفيق جائزة الممثلة الأولى وسامي عبدالحميد جائزة الممثل الأول .

بينما نال عرض الكويت « رحلة حنظلة » الجائزة الكبرى للمهرجان .

وكانت الجائزة الغائبة الحاضرة هي التي نالها المسرح العربي كله بالمستوى المتفوق للفرق المشاركة ، وهو المستوى الذي كان إشارة واضحة إلى أن المسرح العربي يجتهد لتجاوز عثراته بعزم على الابداع والتفوق سنرى آثاره في المستقبل القريب .

فالنهضة ماثلة وممكنة ، وحشد المسرحيين الذين اجتمعوا في بغداد قد وعدونا بها .

الفريد فرج



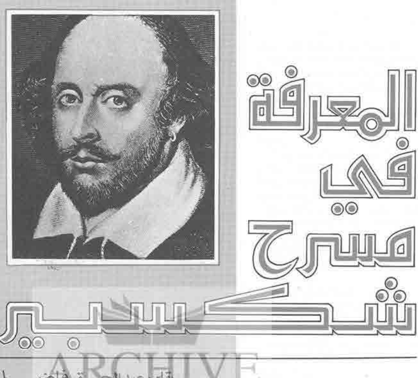
« الدجال والقيامة » تأليف عبد الكريم برشيد



« من أين هذه البلية ؟ » .. إخراج المنصف السويسي



« صانع الاحلام » .. إخراج ريمون جبارة



شكسبير .
لم يتعلم في جامعة ولكنه علم نفسه فاكتسب من المعرفة الانسانية ما لا يستطيع استيعابه أكبر الجامعيين

المعرفة في مسرح شكسبير

بقلم : عبد الحق فاضل

● اتساع المعلومات وكثرتها وتنوعها في مسرح شكسبير دفع بالكثيرين إلى إنكار قدرة شكسبير على كتابة المسرحيات المنسوبة إليه !

● شكسبير لم يتعلم أكثر من ست سنوات في مدرسة ثانوية ، والبعض يقول إنه لم يكمل هذه السنوات الست

بديهي أن الكلام على معارف شكسبير التي كان نصيبها من الجدل أكبر مما نالته أية واحدة من النقاط الأخرى المجهولة تفاصيلها في حياته ، يتطلب البدء ببدايته المدرسية التي كثر الجدل فيها كذلك لما يكتنفها من غموض واحتمالات : لا يوجد تسجيل عن دخوله أية مدرسة مثلما توجد نصوص عن تعميده وزواجه وشرائه ثاني أكبر منزل في بلدته (ستراتفورد) مثلاً ، لكن في جملة السجلات الباقية أن أباه « جون شكسبير » انتخب عام ١٥٦٨ محافظاً للمدينة حين كان هو طفلاً في الرابعة . « وكان مشروطاً في ميثاق ستراتفورد أن يكون في البلدة مدرسة ثانوية (١) مجانية لتعليم الأطفال وتربيتهم » (٢) . ومن الطبيعي ألا يتردد رجل يتسنم أرفع منصب في المدينة في إدخال ابنه هذه المدرسة عند بلوغه سن الدرس . لكن هذا الأب اعتزل المنصب بعد تسع سنوات ، في ١٥٧٧ ، حين كان الابن في الثالثة عشرة . لسبب لا يزال مجهولاً ، ويرجح أنه صدمة مالية مفاجئة .



« مـــارك أنطـــونيـــو في يـــوليـــوس قيصر »

ويقول المصدر المعارض لأصالة شكسبير في شيء من الحماسة : « إن المانع الأكبر من ذهاب (شاكسبر) إلى المدرسة نادراً ما ذكره (الستراتفورديون) وهو أن المقدرة على القراءة والكتابة كانت شرطاً للقبول في مدرسة ستراتفورد » (٤) . ولعدم ظهور تسجيل عن وجود مدرسة أولية يتعلم فيها الصغار حروفهم الأولى التي تؤهلهم لدخول تلك المدرسة الثانوية طفق الشكسبيريون يتكهنون ويقترحون معلمين خصوصيين من الأفراد الذين حفظت السجلات

أسماءهم باعتبار أن ابن جون شكسبير ربما كان قد تعلم عليهم . ومهما يكن من سداد التخمينات أو خطلها فهي لا ضرورة لها لأن الأمر لا يخص الصبي وليم شكسبير وحده بل هو يشمل جميع أطفال البلدة . فما دامت هناك مدرسة ثانوية تشترط معرفة القراءة والكتابة للقبول فلابد أنه كان ثمة تدبير ما للتعليم الأولي وإلا لما كانت هناك مدرسة ثانوية . وإذا كان أولياء أطفال (ستراتفورد) قادرين على ذلك التدبير فمن المعقول أن يقدر عليه رئيسهم . السيد المحافظ .

على أن تلك المدرسة لم تعلم شكسبير شيئاً عدا اللاتينية أما المواضيع الأخرى فقد تعلمها بنفسه فيما بعد في لندن(٢) بل اننا نعتقد أنه تعلم الكثير من قراءاته الخاصة في كتب القصص والرحلات والأساطير ، قبل الرحيل إلى لندن أيضاً .

« الممثل كــولـن بلاكي في مسرحية تيتوس اندريشيكوس »

والسؤال هنا هل استمر الابن (وليم) في الدرس بعد ذلك أم سحبه أبوه من المدرسة ؟

أما اللاشكسبيريون ــ الذين يعزون المسرحيات إلى أشخاص آخرين غير شكسبير ابن بلدة (ستــراتفورد) Strat Ford ــ فيتمسكون برواية (راو) Nicolas Rowe التي تقول « إن عسر ظروفه وحاجته إلى مساعدته في المنزل أجبرا أباه على سحبه من المدرسة » (٣) لكن أقاويل (راو) لا يوثق بها دائماً لأنه كان أشبه بحاطب الليل : جمع كل ما صادفه من حكايات واشاعات دون تمييز بين خطأ وصواب حتى لقال فيه (أدموند مالون) Edmund Malon بعد طول تحقيق : « إن نيكولاس راو أدلى بإحدى عشرة إفادة من حياة شكسبير . ثمان منها يمكن البرهنة على بطلانها » (٤)

وقال بعض من ينكرون أصالة هوية شكسبير : « حين كان (ويل شاكسبر) Will Shak Sper في الثالثة عشرة كان أبوه يعاني مصاعب مالية كانت ستزداد خطورة . وربما كان قبل ذلك يفكر بامعان فيما إذا كان يسمح بأن يدع من يستطيع الكسب في العائلة متمتعاً بترف الذهاب إلى المدرسة » (٥) .

إننا نحسب أن الأب ــ محافظ البلدة السابق ــ كان أرقى تفكيراً من هذا . فمن المستبعد أن رجلاً مثل (جون شكسبير) المثقف الطموح كالذي يظهر من سيرته يحرم ابنه من الاستمرار في الدرس ، بعد المضي فيه نحو ستة أعوام ، ليكون شيئاً ما في المستقبل .. لا يصده عن ذلك عسر مالي ، ونحن نرى الكثيرين من فقرائنا العوام الأميين يصرون على تعليم أولادهم ولو بحرمان أنفسهم ضرورات المعيشة لتوفير متطلبات فلذات الكبد ، حتى الدراسة العليا .

على أن هذا الأب « لم يكن قط بالرجل المعوز ولا كان عليه أن يتخلى عن ثلاثة بيوت كان يملكها في شارع (هنلي) Henley » (٢)

سعة معارفه

كثيرون من الباحثين أنكروا على شكسبير هذا (الستراتفوردي) أن يكون هو مؤلف كل تلك الذخيرة العالمية من المسرحيات الفذة ، واقترحوا لها أشخاصاً آخرين من معاصريه من كبار العلماء أو خريجي الجامعات . والذي جنى عليه هذه الجناية سعة معارفه المتنوعة في مسرحياته عن شؤون البلاط وقصور النبلاء وما يتصل بحياتهم وأطوارهم من أمور الصيد والفروسية والألعاب والمراسم ، بالاضافة إلى شؤون الجندية والقتال والملاحة ، وبالاضافة إلى الجغرافيا والتاريخ والأساطير والقانون . مما لا يمكن أن يكون قد تعلمه في تلك البرهة المدرسية الوجيزة . وقد استقر اختيار معظم (الشكسبيريين) أخيراً على ايرل اكسفورد (ادوارد دي فير) (٥) لأنه جامعي ، وجندي ، وحقوقي ، وشاعر ، ومؤلف مسرحي ، وعلى معرفة حسنة بلغات أجنبية مختلفة ومنها الاغريقية واللاتينية ، وبلاطي ، بل الشخص الأول في البلاط وفي الدولة بعد الملكة اليزابيث .

المعرفة في مسرح شكسبير

ولو كانوا قد اقترحوا علينا ــ أنت وأنا ــ أن نرشح أحد الرجلين ــ ابن ستراتفورد أو ايرل اكسفورد ــ ليؤلف لنا هاته الروائع المسرحية لما كنا ترددنا كلانا في اختيار الثاني. لكن ما العمل وشكسبير لم يخضع : أو لم تخضع عبقريته لهذه الاعتبارات الصريحة التي ترجح كفة اكسفورد عليه ؟

ثمة براهين ووثائق تؤكد أن مؤلف المسرحيات إنما هو شكسبير ابن ستراتفورد ولا شكسبير سواه. وأخرى تؤكد أنه لا يمكن أن يكون هو اكسفورد ، ستأتي أنباؤها.

قبل كل شيء يجب أن نتذكر أن أنبغ الشعراء والأدباء في الدنيا ليسوا هم الذين درسوا الأدب والشعر في الجامعات.

كذلك يجب أن نلاحظ أن روائع شكسبير ليس فيها ما ينبئ بتخصص المؤلف وتعمقه في أية فلسفة أو علم جامعي ، وإنما هي معارف عامة يمكن أن يلتقطها أي مثقف طلعة ذكي الفؤاد من قراءاته الغزيرة ومسموعاته ومخالطاته التي تنبئ القرائن أنها كانت كثيرة. كما أنه ما من جامعة تعلم طلابها كل المعارف التي جاء بها شكسبير ، ولا سيما دقائق الشؤون الاجتماعية والمعاشية لمختلف الطبقات في المدينة والقرية ، مع معرفة دقيقة في الزراعة وأنواع النباتات والحشرات والطيور والزهور بريها وبساتينها... مما عرضه عرض خبير في مسرحياته.. بالاضافة إلى ما تقدم ذكره من شؤون الصيد والملاحة والأساطير.. كأنه يعرف كل شيء. إن معلوماته على ضخامتها جهد شخصي قطعاً. حتى لو كان المؤلف هو اكسفورد حقاً لكانت هذه المعرفة الفسيحة الأبعاد المتعددة الجوانب المتنوعة المذاهب مستغربة منه ولكان علينا أن نحاسبه خاصة على معرفته بمختلف مناحي حياة الطبقة الدنيا ونسائله : أنى لك هذا ؟

أما قولة جونسن المشهورة إن شكسبير كان يعرف القليل من اللاتينية والأقل من الاغريقية فقد تعني أنه لم يكن يحسن الكتابة بهما ، لكنه لا يعني أنه لم يكن يحسن قراءتهما. كثيرون من العرب يعجزون عن كتابة بضعة سطور صحيحةبلغتهم العربية نفسها لكنهم يملكون ثقافة واسعة في قراءة الكتب والمجلات بكل سهولة.

الذي نراه أن الشيء الذي تعمق فيه شكسبير وتخصص ولم يباره أحد فيه من العلماء والجامعيين المسرحيين ، هو تعمقه ببصيرته الثقافية وحسه الرهيف ، في (علم الحياة) ،ومنه التغلغل في مختبآت النفس والنبش في أسرار العلاقات البشرية. تدعم ذلك قوة ملاحظته ودقتها ، وصفاء قريحته وتدفقها ، ونشاط ذاكرته واستجابتها عند الطلب واستحضارها الفوري للملابسات والمتشابهات والمتناقضات من الأحداث والأفكار والأشياء. والالفاظ... وتتوج ذلك كله موهبة فريدة في التعبير.

إنها معارف انسانية مما لم تعلمه ولم تتعلمه أية جامعة إليزابثية أو غيرها ، ولا وجود له في مدرسة غير (مدرسة الحياة) يغترف المرء من منهلها على قدر سعة مكياله.

وقد ساعد على كل شيء أنه خلق منذ البداية مسرا للمسرح تمثيلاً وتأليفاً. قال فيه (وارد) Ward كاهن البلدة : « سمعت أن مستر شكسبير كان قريحة فطرية دون أي فن (تعلم) على الاطلاق : وكان يختلف إلى المسرحيات كل أيام حداثته » (٢). وعندما يشغف الانسان بشيء أو هواية أو يتعشق فناً ، لا يمكننا أن نتصور الجهود التي في وسعه أن يبذلها والمحاولات التي قد يندفع فيها والطاقات التي قد تفجره ويفجرها في سبيل الوصول إلى مبتغاه والتمكن من تعلمه واتقانه. وقد عشق شكسبير المسرح صبياً ، ولابد أن ذلك قد قاده إلى قراءة كل ما وقع عليه من حكايات وأساطير وكتب رحلات.. مما حولته طبيعته وموهبته إلى شعر ومسرحيات ــ كالنحلة ترشف طلعاً وتمج شهداً.

● كيف استطاع شكسبير أن يدرك خبايا البلاط وقصور النبلاء ، وهو رجل من أوساط الناس وبعيد كل البعد عن المجتمع الأرستقراطي ؟!

فهذا الولع قاده فيما يظهر إلى المسرح حين نزح من بلدته إلى لندن فالتمس العمل ممثلاً أول الأمر لا محالة ، ثم اكتشف موهبته مؤلفاً أيضاً. ومن ذلك قول (ليونارد ديقز) L. Digges فيه : « إن الشعراء يولدون ، ولا يصنعون » (٢). ومثل ذلك قول أحد الشخوص في مسرحية (العودة من بارناسوس) (٦) من باب التهكم « إن صاحبنا شكسبير أقدر على انتاج المسرحية من أي رجل تعلم في جامعة » (٢) فهذه المسرحية التي ألفها طلاب جامعيون من كمبرج تؤكد أن شكسبير لم يكن جامعيا مثل اكسفورد. ويوضح تهكمها عن نقمة الجامعيين على شكسبير لمنافسته إياهم وتفوقه عليهم.

كل الظواهر تدل على شراهته القرائية التي كانت ولابد جد واسعة كما يتجلى في معلوماته هذه المتنوعة المتباينة التي تكاد تشمل كل ما في حياة الناس ووجداناتهم وخفايا عالم الحيوان والنبات والصناعة والزراعة ، وكل شيء. ونحسب أن نقص دراسته النظامية كان له الفضل في تأجيج شهوة القراءة عنده واستفزازه إلى الحفظ وإعادة القراءة كما يفعل الطلاب. نستنبط ذلك من كثرة الأسماء الأجنبية الغريبة والأحداث والعقائد والإيماءات الأسطورية التي لا يمكن استظهارها واستحضار الذاكرة لها بتلك السهولة والعفوية والغزارة ، من قراءة واحدة ولا من خمس قراءات عابرات ، ولا سيما ما يطالعنا في مثل مسرحية (تيتوس اندرونيكوس) المحشوة بأسماء أشخاص وأحداث أسطورية مزدحمة مع أنها من أوائل مسرحياته ، مما يدل على أنه تعلمها مبكراً في شبابه. فإنما هو الشوق المشتعل إلى التهام المعرفة ، والاستظهار الدؤوب شأن التلميذ الجاد يتأهب لامتحان عسير. وما أكثر ما كان تعليم الذات أنجح وأجدى من تعليم الجامعات. فكم يا ترى من فطاحل علماء الانكليز وأساتذتهم الجامعيين كان يعرف كل تلك الأساطير الاغريقية والرومانية التي ذكرها أو لمح إليها شكسبير ؟ ولابد أن تعييره من قبل خصومه بالافتقار إلى التعلم كان يزيده إقبالاً على القراءة والدرس ليبرهن لهم في مسرحياته ، وقد فعل ، على أنه لا يقل عنهم ، بل يفوقهم معرفة بالتاريخ والأساطير وغير ذلكم من متطلبات التأليف المسرحي. وبعد هذا لا يجوز أن تدهشنا معرفته الدينية التي تعرضها لنا استعاراته في كثير من المناسبات من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

على هذا إخال أن من حسن حظ شكسبير أنه لم يتخرج في جامعة ، إذن لفقد الكثير من مزاياه

(الشكسبيرية) ولاسيما نزعة التمرد والخروج على القواعد الفنية المتوارثة التي رسختها الدراسات التقليدية في نفوس غيره من خريجيها وعقولهم فلم يعودوا يستطيعون منها فكاكاً . وحري بالنقاد والشكسبيريين أن يقدروا لهذه الظاهرة وزنها في المقارنة بين شكسبير ابن ستراتفورد و(الشكسبيريين) الآخرين المزعومين .

معارفه الحقوقية

من المعارف التي ينكرها اللاشكسبيريون على ابن ستراتفورد ثقافته الحقوقية ومعرفته بالمصطلحات القانونية التي لا يمكن أن تتأتى من المطالعات العامة . من ذلك مثلاً قوله في المحامي في مسرحية هاملت : « أين سفسطته الآن وتورياته ؟ وقضاياه وعقوده ؟ والاعيبه ؟ ... رهونه والتزاماته واستقطاعاته وكفلاؤه وتحويلاته ؟ » (٧) .

لهذا كان (فرانسز بيكن) F. Bacon الحقوقي العلامة من أوائل الأشخاص الذين عزيت إليهم المسرحيات . لكن المتأخرين يقولون إن في بعض المسرحيات من الأخطاء الحقوقية المضحكة ، مالا يمكن أن يتورط في مثله (بيكن) .

فمن جهة لا يمكن أن تصدر معرفة هذه الحقوقية عن جاهل بالقانون ، ومن جهة لا يمكن لأغلاطه تلك « المضحكة » أن تصدر عن عالم بالقانون . ويفترض بعضهم أن شكسبير كان قد عمل في شبابه كاتباً متدرباً عند محامي البلدة أو عند سواه حيث تلقى « معرفته الباهرة بالقانون والمصطلحات والاجراءات القانونية » (٣) الآنف ذكر نموذج منها . ومع عدم تأييدنا لصحة « معرفته الباهرة » نرى أن تدريبه عند أحد المحامين يعطي التفسير المعقول للمشكل فيكون شكسبير قد مارس العمل الحقوقي وقتاً ما ، وتعلم المصطلحات وبعض المعاملات دون أن يتفقه ويتعمق . وما دام اللاشكسبيريون لا يفترضون إلا أسوأ الفروض ليدحضوا حتى الحقائق المسجلة فمن حق الشكسبيريين الموضوعيين أن يأخذوا بالمعقول المنطقي من الافتراضات حلاً لمشاكل غياب التسجيل .

معلوماته البلاطية

ومما يرجح كفة ايرل اكسفورد على شكسبير ـ لدى اللاشكسبيريين ـ المعلومات البلاطية المعروضة في أرجاء المسرحيات التاريخية . لكن فئة من الباحثين يقولون إننا لا نعلم مدى صحة المعلومات الشكسبيرية عن البلاط ورسومه وتقاليده . وهي فيما يلوح كلمة حق لا يحسن



سير لورانس أوليفيه ، شايلوك في مسرحية ، تاجر البندقية ،

إغفالها . فلو ظهر الآن كتاب قديم من عهد شكسبير أو حواليه ، يصف حياة البلاط وسير الأمور والمقابلات الملكية والسفارات فيه وصفاً دقيقاً صحيحاً لظهرت أخطاء شكسبير البلاطية مثل ظهور أخطائه الحقوقية والجغرافية ، التي ستكون خير دليل على أن شكسبير هو شكسبير وأن مسرحياته مسرحياته .

لقد ظهر في مسرحيته (يوليوس قيصر) مثلاً بعض مظاهر الحياة الرومانية مثل الساعة الدقاقة ، وعصب الرأس بمنديل في حالة المرض وحمل الحرفيين شارات حرفهم عند السير في الشوارع . فلو لم يعرف الانكليز عن يقين أن هذه الشؤون وأمثالها مستعارة من الحياة اللندنية في العهد الاليزابثي ولا وجود لها عند الرومان لقال اللاشكسبيريون : « ما أعلمه بدقائق الحياة الرومانية » ولكانت حجة لديهم على أن شكسبير لابد أن يكون العلامة ايرل اكسفورد المتضلع من تاريخ الرومان .

وما أدرانا كيف كان شكسبير يستكمل ما ينقصه من معرفة بحياة البلاطات وأطوار النبلاء ؟

وما أكثر من كتبوا في أوربا وغيرها عن البلاطات وحيوات القادة والملوك والنبلاء وكبار الساسة المتنفذين وهم لم يدخلوا عمرهم بلاطاً ولا قابلوا ملكاً ولا قائداً ولا سفيراً . ولابد أن الكثير مما كتبه شكسبير عن ذلك تضمن أخطاء ونواقص شأنه في القانون والجغرافيا وسواهما .

يقول بعض المنكرين عن شكسبيرهم (ايرل اكسفورد) : « من الواضح أن عالم الملوكية والنبالة هو العالم الذي كان يشعر فيه أنه في بيته .... ولا توجد ولا شخصية واحدة مجسدة تجسيداً كاملاً في طبقة المجتمع التي ينتمي إليها (شكسبير) ـ أي ابن ستراتفورد ـ ... لقد كتب شكسبير عن أفراد بواقعية تجعلهم أحياء إلى اليوم كما كانوا في أي وقت . إنه رسم صوراً من الحياة التي عرف » (٤) .

فهل كان المتشردون والأوباش الذين صورتهم المسرحيات « بواقعية تجعلهم أحياء إلى اليوم » كانوا من الحياة التي عرفها شكسبير البلاطي ، ايرل اكسفورد ؟

لقد كتب شكسبير باتقان وواقعية عن السوقة ، وعن اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم من أبناء الحياة الدنيا التي لم يعرفها اكسفورد ولا شكسبير الذي لم يندمج فيها ولعله رأى نماذج منها بقدر ما رأى وسمع سواه من الناس . وأكبر الظن عندنا أن بعض زملائه المسرحيين رأى وسمع أكثر مما سمع هو ورأى من أنماط حياة العالم السفلي اللندني مثل (روبرت كرين) . لكن شكسبير كان في تصويرها يقيس الكثير الذي يجهل على القليل الذي يعلم مرخياً لخياله العنان ومطلقاً لقلمه حرية البيان . مثل هذا يقال عما سمع عن حياة (البلاط) وشاهد من أنماطها ـ عن طريق اندماجه مع النبلاء ـ والباقي تكفل به ذلك الخيال الحي الجواب .

أما (التجسيد الكامل) للشخصيات فلم يقصره شكسبير على العلية لأنهم علية وإنما كان يعني بتصوير الشخصيات الرئيسية في المسرحية من أية الطبقات كانوا . وقد كان التقليد المتبع في القصص القديم أن يكون أبطال الحكايات من الأكابر . حتى المؤرخون كانوا ـ وما زال الكثيرون منهم ـ يؤرخون الأقطار والشعوب بأخبار القادة والحكام . فاذا اتفق أن كان في القصة شخيص (٨) من عامة الناس أو غمارهم نال من قلم شكسبير نصيبه الذي يستحقه من التجسيد ، مثل (شيلوخ) Shylock الوغد في (تاجر البندقية) ، و(ياكو) Jago الوغد الآخر في (عطيل) . وعطيل نفسه شخيص المسرحية لم يكن من الملوك ولا الأمراء ولا النبلاء ذوي النسب

المعرفة في مسرح شكسبير

واللقب ، بل إنساناً نشأ مغموراً في الفقر والمصائب ، وعصامياً ، سمت به نفسه وكفايته إلى الأوج . ولم يكن تجسيد الملك جون مثلا أتم من تجسيده .

في موطن آخر يقول المعترضان . « في جميع مسرحيات شكسبير لا توجد ولا شخصية واحدة تامة التجسيد بأبعادها الثلاثة ملتقطة من طبقة المجتمع الذي ينتمي إليه شاكسبر » (٤) الستراتفوردي .

يخيل لنا أن ذينك المخلوقين الوغدين (شيلوخ وياكو) وهذا الانسان الشريف (عطيل) قد صورهم شكسبير — ولو أنهم ليسوا من النبلاء — بأبعادهم الثلاثة ، بل الأربعة . والرابع التألق .

ثم ما أدرانا أن أشخاص بيئة شكسبير — بل شخصية شكسبير نفسه أيضاً — لم يتسربوا بعاداتهم وأهوائهم وحركاتهم ونزواتهم في لمحات متفرقات ضمن الشخصيات الرئيسية التي جسدها تجسيداً كاملاً . فساعد ذلك على اتقان تصويرها وإكسابها لمحة الحياة ؟

وكيف يمكن أن تكون المساوئ والمفاسد التي أوردهـــا في شخصيات النبلاء وقفا عليهم لا وجود واقعي لها إلا في النبـــلاء ؟ أي أبناء بيئة اكسفورد ؟ إن كانوا يحسبون مؤلف المسرحيات نبيلا لأنه يعرف شيئاً من أحوال البلاط فهل كان حمالاً ليعرف شؤون الرعاع ؟

إنه إنما عرف كل ما عرف بالاضافة إلى قراءاته الكثيرة ، بقوة ملاحظته وتفوق ملكته .

أما قول المنكرين « إن شكسبير كتب عن أفراد بواقعية تجعلهم أحياء إلى اليوم كما كانوا في أي وقت ، وإنه رسم صوراً من الحياة التي عرف فيوهم — إذا كان شكسبير هو أكسفورد — أن مسرحياته لا تحوي بين دفاتها الكثيرة بشراً أسوياء من غير عالم الملوكية والنبالة ، وقد نسيا كل من ذكرنا آنفاً ومن لم نذكر من أوغاد بني آدم الذين أجادت براعة شكسبير تصويرهم مثلما أجادت تصوير الملوك والنبلاء ، وهو لا من هؤلاء ولا من هؤلاء . وإن كان هناك من يقول إنه يمقت العامة من الناس لأنه ندد بهم في كثير من المواقف فإذا نحن أردنا أن نستنتج ونستنطق الأحداث إتضح لنا بجلاء أنه كان أشد مقتاً لأولئك العلية منه لصعاليك الطبقة الدنيا في المجتمع الإنجليزي . والجرائم والنذالات التي رواها عنهم تربو على جرائم العامة والدهماء . قرأت لأحد شراح (يوليوس قيصر) أن قتل الغوغاء للشاعر (سينا) Cinna كان أفظع قتلة أو أفجعها في مسرحيات شكسبير كلها . وقد فاته أن ثمة قتلة أبشع وأنذل تصبح تلك القتلة الشنيعة هينة إلى جانبها هي الفتك بالصبي الأمير (ادوارد) ابن الملك هنري السادس — الأعزل — حين يطعنه ثلاثة رجال أشداء بسيوفهم ، بالتعاقب في تلذذ وحشي وشماتة ، أمام عيني أمه .

وما كان هؤلاء من العامة ولا السوقة . إنهم الملك ادوارد وأخواه (هنرى الســـادس — ج ٣ : ٥/٥ : ٣٨ — ٤٠) . فهل هذي هي البيئة التي يجد اكسفورد نفسه فيها في بيته ؟

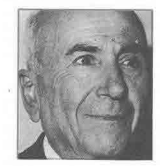
وكأني بمسرحيات شكسبير التاريخية مجموعة من التنديد بوغدية حكام أوربا ومن يليهم من السادة والأشراف في بلاده وغيرها من الأقطار الأوربية في عهود جاهليتها التي لم يضبطها دين ولا قانون ولا خلق . مجموعة قد تصلح موسوعة بشرية للقسوة والأنانية والوحشية .. إلى آخر الرذائل .

وأرى من الضروري تمحيص هذه المساوئ بامعان لتمييز ما جاء منها في مصادر شكسبير التاريخية أو القصصية وما أضافه شكسبير من عند نفسه ، فبذلك تتبين حقيقة شعوره نحو الأشخاص .

مخالطة العلية

لاشك أن شكسبير تعلم الكثير من شؤون البلاط وحياة القصور من مخالطة النبـــلاء -ومن تمثيله مع فرقته في قصورهم وفي البلاط . وقد ذكر (هنري جتل) Henry Chettle مثلاً أنه سمع عن أمانته واستقامة سلوكه من « كثيرين من ذوي المقام الرفيع ، مما يدل على تعامل وخلطة وثيقة وأواصر عميقة الجذور معهم . وأن وصف شكسبير لنوع من صلة الممثلين بالنبلاء (في هاملت) لغني عن التعقيب . وكان النبيل (ايرل ساوثاميتن) Earl Southampton مثلاً « يذهب إلى المسرح كل يوم . أولاً ليرى المسرحية ، ثم ليسمع مسرحية ، ثم ليدرس فن التمثيل ... وكان من عادته أن يسدي نصيحة حسنة إلى جميع الممثلين عن عملهم ، كما هي على الأغلب عادة الهواة » (٤) . وحري بكل البارزين من الممثلين أن يكون لهم صداقات مع أمثال هذا الايرل من النبلاء ورجالات البلاط ، وخاصة من كان له من المزايا والخصال والجاذبية الشخصية (وللبحث فيها مكان آخر) ما كان لشكسبير .

ولابد أنه بقوة ملاحظته وموهبته الخارقة قد تعلم الكثير من شؤون أبناء تلك الطبقة وأطوار معيشتها من مرافقتهم في حفلات رياضة وصيد ، ومشاهدتهم في منافسات ومنازعات . ومخالطتهم في ظروف وأحوال لا تخطر لنا على بال . وما أكثر ما تعلمه بالسماع أيضاً دون مشاهدة . وما أصدق قول العرب : رب سامع أوعى من مشاهد .



الياس فرحات ..
ترك المدرسة وهو في العاشرة ومع ذلك فقد أصبح من كبار الشعراء العرب وله عشرة دواوين فيها الكثير من جيد الشعر .



العقـــاد ..
نال الابتدائية فقط ولكنه عن طريق تعليمه لنفسه كان من كبار المثقفين في تاريخ العرب المعاصر والقديم على السواء .

تفسير آخر يطرحه الدكتور (رايت) Dr. Right هو أنه قرأها في كتب التاريخ . «وما دام السرد في مثل أعمال (هولنشد) Holenshed وحتى المحادثات قد كتبت بنثر جيد فكل ما كان على شكسبير أن يفعله هو أن يحول النثر إلى شعر مرسل» (٤) .

وبالرغم مما في هذا الرأي من تعميم فضفاض فإنه يصدق ولاشك على بعض الحالات ، فضلاً عن أن تفاصيل الكثير من الأحداث المعروضة في أعمال (هولنشد) وغيره من هذا القبيل تثري معلومات شكسبير البلاطية وتساعده على تخيل أحوال الملوك والنبلاء بعامة مما يجيد تعلمه والافادة منه في مسرحيات لاحقة ، عقل واع متطلع كعقل شكسبير وقريحة ملبية كقريحته .

وهكذا تكونت (ثقافته) البلاطية سماعاً ومشاهدة وقراءة . وأكمل الباقي تخيلا .

وعلى أية حال كانت أخطاؤه في بعض مناحي معارفه شهادة له بأنه هو نفسه .

ملاحظـــاته

لا تلفت نظرنا وفرة معلوماته فقط بل كثرة ملاحظاته البارعة من واقع الحياة كذلك . ومن يحسن ملاحظة ما يرى يحسن تفهم ما يقرأ .

ملاحظاته في شؤون الناس يعرفها الناس وانما تعجبنا وأحيانا تسحرنا لأننا حين نراها نحس بها احساسا غامضاً ينجلي حين ينبهنا شكسبير اليها . وقد رصد الباحثون عدداً منها قالت (فولومينا) تستعطف ابنها (كوريولانوس) ليكف عن محاربة مدينته روما : «هذا الطفل الذي لا يعرف ماذا يريد بل يركع ويرفع يديه تقليداً لنا» (مأساة كوريولانوس : ٥/٣) .. ومنها قول آخر كناية عن طيبته وسذاجته في مسرحية (منتيوس) : «أنا أحابي أول المشتكيين» (٥/٤) .. وقول ليدي مكبث وهي تحرض زوجها على اغتيال الملك (دنكان) : «لولا أنه يشبه أبي وهو نائم لكنت أنجزت المهمة بنفسي» (مكبث ٢/٢ : ١٧ و١٨) .. ذلك أنه ـ شكسبير ـ لاحظ أن لبعض الشيوخ ملامح مشتركة تشبه ما لأبيه .

ملاحظاته لم يعجبنا أننا لم نعرفها قبل أن يذكرها لنا ، بل أعجبنا أننا كنا نعرفها ونشاطره إياها ولم يخطر لنا أن نقولها . وحين نسمعها منه نحس كأننا نحن قائلوها ... وما إلى ذلك من نظرات انسانية بسيطة وعميقة تعمل عملها في القلوب لدى العامة والخاصة .

وتوجد ملاحظات كثيرة مبثوثة في مسرحياته تضرب صفحاً عنها لأن ايرادها يتطلب بيان ظروفها وشرح مناسباتها مما يطول بنا حديثه .

● حُجــج الذيــن يـنــكرون وجـــود شــكسبير وعبقريتــــه والــــرّد عــــلى هـــذه الحُـجــج

كذلك شأن الكثير من معارفه .. فانما هي من ملاحظاته الفائقة . انه قرأ ما قرأ سواه ، لكن سواه نسي تلك المعلومات او اختزنها في ذاكرته وحسب لا في وعيه الكامن أيضا . فلهذا لم تنطبع في وجدانه ولا هو يستطيع استحضارها ، بل الأصح أنها لا تستطيع الحضور التلقائي في مناسباتها . فكيف إذا كان شكسبير قد قرأ أكثر مما قرأ سواه . وبلهفة ونهم ؟ ولابد أن هذا قد حصل . كثرة الأسماء الأسطورية الغريبة ـ اغريقية ورومانية ـ تدل على قراءات هائلة ومتكررة وذاكرة جبارة .

كم من طبيب أو محام أو مهندس .. أبدع المسرحية أو القصيدة أو القصة . في أية جامعات تعلموا ؟

لقد نسب «اللاشكسبيريون» تلك الروائع الشكسبيرية مرة إلى (مارلو) ، ومرة إلى (بيكن) ، ومرة إلى (ايرل اكسفورد) ، ومرات إلى نحو خمسين آخرين من الناس . وكلهم لا تصدق عليهم جميع (المواصفات) المطلوبة ، مما يدل على مجرد الرغبة في انكار شكسبير على نفسه وتفضيل أي أحد عليه .. كأن شكسبير هو الوحيد الذي لا يحق له أن يكون شكسبير .

يقول المنكران (دور وثي وجارلتن) : «إنه لكثير أن يسألونا أن نصدق أن كائناً بشرياً له على أكبر تقدير ست سنوات في الدراسة يستطيع أن يحرز معرفة تكاد تكون عالمية ، في زمانها ، كما كانت معرفة شكسبير» (٥)

كلام سمين الظاهر وهو في الحقيقة هزيل : إن عباس محمود العقاد لم يتعلم أكثر من (ست سنوات) أيضا حين أكمل دراسته الابتدائية . وكان ذلك آخر عهده بالدراسة (ولو أن هذا لا يعني أننا نقارنه بشكسبير) . ومن المعروف أنه كان أكثر الناس قراءة . وثمة (كائن بشري) آخر معروف ، هو الشاعر المهجري إلياس فرحات ترك مدرسة قريته (كفر شيما) بلبنان وهو في العاشرة من عمره (٦) ، أي كان له من الدراسة نحو نصف ما كان للعقاد منها ، وذلك كل شيء . وقد أصبح من كبار شعراء المهجر وخلف عشرة دواوين فيها الكثير من جيد الشعر .

ولهما من الكائنات البشرية في العرب وغيرهم أمثال . وإن كان خط كتابة شكسبير رديئاً كما يدعي المنكران استناداً إلى تواقيع لم يثبت أنها بخط يده ـ فتأويل ذلك فيما نظن أن دراسته القليلة لم تتح له المدة الكافية لتحسين كتابته التي لم يمارسها إلا قليلاً ، على حين أنه مارس القراءة في كل ضرب من ضروب المعرفة وقع في طريقه ، بغير حساب .. فتحسنت المعرفة وساء الخط .. على فرض أنه كان سيئاً حقا .

حقائق كثير عديدها إيجابية يجهد اللاشكسبيريون أنفسهم في محاولة نقضها من أجل حل مشكلة واحدة هي سعة معارف شكسبير . لا شيء غيرها يثير شكا جديراً بكبير اهتمام . فبدلاً من أن يفتشوا عن حل معقول لهذه المعضلة يحاولون خلق ما لا يحصى من المشاكل غير المعقولة لدحض (مصداقية) هويته ، وهي تأبى أن تندحض . يبحثون عن أي واحد ليخلقوا منه شكسبيراً بدل شكسبير ، ولا عيب فيه يبرر تجريده من مسرحياته ومن نفسه سوى أنه عبقري (أكثر من اللازم) .

عبد الحق فاضل

الهوامش

(١) (كرامر سكول) grammar school : مدرسة انجليزية شبه ثانوية تهتم بتدريس الاغريقية واللاتينية .
(٢) Marchette Chute, (Shakespeare of London)
(٣) F.E. Halliday, (The Life of Shakespeare)
(٤) Dorothy Ogburn & Charlton Ogburn jr., (Shake-Speare) (The Man Behind the Name)
(٥) Edward de vere, the 17th earl of Oxford.
(٦) The Return from Parnassus
(٧) هاملت . ترجمة جبرا ابراهيم جبرا . ص ١٤٤
(٨) الشخيص . كشريف : الشخص المهم . نستعملها بمعنى الشخصية الرئيسية في المسرحية أو القصة .
(٩) جعفر الخليلي . (هكذا عرفتهم) ج ٦/ ص ١٤٠ .
(١٠) نفسه ص ١٥٧ .

مناجاة أوراس

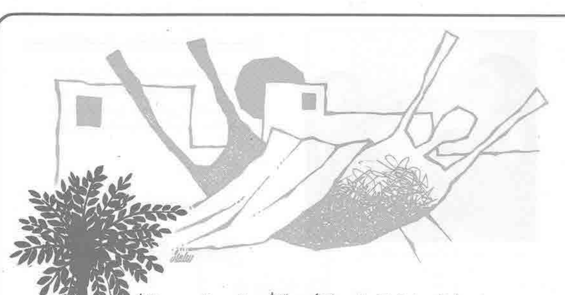
"من وحي زيارة إلى الجزائر"

شعر: محمد التهامي

إلىَ متىَ تعْظُمُ البَلْوى وتُحتمل ... «أوراس» لم يَبْقَ إلاَ أنْتَ والأَمَلُ
دَعْني إلىَ الهامة الشَّمَاءِ يغْمُرهُا ... من حُرْقَتِي وهَوايَ الدَّمْعُ والقُبَلُ
فالنَّارُ في قَلْبك المطْويّ يُوقظُها ... طوفانُ دَمْعي عَلَيْها وَهْو يَنْهَمِلُ
فَلَيْس دَمْعيَ ماءً إنَّهُ شَرَرٌ ... تُرمي به النَّار في جنبيَّ تَشْتَعِلُ
لا تعْجَبَنَّ إذا سالت به مُقَلٌ ... فكم تلظَّتْ على نيرانِهِ مُقَلُ
فالنَّار من أدْمعي والنَّار في جَبَلي ... تَعانَقَا فَتلظَّى السَّهْل والجَبَلُ
يَالَيت طُوفانها يجْري فَيُغْرِقُنَا ... لا تَحْتمي امرأةٌ منه ولا رجُل

* * *

عَفْوا عزيزَ بلادي إنْ قسا نَغَمي ... فإنَّ شيطان شعري كاد يَخْتَبِلُ
مِنْ هَولِ ماذقتهُ من أخوة عربٍ ... من هَوْلِ ما أحجَموا عنْه وما فَعَلوا
قَد أقدموا وأكفُّ القهر تَدْفَعُهمْ ... إلى الهَوانِ وظَنُّوا أنّهم وصلوا
وأحْجَموا في انتفاضاتٍ مُبَعْثَرةٍ ... كَمَا تَعثَّر في أقْدامِهِ الثَّمِلُ
لَمْ يأبهوا لسياط الذُّلِّ تصفعهم ... ونازَعوا في قُيودِ الذُّل واقْتَتلوا
وعَرْبَدوا وبِساط الأرْض تَحْتَهم ... يُطْوى حثيثاً وتمضي منهمُ السُّبل
عبُّوا الضَّياعَ وذاقوا مُرَّ غُربْتِهِ ... واستمرأوا السُّمَّ ظَنُّوا أنه عَسَلُ
تَبَرَّأتْ أرْضُهم مِنْهُم وخاصَمهَمْ ... حُرُّ الترابِ الَّذى في وجهه وَحِلُوا
لَنْ يْغسلَ البَحْرُ وَحْلاً عَنْ شَقيهِمُ ... وَلَوْ قَضى عُمْره في البحر يَغْتَسِلُ
فالأرضُ من تحتهم عَافْت بُنُوَّتَهمْ ... وان هَمَتْ مُقلتاهَا بَعْدما انتقَلُوا
يَاويلها أمنا الثكلى قد افْتَقَدَتْ ... كلَّ البنينِ بِمَنْ حَلُّوا ومَن رَحَلُوا
وأُرْغمتْ وَهْيَ عَزْلاءٌ وُموثَقَةٌ ... عَلى لَقِيط يُنادِيها فَتَمْتَثِلُ
لَولا قيود تشُدُّ الأرضَ محكَمَةٌ ... لا يُسْتَطاع عَلى إحْكامِها عَمَلُ
لَزُلزلَتْ أرْضُنا في كلِّ نَاحيةٍ ... وأسكنت جَوْفَها كلَّ الألى نَزَلوا
لَم يبق إلا بَنوها اينمَا وجدُوا ... مَهْمَا تَناءوا فَفي إقْدامِهم أمَلُ



إنْ يَملكِ الغولُ كلَّ الأرض قاطبةً   فزُمْرةُ الحق لاتعييهم الحيلُ
إنْ يَغْرِسوا الموتَ شَتَّتْ حولَه قِمَمٌ   تَرمْي الحيَاة حَوالَيْهَا فتتَّصِلُ
ويلبث الناس طَعْمُ الموت في فمهم   لأنهم من حياضِ الموت قد نَسلوا
أبناء موت إذا ما الهول لاحقهم   تغْدُو المنى عِنْدَهم أنْ يسبِق الأجَلُ
وَلَوْ فَنُوا كلُّهُم تَبْقى جُذُورُهُمُ   على الكرامة تَنمو ثم تكْتمِلُ
وَيبرأ الجُرح مهما اشْتَدَّ نازِفُهُ   إنَّ الجراح على الأيام تَنْدمِلُ
إلاّ جراحٌ يسيل السُّمُّ في دَمِها   من الهوانِ فليست مثلها عِلَلُ
مِنْها اللَّظى للذى يَرْضى مذلَّتَهُ   وللمقاوم منها في الدُّجى شُعَلُ
وتَعْرِفُ النَصر خطَّ الدمُ وِجْهَته   خُرُّ الدماء إلى أهْدافِها تَصِلُ

* * *

«أوراس» إنْك في الدُّنيا مُعَلِّمُنا   فَمِنْ رحابك دَوْماً تلْمَعُ المُثُلُ
كَانت أعاديكَ أطْواداً مُسلَّحَةً   تطغَى وَليس لِمَخلوقٍ بها قِبَلُ
وأنت زُمرةُ أفراد مُبعْثَرةٍ   لكنَّها بسيوفِ الحَقِ تَشْتَمِلُ
لَم ترهبِ الموتَ بَلْ مارسْته هدفاً   تَسْعَى إليه وتدعوه وتَبْتهِلُ
أعطيته باقة المليون باسمةً   كأنَّها بلِقَاءِ الموتِ تَحْتَفِلُ
فأصْبَحَ الموتُ في كفيكَ صَاعقةً   ذَابت جُنودُهُم فيها بِمَا حَملوا
شلَّتْ مدافعُهم وارتَدَّ صَاعِقُها   لَمَّا طَواها ذِراعٌ مَدَّهُ بَطَلُ
إن الأظَافر والأسنان إنْ صَدقَتْ   تَغْدو السلاحَ الذى تَعْنو له القُلَلُ
وإن مَسّها الوهْنُ حُبُّ الموتِ يدفعها   يَشْتَدُّ فيها ويجْلُوها فتَنْصقِلُ
ولا تَنْثَني عَنْ مراميها ذخيرتها   ولاتخيبُ ولا يَنْتابها الخَلَلُ
«أوراس» هذى دروس منك بالغة   أبناؤك الصيدُ للدُّنْيا بها رسُل
جئناكَ يَشْرب من مغْناك ظامِئنا   ليلْتَقِي فِيك من عَلَّوا وَمنْ نَهلُوا
في حِضْنك الدوح أغصانٌ مجنَّحَةٌ   ونحن مِمَّنْ عليه الدَّوْح يَشْتَمِلُ
فَلَيسْ بِدْعاً إذا جئناكَ في أمَل   «أوراس» لمَ يُبقَ إلاّ أَنت والأمَلُ

بـدوي الجبـل .. وإخاء أربعـين سـنـة

يواصل عميد الأدب العربى القومى الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الرائعة مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة



الشاعر الكبير بدوى الجبل مع كاتب المقال



رحلة الشاعر في دنيا الاغتراب

بقلم : أكرم زعيتر



بدوي الجبل وسبحة حبيب كحالة

في زيارة خاطفة لبيروت سنة ١٩٦٠ توالت لقاءاتنا . وكنت أحمله على ترك عزلته وبراح بيته ، ومسامرة نخبة من الأصدقاء الأدباء ورفاق الدرب القومي في مكتب صاحب « الحياة » الاستاذ كامل مروة ، نابغة الصحافة .

وبينا نحن نتسامر صك أسماعنا نبأ وفاة جميل مردم بك الزعيم السوري الداهية في القاهرة ، وقال الناعي : « ونقل جثمانه إلى دمشق التي عرفته مناضلاً فذاً ومقارعاً شجاعاً عنيداً ورئيساً لوزارتها الوطنية ووزيراً لخارجيتها ، ولم تودعه القاهرة التي عرفته سفيراً ألمعياً ، ومن بناة الجامعة العربية ومؤسسيها ، الوداع اللائق ، وإن وفاه بعض حقه في صحفها الاستاذ حبيب جاماتي .. » وكان تأثرنا بالغاً .. ونهض البدوي لينتحي زاوية من « الصالة » ..وقد امتقع وجهه ، وترجمت العبرات في مقلتيه . وراح يكتب رثاء في غير تلبث .. (وآليت أن أفيه بعض حقه في أربعينه وقد فعلت) .

وظهرت « الحياة » صبح اليوم التالي وفي صدرها مقال البدوي وعنوانه : (حياة بطولة) تجاوز الغاية في الروعة ، وقد بدأه قائلاً : « رقد مجهداً بعد الكفاح الطويل المرير . في ثرى المدينة الخضراء . التي أحبها فوهبها الريق من شبابه والوسيم من طموحه على قيد خطوات من رفاق جهاده وأمجاده ، وإذا منع الموت فوزي الغزي وعادل العظمة ونجيب الريس واخوانهم من السيوف المغمدة في التراب ، المثلمة من الضراب ، أن يرحبوا بالصديق العائد من معركة الحياة ، فلا



لقاء في فندق شبرد في بحمدون عام ١٩٥٩ من اليمين : أكرم زعيتر ، بدوي الجبل ، كامل مروة ، إميل بستاني خليل تقي الدين ، الياس فرحات ، محمد قرة علي ، الشاعر القروي



مع الأديبة كوليت خوري ووزير الاعلام السوري السابق الأديب د . سامي الجندي ويقف بينهما أحمد نجل البدوي

جميل مردم بك

أقل من أن ترحب القبور بالقبور والذكريات بالذكريات . وإذا عز الوفاء عند جيل من الناس لهؤلاء الأبطال الذين يتساقطون واحداً بعد الآخر في زحمة الردى وغمرة النسيان . بعد أن هدتهم المعركة اللاهية هداً .وألحت عليهم أربعين عاما توسعهم ضرا ويوسعونها كبرا . وتركت سماتها جراحاً فوق جراح على جباههم وصدورهم . تعودوا أن يعطوا المعركة الجبهات والصدور ، حيث تتألق البشاشة ويضطرم الإباء . إذا عز الوفاء عند جيل من الناس أو عند الجحدة من الناس . فلن يعز على النسمة اللينة الساجية تغمر قبورهم بعبير ميسلون وأغنيات بردى وأحلام قاسيون وزغاريد جلاء . ولن يعز الوفاء على الأيك الملتف . يحنو على القبور الظمأى بأفيائه وأندائه على ندة قمر ، على أغرودة بلبل » إلى أن قال : « لقد أغفى جميل مردم اغفاءته الأخيرة في حضن الخميلة الزهراء ، في عنفوان الربيع . في جوار النخبة من إخوانه على أطياف ذكريات كأنها ندام الحور ورفيف أجنحة الملائكة . أطياف السجون في أرواد والحسكة . أحكام الاعدام . المنافي والتشريد .. » وراح البدوي يردد ذكريات بطولات قومية للفقيد :

« ومن هذه الذكريات ما يندى بمرح الطفولة ، ومن هذه الذكريات ما يلفح بجمرة الشباب . ومن هذه الذكريات ما يغمض عينيه على كهولة تحلف أنها والشباب من جوهر واحد ، ومن أريحية واحدة . تتمرد على السقم ، وتتكبر على الداء ، وتحمل أعباء الستين في مرح العشرين ، وتداور المرض كما داورت السياسة سنين طوالاً ، حتى روضته وتألقته فخلعت عليه طلاقتها . ولم يستطع أن يخلع عليها عبوسه .. » .

« نشأ جميل مردم والقضية العربية لدات طفولة وشباب . فأصفاها الكريم من وده ، والمترف من عهده ، وبدت طلائع عبقريته في مؤتمر باريس العربي (١٩١٣) رائعة في زينتها . أصيلة في سجيتها ، وتوسم أصحاب الفراسة من كهول القضية وشيوخها بالشباب الكيس الأنيق الطموح بشائر زعامة . وفواتح رئاسة ، وعنوان فتوح ومقدمات نصر » .

ووصف مردم بك ورباطة جأشه ورحابة صدره وسعة حيلته « واقعي التفكير . ولكنه لا يضن على الواقع بنشوة الخيال وجوانح الإيمان » . وعرض مشاهد قصيرة متتابعة من حياة مخصبة عريضة مشرقة ، منها استطاعته أن يحول الأقلية الوطنية في المجلس النيابي إلى أكثرية ترد المعاهدة الفرنسية « ويعلم المندوب الفرنسي بذلك وهو في المجلس النيابي ، والجلسة معقودة . فيهرع إلى المنبر ليعلن حل المجلس وليفوت على الوطنيين نصرهم ، ولكن ابن مردم تقحم المنبر تقحماً ، ونحى عن ذروته المندوب الفرنسي ، وبادر الجميع بطرح المعاهدة على التصويت فطرحت ورفضت وقد تم كل ذلك في دقائق معدودات ، خلعت عليها رجولة ابن مردم وإخوانه أعمار السنين الطوال » ... « وكان في أسلوب كفاحه يكر ويفر ويتقدم ويتأخر ، ويظهر ويختفي ، ويشتد ويلين ، ولكنه يأخذ على عدوه في كل هذه الحالات كل الثنايا ، فلا يترك له ساعة للهدوء ، ولا فترة للراحة . بل يشيع القلق في صفوف العدو في كل ناحية ، وعند كل زاوية ، وهو رابط الجأش طلق الأسارير ، كلما انتهت واحدة من مكائده في العدو ، مد يده إلى جراب دهائه فأخرج من جديده ما يزري بالقديم » .

سمراء

ولحظت أن صاحبي قد أعجب بسمراء لبنانية قد فتنته رقتها ، وأخذته لباقتها ، ولكنه لم يبح لها بإعجابه هذا .. ثم فوجئت به ينظم أبياتاً ، وأراد الاستاذ كامل مروة صاحب « الحياة » أن ينشرها فاشترط عليه ألا تكون موقعة باسم الشاعر . فنشرها ومهد لها بقوله : « لعل غواة الشعر يعرفون صائغها من درره » .

فديت سمراء في لبنان لو رضيت
هوت لسمرتها الأقمار سمارا
قدسية الحسن ، يستجدي براءتها
عاري الذنوب فيكسي الطهر والغارا
يوزع الليل من أحلام غفوتها
عطراً ويبدع أطيافاً وأسرارا
شعري وحسنك ـ أغلى الله سحرهما ـ
كلاهما صيغ أطياباً وأنوارا
جاران فوق جبين الشمس قد نزلا
لا ينبل الجار حتى يكرم الجارا

* * *

لا تعجبي من صبابات الكهول ولا
تروعي الشيب إجفالاً وانكارا
نحن المحبين أغرار وقد زحمت
غرارة الحب أقداراً وأعمارا
أكرمت حسنك بالأشعار مترفة
هل يكرم الحسن أحزاناً وأشعارا
إن شطت الدار عن عيني فما رضيت
لغير لبنان أحباباً ولا دارا

* * *

وقبل أن أبرح بيروت قدمت للبدوي كتاب الرسائل الفلسفية لفولتير وقد ترجمه شقيقي عادل قبيل وفاته وحرصت على نشره في دار المعارف بعد وفاته . وكتبت للحياة مقالاً سكبت فيه رأيي صريحا في الأوضاع العربية .

أنت كالربيع

وكتبت فور عودتي إلى نابلس رسالة مؤذناً البدوي بوصولي ومتحدثاً عن بعض شؤوننا

وشجوننا ، وما لبثت حتى تلقيت منه الرسالة التالية :

« أنت كالربيع تسكب زيارتك في سرائر إخوانك العطر . وتفارقهم فتترك لهم نشوة الذكر ، ولكن الربيع أحنى منك قلباً فهو يطيل الإقامة ليمتع العيون والقلوب بنعمته طويلاً وأنت توجز الإقامة فتنغص على محبيك هناءتهم فيك . وعذرك واضح فربيع الطبيعة يفنى في حر الصيف ولهيبه ، فهو يتأنى لذلك ويتريث ، وأما ربيعك فهو يتركنا إلى ربيع آخر . ربيع أم سري وأعزائها .وما شاء الله من طيوب الحنان والحب والايثار ومن الجنة مختصرة في لهفة زوجة ورنوة طفل .

لقد كان للمقال دوي ورجة أي رجة ، ولا أقول لك ذلك تظرفاً أو تحبباً أو فضولاً أو كلمة مجاملة ، بل أقول بعض ما لقيه مقالك من صدى في جميع الأوساط ، ولا غرابة في ذلك ، فإن وجدان الأمة ما يزال سليماً رغم ما ران عليه من صدأ ، فهذا الوجدان يتأثر ولو مؤقتاً لكل ما تمليه العاطفة الصادقة والمنطق السليم والبيان المجنح ، ولو سلمت الحريات لهذه الأمة لرجعت إلى هداها فترة لا يطول أمرها ولاستطاع إيمان المؤمن أن يدحر كل ضلالة وكل زيف وكل تهويل وتدجيل . ومقال كمقالك بين الفترة والأخرى ، يبني بعض ما تهدم ، ويعيد الصفاء إلى بعض النفوس الكدرة ، والإنصاف إلى من عبثت الدعاية بإنصافهم . جزاك الله عن عقيدتك وعن أمتك خير الجزاء .

كل احترام وإعزاز لك وللسيدة أم سري مع تقبيل وجنات الأعزاء واحداً واحداً بترتيب العمر حتى لا يكون هنالك اخلال بالبروتوكول !

أنهيت « رسائل فلسفية » ووالله لا أعتقد أن الأصل يصل من وضاءة البيان وجزالة الديباجة وانتقاء المفردات إلى ما وصلت إليه الترجمة رضي الله عن أخيك عداد مآثره في لغة العرب ولغة العرب .. « البدوي ».

وعلمت أن البدوي يكابد في بيروت ضيقاً نفسانياً وأن أحداثاً داخلية جعلته هدف رقابة شديدة أخذ يجنح بسببها إلى هجرة جديدة ، فبادرت إلى بيروت .

مع بشارة الخوري

وكانت بيروت آنئذ تزهر بوجود نخبة من كبار الشعراء الذين اعتمروها لتكريم الشاعر الكبير بشارة الخورى الملقب بالأخطل الصغير . وكنت أعلم في زيارتي السابقة من البدوي أن الأخطل الصغير قد هتف له يستزيره مستعجلاً .. فلما فعل ، قال له : « اسمع يا بدوي : إن كرام الأدباء يعتزمون الاحتفال بتكريمي في مهرجان أشبه بالمهرجان الذي أقيم لشوقي قديماً . وأشعر بأن قريحتي لا تساعفني بقصيدة تحية وشكر ، وأنت الشاعر الوحيد الذي يرضيني أن يعزى شعره إلي . فهل تتفضل علي بنظم أبيات تحيي فيها المكرمين وتشكرهم ، وتذكر الرئيس الجنرال شهاب والحكومة والشعب والخطباء ، وتخص الخطباء بالتمجيد . ضع نفسك مكاني فماذا كنت تقول ؟ فأجابه البدوي : أستغفر الله ، وأنى لي أن أحل محلك . إنني اعترف لك بعجزي عن نظم أبيات يجوز أن تعزى إلى شاعرنا الكبير .. ولكنه لم يقبل عذري وألح في التكليف مما حملني على أن أعده بالتفكير في الأمر .. والواقع أنه يستحيل علي أن أنظم بيتا واحدا لغيري ، وأعاد الأخطل الصغير الاتصال وأصررت على الاعتذار .

ثم أقيم المهرجان وألقى فيه شعراء كبار قصائدهم في تمجيد الشاعر . ولما لقيت البدوي سألته رأيه فيما ألقي فيه من قصائد .. فأجاب كانت قصيدة أمين نخلة أروع ما قيل ولو أوتي بعض قدرة الأستاذ عمر أبي ريشة على الالقاء لكان وقعها أضعاف ما كان .. وأما قصائد كبار الشعراء : أبي ريشة والجواهري ونزار وغيرهم فكانت دون مستواهم الرفيع ، وهنا أذكر من قصيدة أمين نخلة قوله :

أيقـولـون أخـطل وصغيـر ؟
أنت في دولـة القـوافي الأمـيـر
ولك التـاج والمطـارف والبـرد
وركن مجـلل وسـريـر
فـاسحب الـذيل مـا تشـاء وجـرر

إن ملك البيـان ملك كـبـيـر
وضع العصر في يـديك أمـانـات
القـوافي ، والعبء حيث الجـديـر
فـارفـع الصوت إنـه صوت لبنـان
وردد بـه ، ونعم الجـهـيـر
لـم تغرد فصاحتـه العرب : إلا
كـان منـا المغرد الشحـرور

ومما تردد يومئذ قول بشارة في هذه المناسبة :

أيـوم أصبحت لا شمسـي ولا قمـري ؟
مـن ذا يغنـي على عـود بلا وتـر
صغت القـريض ، ومـالي في القريض يد
يـد الطبيعة فيـه أو يـد القـدر
إن المواهب لا فضل لصاحبهـا
كـالصوت للطيـر أو كـالنشـر للزهـر

وقد ذكرني هذا بقول شوقي في مهرجان تأميره سنة ألف وتسعمئة وسبع وعشرين عن نجوم البيان الذين كرموه :

إنمـا أظهـروا يـد الله عنـدي
وأذاعـوا الجميل مـن إحسـانـه
مـا الـرحيـق الـذي يذوقون من كر
مـي ، وإن عشت طـائفا بـدنـانـه
وهـبـونـي الحمـام لـذة سجـع
أيـن فضل الحمـام في تحنـانـه
وتـر في اللهـاة مـا للمغنـي
مـن يـد في صفائـه وليـانـه

* * *

ودعا المهندس السياسي الاقتصادي أميل البستاني ، صديق الأدباء جمهرة منهم إلى تكريم الشاعر بشارة الخوري في دارته ، ولما أقبل البدوي هتف أمين نخلة : هذا هو أميرنا ، وقال عبدالله المشنوق وزير الداخلية للشاعر المصري صالح جودت مشيراً إلى البدوي : « هذا هو قمة الشعر العربي » وبعد أن انفض السامر ، استبقى البستاني نحو عشرين من الأدباء وفاجأهم بدعوة البدوي إلى إلقاء بعض شعره فشدا أبياتاً عنوانها : الشاعر .. وسمع صالح جودت يردد مترنحاً : الله الله ده إيه ؟ هذا فوق الشعر ! » .

خمرة الأحزان

وفي لقاء أسمعني البدوي قصيدة رثى فيها صديقه شاعر لبنان شبلي ملاط ، وكانت بينه وبين البدوي آصرة صداقة حميمة . كما أن ابنه وجدي ملاط (نقيب المحامين فيما بعد) والشاعر أمين نخلة كانا يبذلان فوق الجهد لإيناس البدوي وخدمته . وجاءت القصيدة في نحو مئة بيت سكب فيها أشجانه وهدهد وجدانه ، وقد ألقاها بعد حين في حفل التأبين .. وجعل عنوانها « خمرة الأحزان » ومطلعها :

لا الحقـد خمـرة أحزانـي ولا الحسـد
مـن جـوهـر الله صيـغ الشـاعر الغرد

ومن أبياتها التي يمكن أن تعد في السائرة :

وأكـبرت عن أدمعي مـن كـان مضطهـداً
ورحت أبكـي لمن يطغى ويضطهـد
للشعر والشمس هـذا الكـون لا عـدد
يـطغى على النـور في الـدنيـا ولا عـدد
لقـد حلفنـا على الجلى وزحمتـهـا
ألا يفارقنـا عز ولا صيـد



الأربعة الذين رثاهم البدوي : ١ ـ فارس الخوري ٢ ـ شكري القوتلي ٣ ـ سعد الله الجابري ٤ ـ هاشم الأتاسي (يصافح القوتلي) . ويرى في الصورة بين الخوري والقوتلي محسن البرازي ووراءه حسن جباره. وعلى شمال الخوري عاصم النائلي



السيد جميل مردم بك سفير سورية في مصر قلد وساماً للشاعر خليل مطران ، ويبدو في الصورة من اليمين : سامي السراج ، نسيب شهاب ، مرافق السفير مردم بك ، عوني عبد الهادي سفير الأردن ، زهير القباني ، جميل مردم بك ، أكرم زعيتر ، خليل مطران وعلى صدره شارة الوسام ، وليد ماجد ، الشاعر نزار قباني ، أسعد المحفل (وهم من أركان السفارة السورية بالقاهرة)

وعلى عادته في رثاء عزيز ، كان لابد له من تذكر إخوانه الراحلين :

طوت جفون الردى بيضاً غطارفة
لو أنهم ماجدوا شمس الضحى مجدوا
مصارع الصيد من قومي فكل ثرى
بدروكل أديم موحش أحد
لوكان يعلم سعدالله (١) ما ابتدعت
بي الخطوب تنزى الفارس النجد
ولو درى هاشم (٢) حزني لدللني
ورد عني العوادي الضيغم الحرد
أحبتي الصيد شل الموت سرحهم
وقد حننت إلى الورد الذي وردوا
يصونهم من حتوف الناس مجدهم
كأنهم من جلال المجد ما فقدوا

في استانبول

وجرت في بيروت محاولة « انقلاب » أخفقت ، وضوعفت الرقابة على السياسيين السوريين اللائذين ببيروت ، وخشي البدوي أن تمتد إليه بالأذى يد النظام القائم يومذاك ، ولمح زبانية يراقبون مدخل بيته فخرج من بابه الخلفي ويمم بيت صديق له ثم لاذ بالصرح البطريركي فرحب به البطريرك المعوشي ـ وكان عربي النزعة ـ (كما رحب قبل ذلك بالشاعر القروي) ثم أجرى إخوانه تدابير مكنته من اللجوء إلى استانبول . وفي استانبول ، نزل فندق هيلتون الفخم وصار يطعم في « مطعم عبد الله » ، وهو فيما علمت أيام وجودي مهاجراً إلى استانبول من أنفس المطاعم ..

وحدث أن جئت دمشق سفيراً للأردن فيها ، وحرصت على أن أتنسم أخباره فعلمت أنه انتقل من هيلتون إلى فندق جم التواضع اسمه « شاهانه » وصار يأكل في مطعم يغري بالتقشف ويتردد إليه فقراء الطلبة .. وكتبت إليه أبثه مع الشوق توقاني إلى أخباره فأجابني برائعة أنهاها بهذه الأبيات الساخرة :

أبعد صروح هيلتن شامخات
وطوع يدي من النتع الكنوز
أقيم بشاهانة مريضاً
تطل على شمطاء عجوز
وبعد طعام « عبدالله » صرنا
وغاية ما نسره بنه « عزيز »
إذا سيم الفتى نأياً وعسراً
أجاز لنفسه ما لا يجوز

السبحة

وللإطراف والإحماض أذكر أن صديقي وصديقه الأستاذ حبيب كحالة صاحب مجلة « المضحك المبكي » روى لي أنه حين لقي البدوي في بيروت ، كان يحمل سبحة أعجبت البدوي فوعده بأن يبعث إليه بمثلها من دمشق ، وتذكر وهو في مغتربه الوعد ، فأرسل إليه يستنجزه الوعد بهذه الأبيات :

أنا في جُلى فهل تسعدني ؟
بالذي يؤنس في عسر وبين
سبحة عطرك في حباتها
ترف الكف ونعمى كل عين
من ثلاث وثلاثين على
فرعها الحلية من أغلى اللجين
وانتخبها خير ما تملكه
لا تكن نعماك عندي بين بين
كلما سبحت فيها مرة
ذكر القلب « حبيباً » مرتين
ولنا وعد ببيروت بها
كيف ننساه ووعد الحر دين
لا يرجى الخير إلا من فتى
« كأبي جورج » كريم الشيعتين
قد بلونا الدهر في حالاته
ولقينا الصرف من زين وشين
سبة الدنيا لئيم حاقد
بطر النعمى كريم الأبوين

البلبل الغريب

وتناءت الديار فشرقت من دمشق إلى طهران وغرب من استانبول إلى فينا ولكن ما افترقت روحانا ، ولا انقطعت رسائلنا ..

وفي فينا نظم قصيدة « البلبل الغريب » في اثنى عشر ومئة بيت ، وبعث بها إلي منشورة في صدر « الحياة » .. كلها حنين سري ، وحنان عبقري ، وقد رنحتني ونشرتها في « الإخاء » الطهرانية .. ولست أعلم في كل ما قرأت عن الحفيد الطفل لبداعتها نظير ولا لروعتها خطير ، ولو ترجمت إلى أي لغة لكانت في أوابدها :

وهل دللت لي الغوطتان لُبانة
أحب من النعمى وأحلى وأعذبا
وسيماً من الأطفال لولاه لم أخف
ـ على الشيب ـ أن أنأى وأن أتغربا
تود النجوم الزهر لو أنها دمى
ليختار منها المترفات ويلعبا
وعندي كنوز من حنان ورحمة
نعيمي أن يغرى بهن وينهبا
يجور وبعض الجور حلو محبب
ولم أر قبل الطفل ظلماً محببا
ويغضب أحياناً ويرضى وحسبنا
من الصفو أن يرضى علينا ويغضبا
وإن ناله سقم تمنيت أنني

رحلة الشاعر في دنيا الاغتراب

فـداء لـه ، كنت السقيم ، المعذبا
ويـوجز فيما يشتهي وكـأنـه
بإيجـازه دلاً أعـاد وأسهبا
يزف لنا الأعياد عيداً إذا خطا
وعيداً إذا ناغى وعيداً إذا حبا
كزغب القطا لو أنه راح صاديا
سكبت له عيني وقلبي ليشربا
وأوثر أن يروى ويشبع ناعماً
وأظمأ في النعمى عليه وأسغبا
وألثم في داج من الخطب ثغره
فأقطف منه كوكباً ثم كوكبا
ينام على أشواق قلبي بمهده
حريراً من الوشي اليماني مذهبا
وأسدل أجفاني غطاء يظله
وياليتها كانت أحن وأحدبا
وحملني أن أقبل الضيم صابراً
وأرغب تحناناً عليه وأرهبا
تدلهت بالايثار كهلاً ويافعاً
فدللته جداً وأرضيته أبا
وتخفق في قلبي قلوب عديدة
لقد كان شعباً واحداً فتشعبا

* * *

ويارب من أجل الطفولة وحدها
أفض بركات السلم شرقاً ومغربا
وصن ضحكة الأطفال يارب إنها
إذا غردت في موحش الرمل أعشبا
ويارب حبب كل طفل فلا يرى
وإن لج في الإعنات وجهاً مقطبا
وهيىء له في كل قلب صبابة
وفي كل لقيا مرحباً ثم مرحبا
ويارب : إن القلب ملكك إن تشأ
رددت محيل القلب ريان مخصبا

ولا أجيز لنفسي هنا أن أغفل أشرف لوحة شعرية ترسم وطنية الشاعر في ابيات :

ويارب : درب في الحياة سلكته
وماحدت عنه لو عرفت المغيبا
ولي وطن أكبرته عن ملامة
وأغليه أن يدعى - على الذنب مذنبا
وأغليه حتى قد فتحت جوانحي
أدلل فيهن الرجاء المخيبا
تنكر لي عند المشيب - ولا قلى -
فمن بعض نعماه الكهولة والصبا
ومن حقه أن أحمل الجرح راضيا
ومن حقه ألا ألوم وأعتبا
وما ضقت ذرعاً بالمشيب فإنني
رأيت الضحى كالسيف عريان أشيبا
يمزق قلبي البعد عمن أحبهم
ولكن رأيت الذل أخشن مركبا
وأستعطف التاريخ ضناً بأمتي
ليمحو ما أجزى به لا ليكتبا

وياله ختاماً أخاذاً لقصيد عبقرى فى ثلاثة أبيات :

تغرب عن مخضلة الدوح بلبل
فشرق فى الدنيا وحيداً وغربا
وغمس في العطر الالهي جانحاً
وزف من النور الالهي موكبا
تحمل جرحاً دامياً في فؤاده
وغنى على نأى فأشجى وأطربا

بلابل دوح

وقرأ شاعر الشام الكبير الذي سينصفه تاريخ الآداب إذا جحدته اليوم دنيا العرب شفيق جبري ، هذه القصيدة فتأثر بها ، وترقرقت عيناه : ونظم بوزنها وقافيتها رائعة دعاها « بلابل دوح » أرسلها إلى البدوي في مقره في جنيف .. ومطلعها :

سل الشام من غنى جمالها فأطربا
ومن راح يسقيها الشراب المطيبا
تمطى عليها الليل حتى كأنما
تمد دياجيه على الصبح مذهبا

وفيها :

فتى الشعر : غن الشام عني فإنني
بححت ، فهل ألقى من الشعر مهربا
فما أنت إلا من عنادل جنة
إذا غردت هزت ثراها فأعشبا
لقد هجت مني أدمعاً صنت درها
اتحسب أني لن انوح وأنحبا
اتحسب لا تدمي جراحك مهجتي
متى كان قلبي في جراحك صلبا
متى كان دمعي لا يسيل على الحمى
إذا أقفر الربع المنيف وأجدبا
أخي في القوافي ، لا أخي حول مكسب
فما نبتغي في دولة الشعر مكسبا
رضينا من الدنيا بعز كرامة
هنيئاً لمن أضحى على الذل أشعبا
إذا زحموا دون السباسب منكبا
مشينا إلى العلياء نزحم منكبا
فغرد وغن الشام لحناً يهزها
إذا قلت شعراً هاج منها وألهبا
بلابل دوح عن ذراها مذودة
وغربان سوء مفلتات لتنعبا

والقصيدة طويلة يتحدث فيها عن اغترابه بين قومه واعتزاله في الجبال .. ثم يهتف بالبدوي الشاعر :

أخي غن عني غوطة الشام إنها
تفيض سروراً إن أفضت وتطربا
ألم تر آثار القوافي بيعرب
وهل حركت إلا الأناشيد يعربا
وسل دولة الإغريق كيف « عميرها »(٣)
بناها فأعلى من ذراها وأطنبا
فلولا حماسات القوافي وأهلها
لما جر حد السيف نصراً ومغلبا
إذا أجدبت أرض سقتها رضابها
فأحيت ثراها فاستطال وأخصبا

حنين الغريب

وأشجت قصيدة شفيق جبرى رصيفه البدوي وغدا إلى ضفة بحيرة ليمان في جنيف مرات وتفتقت قريحته عن رائعة في نحو مئة وأربعين بيتاً دعاها « حنين الغريب » رد فيها تحية شفيق بأمثالها .. وما تقول في حنين يسكب في مئة وخمسة عشر بيتاً ، أما كان الأجدر بأن يدعى القصيد (ديوان الحنين) .. أما المطلع فهو :

وفاء كمزن الغوطتين كريم
وحب كنعماء الشآم قديم
وشعر كآفاق السماء تبرجت
شموس على أنغامه ونجوم
يلم (شفيق) كوكباً بعد كوكب
ونسق منها العقد فهو نظيم
معان بألوان الجمال غنية
كما زف ألوان الطيوب نسيم
ووشي كأحلام الشباب يصوغه
أنيق بأسرار البيان عليم
سقاني سلاف الشعر حتى ترنحت
دموع وغنت لوعة وكلوم
ففي كل بيت رقة وسلافة
وريحانة شامية ونديم

وفي القصيدة . الديوان . نجاوى وحنين . ولوعات وأنين .. وليس أصعب من الاجتزاء ببعضها عن كلها .. ولكنها أبيات منثورة هنا وهناك نتذوقها كالسلفة تغري بالوجبة :

وللمجد أعباء ولكنها مني
وللمكرمات الغاليات هموم
يلاقي العظيم الحقد في كل أمة
فلم ينج من حقد الطغام عظيم
ويقذى بنور العبقرية حاسد
ويخزى بمجد العبقري لئيم
قد اختصرت دنيا بقلبي وعالم
كما اختصر العلم الشتيت رقيم
وتوجز في قارورة العطر روضة
وتوجز في كأس الرحيق كروم
وأعرض إعراض الخلي من الهوى
وبي من هواها مقعد ومقيم
وما حيلتي أن نم عن نفسه الهوى
هو العطر والعطر الزكي نموم



بـــــدوي الجبل وحفيـــــده محمـــــد والـــوقـــوف : ولـــده أحمـــد وولـــده منيـــر ، وزوجتـــه زلفاء ، وولـــده المرحـــوم عـــدنـــان وحسيبـــة زوجـــة ولـــده منيـــر (بيـــروت ١٩٦١) .



بـــــدوي الجبل يحمل حفيـــــده الأول في الاحتفال بمضي سنـــــة على ولادتـــه ، ويحيط بـــه ولـــده منيـــر وزوجتـــه وولـــده أحمـــد وولـــداه (١٩٦٢) .

ويـــارب تـــدري الشـــام أنـــي أحبـــهـــا
وأفنـــى وحبـــى للشـــآم يـــدوم
ولي في ثـــراهـــا مـــن لـــداتـــي أعزة
حمـــاة إذا استخـــذى الشجـــاع قـــروم

الرسالة الرائعة

ورحب الصديق نذير فنصة محرر « الإخاء » في طهران بنشر القصيدتين في صدر مجلته (الاخاء) ، وقدم لهما بمعلقة نثرية في تمجيد الشاعر . وبعثت إلى البدوي برسالة تحنان مشفوعة بالمجلة .. وجاءني الجواب الأروع ، ولم يتوافر لى قدر كاف من التواضع لحجبها عن قارئي ، ومن قرأها غفر لي هذا التجاهي بها :

أخي وسيدي : رسالتك تحمل ربيعا إلى قلبي في شتاء جنيف ، وطمأنينة إلى نفسي في هذا الجو المكفهر العابس الكئيب . ويشهد الله أن ذكرك في هذه الأشهر القصار الطوال كان عطراً في سريرتي ، وأغرودة على شفتي . والإنسان إذا بعد عن مواطن شبابه . ونظر من بعيد وهو في محنته واغترابه . استطاع أن ينعم بما لم يكن يتملى النعمة فيه من قريب . وأنا الآن أنعم بذكرياتك . كما كنت بل وفوق ما كنت أنعم بلقاءاتك . وأهنأ منها بما يهدهد من أحزاني ويدلل من آلامي . فيا أخي وصديقي حين عز الأخ ، واستحال الصديق : جزاك الله عن نعمة إخائك خيراً وعلى سالف وفائك وجديده . كفاء هذه النعمة شباباً دائماً ، ومجداً ملازماً ، وأقر عينك بالزوجة الفاضلة الكاملة والبنين الذين تنطق مخايلهم بالنجابة وتشير إلى عبقرية أصيلة عرق فيها الأب والأم .

أنا في جنيف منذ ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وكنت قد قضيت قبلها شهرين مريضاً في فينا ، كما أنني عرجت قبل هذه وهذه على روما وتونس فقضيت فيهما قرابة شهر ، ولم أكن استطيع الكتابة إليك ، وأنت في دمشق ، وجوها جوها ، وملابساتها ملابساتها ، ولكن أولادي كانوا ينقلون إلي أنباءك وعوارفك . ثم قرأت وصولك إلى طهران فقلت : أؤخر الكتابة حتى ينتهي من المراسيم . ثم أخرتها حتى تنتهي زيارة جلالة الملك .. وهكذا وهكذا حتى بدأتني بالفضل كما تعودت دائما والمروءة فيك طبع لا تطبع ، والنبل سجية لا عطية .

الأخ نجيب الراوي (٤) لقيته مرتين أو ثلاثة . أما الأخوان حسين وأحمد (٥) فنحن نجتمع كل يوم تقريباً في مقهى على ضفاف البحيرة ، ومجالسنا في جنيف حالية بذكرك ، عابقة بعطرك . وقد كنت رفيقي الدائم ليلاً ونهاراً ، وأنا أنظم قصيدتي « البلبل الغريب » في فينا ، وقصيدتي « حنين الغريب » في جنيف . وكنت استشيرك في كل نغم وأسارك في كل ألم ، وأنتقي وإياك المفردات ، ونغير هنا كلمة ونبدل هناك كلمة ؛ كما أنك رفيقي دائما عند كل روضة مطلولة أورقة معسولة .

إن لي عنـــد كل نفحـــة بستـــان
مـــن الـــورد أو مـــن اليـــاسمينـــا
لفتـــة وانتبـــاهـــة أتمنـــى
أن تكـــونـــي حللت فيمـــا يلينـــا

وبعد فإذا كان لهذه المحنة من خير ، فخيرها أنها كشفت لنا ما كان خفياً من أخلاق ومزيفاً من شمائل ومزوراً من صداقات .

يسرني وجودك في طهران لأنك خير من يرد ديون سيبويه والفيروزآبادي ومئات غيرهم ، وخير من يمتن صلات الإيمان والإسلام .

أما تقدير مزاياك وتقييم سجاياك فهو واحد في كل مكان ، ومكانتك مكانتك في دمشق وبيروت ولبنان ، وفي القاهرة وعمان ، والعبقرية واحدة في كل زمان ومكان ، فهنيئا بك لطهران ، أرجو أن تتفضل بتقديم خالص احترامي وإكباري للعقيلة وقبلاتي لأبنائك وبناتك ولاسيما لسري ، ولي عهدك وعزة مجدك وأضمك إلى قلبي مقبلا معانقاً متلهفاً » .

البدوي — ١٨ — ١ — ٦٤

أكرم زعيتر

تصويب

في حلقة عدد ١١٨ أكتوبر (تشرين أول) ورد في شطر من شعر البدوي : فانتحى في الثرى حسام صقيل ، والصحيح فانتخى . ووردت عبارة « وغبتك والنصر وصحيحها » وغضبتك والنصر » .

هوامش :

١ — سعد الله الجابري
٢ — الرئيس الزعيم هاشم الأتاسي
٣ — هوميروس
٤ — السفير الوزير العراقي المقيم في جنيف
٥ — أبو الفتح صاحب جريدة المصرى .

إسرائيل .. بين التعصّب والخوف من المستقبل

بقلم : عصام شريح

تشكل عملية الاستيطان ، العمود الفقري للحركة الصهيونية ، حتى إن دافيد بن جوريون لخص المفهوم الرئيسي للصهيونية بأنه : «التجمع والاقتحام» ، أي تجمع المهاجرين اليهود ، ثم التوسع في الأرض العربية لبناء المستوطنات عليها . لذلك شغلت عملية الاستيطان حيزاً واسعاً ، وبشكل مستمر ، في الفكر الصهيوني ، الأمر الذي جعل الأحزاب المختلفة ، تتبارى في تقديم برامج شاملة ودقيقة حول الاستيطان ، وتتنافس في الاندفاع لتقديم شتى المساعدات والوعود للمستوطنين .

ومن هذا المنطلق طلع علينا المنظرون الصهاينة بأفكار خطيرة في مجال الاستيطان في السنوات الأخيرة . وكان من أهم الوثائق التي صدرت مؤخراً حول الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، الوثيقة التي كتبها «ميرون بنفنستي» وقد حاول الدكتور بنفنستي في هذه الوثيقة . التظاهر بالموضوعية والروح العلمية دون انحياز لرأي أي من الأحزاب الاسرائيلية ووجهات نظرها بالنسبة لمستقبل الأراضي العربية المحتلة ، لكنه سرعان ما كشر عن أنيابه الصهيونية ، كمؤيد للاستيطان واغتصاب الأراضي العربية ، وتشريد المواطنين العرب من أراضيهم ووطنهم ، حتى أن أعضاء في حزب «شينوي» (التغيير) ، أعلنوا بصراحة ، أن بنفنستي يؤيد سياسة ضم الأراضي العربية المحتلة ، وأن جميع جهوده وأبحاثه ، انما استهدفت تبرير عملية ضم واغتصاب الأرض العربية من أصحابها الشرعيين ، كما أن جماعة ما يسمى «بحركة السلام الآن» قالوا إن الوثيقة التي كتبها بنفنستي كان لها هدف واضح هو خدمة حزب الليكود ، الذي ينادي علناً بضم الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين الى الكيان الصهيوني .

لكن ماذا قال الدكتور بنفنستي هذا في وثيقته ؟

لقد حاول بنفنستي الايهام بأنه لا يؤيد ضم الأراضي العربية المحتلة ، لكن محاولة الخداع هذه سرعان ما سقطت عندما قال : «ان اسرائيل من خلال الاجراءات التي اتخذتها ، والسياسات التي طبقتها في الضفة الغربية وقطاع غزة منذ عام ١٩٦٧ ، قد استطاعت ربط تلك المناطق بالمناطق المحتلة في عام ١٩٤٨ ، وبالتالي فانه ليس بالإمكان فصل الضفة والقطاع عن جسم الكيان الصهيوني فصلاً كاملاً» .

وأضاف أنه «بعد أن قام بعملية تدقيق في الوضع السائد في هذه الأراضي ، توصل الى استنتاج فحواه ، أن الضم قد أصبح حقيقة واقعة ، وان الفرصة أمام أي قوة سياسية داخل الكيان الصهيوني ، لوقف مسيرة الضم ، ضئيلة جداً ، كما أن الفرصة محدودة جداً ، أمام قيام المجتمع الدولي بارغام اسرائيل على تغيير سياستها في الضفة الغربية وقطاع غزة» . ويحاول بنفنستي إعطاء حكم قاطع بالنسبة لمستقبل الأراضي المحتلة في عام ١٩٦٧ ، وذلك بالايحاء بان الضم سياسة لا يمكن التراجع عنها ، سواء من قبل حزب العمل أو حزب الليكود . حيث يقول : «إن ابتلاع اسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة ، قد نجح نجاحاً عظيماً ، بحيث لن يتمكن أي اتفاق سياسي محتمل من وقفه» .

وباختصار يمكن تلخيص الفرضيات التي انطلق منها بنفنستي في تقريره بما يلي :

(١) ان تفكيك المستوطنات القائمة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، مقابل «سلام» مع العرب ، أمر مرفوض .

(٢) ان خيار اقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع المحتلين هو خيار مرفوض أيضا ، وبالتالي فإن الفكرة القائلة بامكان استمرار وجود المستوطنين اليهود كأقلية ضمن الدولة الفلسطينية ، هي فكرة خرقاء ، لأنها تتنافى مع المنطق الصهيوني ، الذي يعتبر اليهود سادة ، والعرب عبيداً .

(٣) ان موضوع مدينة القدس لم يعد مطروحاً للنقاش والجدل ، باعتبار القدس جزءاً لا يتجزأ من الكيان الصهيوني .

بيد أن بنفنستي لم يستطع اخفاء حقيقة المقاومة الفلسطينية المتصاعدة ضد سياسة التهويد والضم ، ومالها من أثر واضح في حدوث انقسام بين الأحزاب الاسرائيلية حول سياسة ضم الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، حيث قال إنه «اذا كانت عملية ابتلاع الضفة والقطاع قد نجحت نجاحاً فائق التصور ، فإن الصراع العربي الصهيوني لم ينته بعد ، بل إنه تحول إلى صراع داخلي في اسرائيل ، وهو صراع عنصري ، حيث أصبحت هناك أقلية فلسطينية كبيرة ، بحيث أصبح في اسرائيل مجتمعان ، أحدهما عربي ، والآخر يهودي» .

كما لا يخفي بنفنستي قلقه من امكانية ما يصفه «بطلب الفلسطينيين في الضفة والقطاع ، الانضام الى اسرائيل في نهاية المطاف ، من أجل الحصول على حقوق متساوية !!» .

مشروع دروبلس

من نظريات الاستيطان الصهيوني أيضا ، نظرية «منتياهو دروبلس» ، التي يقترح فيها اقامة ما بين ١٢ ــ ١٥ مستوطنة صهيونية في الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، كل سنة ، وبحيث تتوزع المستوطنات على الضفة الغربية بأسرها .

● جنون الاستيطان الصهيوني في مواجهة مليون ونصف مليون عربي

وأهم المرتكزات في مشروع دروبلس ، وهو رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، هي التالية :

(١) التشديد على أهمية بناء المستوطنات الجديدة بين التجمعات والمدن العربية ، وفي داخلها .

(٢) يتوجب أن تكون المستوطنات عبارة عن كتل استيطانية متراصة ، لتجنب فرض العزلة عليها .

(٣) اعتبار الاستيطان ، المرتكز الحيوي للأمن ، الأمر الذي يفرض زرع المستوطنات في مواقع استراتيجية ، تسمح بتعزيز الأمن الداخلي والخارجي للمستوطنين ، كما تسمح بفرض سيطرة المستوطنين على الأراضي العربية المحتلة كلها .

ويطالب دروبلس في مشروعه بانتهاج نموذج حديث من الاستيطان ، يسميه «بالاستيطان الجماعي المختلط» ، وهو يستند الى وسائل انتاج لا تحتاج الى أراض واسعة أو كميات كبيرة من المياه ، كما أنه يتلاءم مع طبيعة أرض الضفة الغربية ، بحيث تتكون المستوطنة في البداية من ٧ — ٢٠ عائلة ، على أن تصبح نتيجة للتطور الزمني ما بين ٢٠٠ — ٣٠٠ عائلة . كما يطالب دروبلس بزرع المستوطنات في أماكن مختلفة ، كقمم الجبال ومحاور الطرق الرئيسية ، لفرض رقابة وسيطرة دائمة على المدن والقرى العربية ، ومنع أي توجه عربي نحو الاستقلال إضافة الى أن هذه المستوطنات تشكل في رأيه ، الأسلوب الصحيح والفعال ، لإزالة أي شك لدى المواطنين العرب بشأن نوايا اليهود بالبقاء في «أرض اسرائيل» الى أبد الآبدين » .

وبناء لخطة كبرى أعدها قسم الاستيطان بالوكالة اليهودية ، وتحمل توقيع دروبلس والنائب في الكنيست الصهيوني «ميخائيل ديكل» تنقسم الضفة الغربية الى ثلاث مناطق طلب : «عال» و «متوسط» و «أدنى» ، وتستند مقاييس هذا التعريف ، بمدة السفر الى القدس ومستوطنة «غوش دان» إضافة إلى ما تصفه الخطة بالجاذبية الايجابية (المشهد الطبيعي) مقابل الجاذبية السلبية (القرب من السكان العرب) » . وبناء على هذا التعريف ، فإن «منطقة الطلب العالي» للاستيطان اليهودي ، تقع على نحو ثلاثين دقيقة من السفر من منطقة تل أبيب ، ونحو عشر دقائق من السفر من القدس و «غوش دان — ناتانيا» ، وتغطي هذه المنطقة شريطا يتراوح عرضه ما بين ١٠ — ١٥ كم شرقي «خط الهدنة» من طولكرم (شمالا) إلى القدس و «غوشى عتسيون» (جنوبا) .



ميرون بنفنستي

أما حدود «منطقة الطلب المتوسط» ، فتقع حسب التعريف السابق ، على بعد نحو خمسين دقيقة من السفر من تل أبيب ، ونحو خمس وثلاثين دقيقة من السفر من القدس والمستوطنات الواقعة على طول محور الشاطىء . وتشمل هذه المنطقة ، المرتفعات الجبلية في الضفة ومنطقة مستوطنات : ريحان — دوتان ، وكتلة ريمونيم — كوخاف — هاشاحر — عوفرا ، والشريط الممتد من محور مستوطنتي عاموس — افرات ، الى مستوطنة «غوشى عتسيون» . أما «منطقة الطلب الأدنى» ، فتمتد من شرقي المرتفعات الجبلية في منطقة نابلس ، الى المنحدرات الجنوبية الغربية لجبل الخليل .

مشروع شارون

وبالطبع فإن أريئيل شارون ، الذي يمثل قمة الغطرسة والتعصب الصهيونيين ، لم يتخلف هو الآخر عن تقديم مشروع خاص به للاستيطان ، وقد أطلق عليه اسم «مشروع المحور المضاعف» أو «العمود الفقري المزدوج» . وينادي شارون في مشروعه هذا بنشر المستوطنات على خطين متوازيين ، تربط بينهما شبكة واسعة من الطرق الطولية والعرضية ، كما يشتمل المشروع على خطة لإقامة ثلاثة مراكز مدينية كبيرة عند مداخل مدينة القدس ، بحيث تشكل مراكز دفاعية للمدينة ، وهذه المراكز الاستيطانية هي :

«غفعون» و «معاليه أدوميم» و «افرات» ؛ كما يتضمن المشروع إقامة كتلة من المستوطنات في المثلث الصغير بشمال الضفة الغربية المحتلة ، بهدف ربطها بمنطقة الساحل من جهة ، ومن جهة أخرى إيجاد خط استيطاني يفصل بين التجمعات العربية الضخمة في مدينتي نابلس وجنين ، والتجمعات العربية الواقعة على طرفي «خط الهدنة» ، وذلك لمنع أي اتصال بينهما ، ويبرر شارون هذا المخطط بقوله إن عرب الضفة الغربية يزحفون «استيطانياً» نحو الغرب — أي نحو المناطق المحتلة في عام ١٩٤٨ . ويقترح شارون كذلك في مشروعه شق شبكة واسعة من الطرق الطولية والعرضية ، من ضمنها طريق باسم «حوتسيه شومرون» أي «عابر السامره» وهو عبارة عن محور عرضي رئيسي ، يتيح حركة مرور مكثفة من المنخفض الساحلي في المناطق المحتلة في عام ١٩٤٨ ، إلى غور الأردن وشمالي الضفة الغربية ، ومن شأن هذا الطريق الإسهام بصورة كبيرة في تكثيف الوجود الاستيطاني الصهيوني في الضفة المحتلة ، حيث يشتمل مشروع شارون أيضا على بناء معسكرات للجيش الاسرائيلي ، إضافة الى مراكز استيطانية مختلفة الأحجام . أما في منطقة الخليل ، فإن المشروع يقترح إقامة كتلة من المستوطنات يمكن ربطها بمستوطنة (كريات أربع) ، ويرمي شارون من وراء مشروعه هذا الى رفع نسبة المستوطنين في الأراضي المحتلة من ١ ٪ كما هو حاليا الى عشرين أو ثلاثين بالمئة خلال العقد القادم .

مشروع فايتسمن

أما المشروع الذي اقترحته وزارة الحرب الصهيونية ، وتبناه وزير الحرب الأسبق عيزر فايتسمن ، فيرمي الى تجميع المستوطنات الصغيرة والمبعثرة في ستة مراكز مدينية ضخمة ، ثلاثة منها حول القدس ، لتكريس «الطابع اليهودي» المزعوم للمدينة ، وثلاثة أخرى في شمال الضفة الغربية المحتلة . ويرى فايتسمن أن إقامة مدن كبيرة في مناطق محددة من شأنها تقليص حجم الاحتكاك والتداخل بين المستوطنين الصهاينة وعرب الضفة الغربية ، على أن يتم ربط هذه المدن الاستيطانية بالجزء المحتل من فلسطين في عام ١٩٤٨ ، بواسطة «طرق التفافية» تتحاشى المرور بالمدن والقرى العربية .

واقع الاستيطان

وعلى الرغم من الحملات المسعورة للأحزاب المختلفة ، بشأن ضرورة تكثيف المستوطنات والمستوطنين في الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، فإن تلك الحملات والأحلام التي ترافقها ، شيء ، والواقع شيء آخر ، وبهذا الصدد ذكرت صحيفة «هآرتس» في عددها الصادر بتاريخ «٢٤ — ٥ — ١٩٨٤» ، أنه استناداً إلى المعطيات المتوفرة ، فإن عدد المستوطنات التي بنيت في

إسرائيل .. بين التعصب والخوف من المستقبل

الضفة الغربية المحتلة ، منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٨٤ ، قد بلغت ١١٢ مستوطنة ، وكان إنشاؤها قد بدأ في «غور الأردن» على أساس «مشروع ألون» ، وتواصل بعد ذلك في قمم الجبال على يدي عصابة غوش إيمونيم ، وتعاظم البناء بشكل مكثف في سائر أنحاء الضفة المحتلة على أساس السياسة الاستيطانية لحكومة حزب الليكود السابقة . وتعترف الصحيفة ، بأن أكثرية المستوطنات الجديدة المقامة في أراضي الضفة الغربية هي «مستوطنات صغيرة جداً» ، لايزيد عدد سكان أي منها : عن ١٠٠ — ٣٠٠ نسمة ، وحسب التقديرات التي بحوزة صحيفة «هآرتس» فإن عدد المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية المحتلة ، لم يتعد ٢٨ ألف مستوطن فقط ، فيما يصل عدد المواطنين العرب فيها الى نحو ٨٠٠ ألف نسمة ، يتوزعون على أكثر من ٤٥٠ مدينة وقرية ، أي أن نسبة اليهود في الضفة الغربية الى العرب : لا تتعدى ٣,٥ بالمئة فقط .

وينقسم الاستيطان اليهودي في الضفة المحتلة ، الى مستوطنات مدينية ، مبنية على نسق المدن ، ثم مستوطنات جماعية شبه مدينية ، وضواح مدينية قرب مدن كبيرة تقع داخل الأراضي المحتلة في عام ١٩٤٨ ، ثم مستوطنات قروية زراعية ، ومع ذلك فإن عدد سكان المستوطنات المدينية الست الكبيرة نسبياً ، وهي : أريئيل — معالية أدوميم — كريات أربع — معاليه افرايم — الكانا وعمانوئيل ، يبلغ اليوم نحو ١٣ ألف نسمة فقط ، أي ما يعادل ٤٦,٤ بالمئة من مجمل عدد المستوطنين في الضفة الغربية ، أما بقية المستوطنات ، فتستوعب بقية المستوطنين أي حوالي ١٥ ألف يهودي يتوزعون على ٥٢ مستوطنة ، لا يزيد عدد سكان الواحدة منها عن مئة نسمة ، وعلى ٤٤ مستوطنة أخرى يتراوح عدد سكان الواحدة منها مابين ١٠٠ — ٣٠٠ نسمة ، كما أن هناك سبع مستوطنات يصل عدد سكان الواحدة منها ألف نسمة أو يزيد .

وبإمعان النظر في هذه المعطيات ، ووزنها في ضوء عمليات الاستيطان المحمومة في الضفة الغربية المحتلة ، خلال ستة عشر عاماً من الاحتلال الصهيوني ، يمكن وضع الاستنتاجات التالية :

ان مستوطنات بلغ حجم سكانها ٢٨ ألف مستوطن خلال ١٦ عاما من الاستيطان ، أي بمعدل سنوي يساوي ١٧٥٠ يهودياً ، لا تشكل نسبة ذات دلالة كبيرة في سياق العملية الاستيطانية ، ناهيك عن أن متوسط التكاثر الطبيعي للمستوطنين في الضفة سنوياً ، يشكل فقط $\frac{1}{7}$ نسبة مثيله لدى العرب .

وتشير «هآرتس» الى أن من الأهمية بمكان ، الأخذ بعين الاعتبار ، «أن الجزء الأساسي من الاستثمار في البنية التحتية والتطوير واستغلال طاقة التأهيل لدى أصناف مختلفة من المستوطنين من متدينين وقوميين متعصبين وشبان ومستثمرين على أنواعهم ومغامرين ، قد نفد خلال العقد الماضي» ، وإزاء هذا الواقع فإن وزارة مالية العدو ، تتخبط اليوم في صعوبات تمويل استمرار مشروع الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة ، وذلك في ضوء تضاؤل مصادر التمويل ، فضلاً عن الأضرار التي لحقت باستثمارات رجال المال والأعمال الصهاينة ، والتي لا يمكن أن تستمر الى مالا نهاية له .

ولعل أهم الاستنتاجات التي يمكن الخروج بها هنا ، ان الهدف الذي رسمته حكومات العدو الصهيوني (معراخ وليكود) ، وهو زرع ٥٣٠ ألف مستوطن يهودي في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين حتى عام ٢٠١٠ ، مايزال في نقطة انطلاق متدنية جداً ، وذلك بعد ان استثمرت هذه الحكومات جل أموالها ونخبة المستوطنين في هذا المشروع ، وتقول «هآرتس» في هذا الصدد ، «ان فرص نجاح المشروع الاستيطاني في الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، تبدو ضعيفة الى حد يثير شكا كبيرا تجاه مستقبله» .

أما بالنسبة لقطاع غزة بالتحديد ، فإن الهدف الاستيطاني المتمثل بزرع خمسة آلاف عائلة صهيونية في القطاع المحتل ، يبدو هزيلا جدا ، وتقول صحيفة «دافار» (١٧ — ٦ — ١٩٨٤) انه عندما يتحقق هذا الهدف قبيل نهاية القرن الحالي ، فإن عدد المواطنين العرب في قطاع غزة ، سيقفز الى مليون نسمة ، وهكذا فإن الخمسة آلاف عائلة — حوالي ثلاثين الف يهودي — لن تشكل أكثر من نقطة في بحر ، علماً بأن عدد المستوطنين الصهاينة في القطاع حاليا يبلغ نحو ١٥ ألف يهودي موزعين على ست مستوطنات دائمة ، وخمس عشرة مستوطنة عسكرية تابعة لما يسمى بقوات «الناحال» — «أي الشباب الطلائعي المحارب» لكن معظم هذه المستوطنات تبدو شبه مهجورة وعديمة الجدوى على المدى البعيد ، حيث أنها جميعاً مستوطنات زراعية ، تعاني من ضائقة اقتصادية شديدة ، وأكثر المستوطنين الذين منحوا أراض واسعة لأغراض الزراعة بعد مصادرتها من أصحابها العرب ، لا يعملون في هذه الأراضي ، وقد فضلوا العمل داخل «اسرائيل» — القطاع المحتل من فلسطين في عام ١٩٤٨ .

وهؤلاء يغادرون مستوطناتهم في الصباح للعمل داخل «اسرائيل» ولا يعودون اليها الا في ساعات المساء ، لذلك فإن معظم المستوطنات الصهيونية في قطاع غزة ، تبدو في النهار شبه خالية ، إلا من دوريات الحرس المدني التي شكلها المستوطنون لحراسة منازلهم في الليل والنهار ، وهذا الوصف ينطبق بصورة أو بأخرى على المستوطنات المزروعة في الضفة الغربية المحتلة ، خاصة في ضوء تصاعد عمليات المقاومة الفلسطينية ضد المستوطنين مؤخراً .

مصير المستوطنين

في ضوء هذه المعطيات والوقائع ، فإن مصير المستوطنين في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ، لا يبدو لامعاً ، بل انه في ضوء تصاعد العمليات الفدائية الفلسطينية مرشح لمزيد من التراجع ، وقد رسم أحد السياسيين الاسرائيليين البارزين ، صورة قاتمة للاستيطان في الأراضي المحتلة في عام ١٩٦٧ ، وقال «أريبه ألياف» في كتابه «أرض الغزال» (وهو عضو كنيست سابق والأمين العام السابق لحزب العمل) ، قال : ان المستوطنين سيضطرون الى الاقامة في دولة فلسطينية — أردنية ، أو الى العودة الى أماكنهم داخل «الخط الأخضر» ، واستسخف ألياف ما ينادي به ميرون بنفنستي من ضرورة تكثيف الاستيطان في الضفة والقطاع المحتلين رغم تأخر إسرائيل في ذلك ، ويقول الياف : «ما معنى استيطان مكثف؟؟! في الأراضي المحتلة حاليا حوالي ٣٠ ألف مستوطن يهودي ، والى أن نتزحزح ، سيكون ثمة ٥٠ ألفا ، مقابل مليون ونصف المليون من العرب ، أي أن النسبة ستكون ٣ بالمئة لليهود فقط» .

ويضيف ألياف متسائلاً : «وعلاوة على ذلك ، ما معنى أن يعمل ٩٠ بالمئة من المستوطنين في السهل الساحلي والقدس (فلسطين المحتلة في عام ١٩٤٨) . ويخاطب بنفنستي قائلاً : «واذا كنت تتحدث عن كثافة استغلال الارض ، فلا أعتقد أن المستوطنين يستغلونها الى هذا الحد ، وثمة قسم تافه منهم يقوم بأعمال خلاقة .. انهم يجلسون هناك في المنازل ، بعضهم يصلي ، وبعضهم يعمل في المدن الكبيرة ، والبعض الآخر يحيك المؤمرات في السر .» ويتساءل ألياف : «هل نقول بسبب شق طريق واسع ، وبسبب موشيه ليفنغر وزملائه في حركة غوش ايمونيم ، إن النهاية قد حلت ؟؟ وهل نتحول : أنت (مخاطباً بنفنستي) وأنا وابني ، بسبب ذلك ، الى مسوخ وننشيء ههنا مسوخاً أيضا ؟؟» .

وبالطبع فإنني لا أرمي من وراء هذه المقالة ، الى التهوين من خطر الاستيطان في أرضنا المحتلة ، ولا من خطر المشاريع الصهيونية على هذا الصعيد ، لكنني رميت إلى فضح التهويل الذي تستثمره أجهزة الدعاية الصهيونية ، في وصفها للاستيطان ومشاريعه ، وذلك في رأيي يستهدف الابتزاز أولاً وأخيرا .

عصام شريح

ملف فكري بالغ الأهمية

العرب وأفريقيا

حقائق صارخة لا يجوز أن تغيب عن العقل العربي الآن



فى العام العشرين من الهجرة دخل العرب المسلمون العاصمة الأفريقية القاهرة (الفسطاط) ثم انتشروا خلال سنوات إلى كل الشمال الأفريقى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا . فالارتباط العربى بأفريقيا ارتباط قديم ، ويعود إلى المراحل الأولى ليقظة الحضارة فى كل منهما فى وقت واحد . وكأن مرحلة النمو الحضارى فى كليهما جعلتهما توأمين .

غير أن اللافت للنظر أن يتجه العرب بعد ذلك إلى عبور البحر واحتلال جزره جميعا ثم النزول إلى أوروبا فى أسبانيا وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا ، وحتى حول البحر الأسود إلى جنوب موسكو . كل ذلك دون أن يعبروا الصحراء الأفريقية الكبرى إلى وسط أفريقيا . ولو كانوا عبروا هذه الصحراء الكبرى لكانت أفريقيا اليوم كلها عربية .

بقلم : الدكتور السيد فهمي الشناوي

ملف فكري بالغ الأهمية

العرب وأفريقيا

ومن الراجح أن عبور العرب المفترض لهذه الصحراء الأفريقية كان أسهل عليهم من عبور البحر الذى كانوا يخافونه ، حتى أن عمر بن الخطاب يصرح بهذا الخوف فى رسالة رسمية . ثم أن عبور الصحراء الأفريقية ليس أصعب من عبور الصحارى الآسيوية التى فصلتهم عن الشام وعن مصر وعن اليمن .

وقد كانت مخاطرة أجدادنا فى عبور البحار دون اجتياز الصحارى المعتادة ، مردها إلى أنهم كانوا يلاحقون عقيدة تختلف : يريدون تصحيحها فكان اتجاههم نحو أوروبا وانشغالهم بها عن أفريقيا التى كانت محايدة بلا عقيدة ولا دين اللهم إلا فى الحبشة . وظل هذا الانشغال عن أفريقيا الوسطى والجنوبية ١٣ قرنا كاملا . حتى جاء محمد على باشا فهداه طموحه وتوثبه إلى الاتجاه جنوبا نحو السودان ثم منابع النيل . وهو توسع سهل جدا كان فى استطاعة العرب المسلمين الأوائل القيام به ، ودون حاجة إلى اجتياز الصحارى والفيافى الأفريقية .

ومن المؤكد أيضا أن هذا الغزو الذى قام به محمد على لو أنه تم أثناء الفورة الأولى للهجمة العربية الاسلامية على أفريقيا لكان تاريخ أفريقيا ووضعها اليوم مختلفين .

والوضع الآن هو أن الشمال الأفريقي كله عرب . وأن هذا الشمال العربى الأفريقى يكون ستارا واقيا بين الاستعمار الأوربى وبقية القارة ، ويكون موصلا حضاريا بينهما فى نفس الوقت . فالعرب يحمون أفريقيا من الشمال ، وينقلونها إلى الحضارة المعاصرة ، وفى نفس الوقت يشاطرون معا أصلا واحداً وطفولة حضارية مشتركة .

وبلغة الأرقام فإن العرب والأفارقة يشكلون الآن ٤٠ ٪ من الأصوات فى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية . وهم فى نفس الوقت يكونون معا كل الهدف المستهدف من الاستعمار العالمى تقريبا . والمقاومة فى وجه الاستعمار الذى يستهدفهما معا هى همهما المشترك .

بدأ استعمار أفريقيا بالاستعمار البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ، ثم انعقد مؤتمر برلين بعد سنتين اثنتين أي عام ١٨٨٤ ، حيث عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا على اقتسام القارة الأفريقية بشطريها العربى وغير العربى (الزنجى) . وكان قد اكتشف الماس فى الترنسفال والنحاس فى روديسيا فى نفس هذه الفترة ظفرت بريطانيا فى هذا المؤتمر الخطير بنيجريا وكينيا وأوغندة وزنجبار وروديسيا وجنوب أفريقيا ، وحصلت فرنسا على تشاد وداهومى وجابون ومدغشقر ، وغزت المانيا توجو والكاميرون وافريقيا الشرقية وحصل ملك بلجيكا على الكونغو كملك خاص وحصلت البرتغال على أنجولا وموزمبيق .

هكذا اقتسموا القارة وهم جالسون على مائدة غداء . ثم تشدقوا فى نفس الوقت بالغاء الرق ، واتهموا العرب بالذات ــ دون أمريكا ــ بتجارة الرقيق الأفريقى . والمهم أنهم فى نفس الوقت تماما كانوا يقتسمون أراضى العرب ذاتها أيضا .. أراضى تجار الرقيق !! دخلت فرنسا الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ ومراكش ١٩١٢ ، بينما احتلت أسبانيا شمالى مراكش قبل ذلك .

وكما عقدوا مؤتمر برلين لاقتسام الوليمة الأفريقية . عقدوا مؤتمر بطرسبرج فى روسيا عام ١٩١٦ : أعطوا سوريا والموصل فى شمال العراق إلى فرنسا . وأعطوا جنوب العراق (البصرة وبغداد) وجنوب سوريا (فلسطين والأردن) لبريطانيا وأعطوا وعد بلفور عن فلسطين لليهود . ثم تعاظم الدور الصهيونى تدريجيا ، حتى حل محل بريطانيا وفرنسا فى نفوذهما فى المنطقة طاردا اياهما لحساب أمريكا .



محمد الفاتح



علي بك الكبير

● الذهب الذي حصل عليه العرب استغلوه لخدمة القارة الأفريقية ، أما الأوربيون فقد نقلوا الذهب إلى بلادهم مقابل الخرز الملوّن !

وبعد خروج بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وأسبانيا من المستعمرات الأفريقية التى ذكرناها أصبحت اسرائيل تطمع أن ترث هذا النفوذ كله . بل هى تطوق ذراعيها حول القارة بتحالفها الاستراتيجى مع جنوب أفريقيا ، والذى وصل ــ فيما يبدو ــ الى التعاون الذرى .

ثم بعد كل هذا النهب الاستعمارى يتكلمون عن تجارة الرقيق وأن العرب ــ وهم أفارقة شماليون ــ يتاجرون بالأفارقة الجنوبيين بيعا وشراء ، مما أقلق الضمير الملائكى الزاهد والمتصوف لهذا المستعمر الأوربى !

فرية الرق

لا تعدو أن تكون تهمة الرق التى كرروا نسبتها إلى العرب فرية لا أساس لها فالرق كما مارسه العرب عبر التاريخ كان لصالح الرقيق ، حيث وصل الرقيق هذا لا إلى المساواة بالأسياد ولكن كونوا الطبقة الحاكمة مرات ومرات . فدولة المماليك سواء البحرية أو البرية (البرجية) كانت دولة حكام كلهم كانوا رقيقا . وحكموا مئات السنوات ، وحكموا العرب وهم لا يتكلمون العربية .. وحكموا العرب برضاء العرب . حتى أن ملكا منهم طعن في أنه ليس مملوكا فخلع ، وكانت المملوكية ــ الرق ــ ميزة لا سبة ولا مهانة .

وكثير من ألمع أسماء قادة التاريخ الإسلامى هم أبناء أمة أشتريت بالمال أو غنمت فى الحرب . تذكر منهم ــ كعينة فقط ــ محمد الفاتح وعلى بك الكبير . وكان محمد الفاتح ــ الذي فتح القسطنطينية ــ أدرى الناس بنفسية أخواله السابقين ومدى افترائهم على الاسلام فكان شديد التكبر عليهم لو تعرضوا لأى فرد مسلم : فكان



محمد علي باشا

الفرد العادى إذا جاس خلال مدينة أوربية دقت أجراس الكنائس له احتراما ومهابة ، وخشية أن يلحقه أذى فيؤذيهم محمد الفاتح باجتياح بلادهم .

هؤلاء هم الرقيق عندنا . الرقيق الذين تباكوا عليهم ، وهم يجلسون على مائدة يقتسمون بلاد أفريقيا كلها فى عام ١٨٨٤ ثم على مائدة أخرى عام ١٩١٦ ، ليقتسموا كل بلاد العرب .. تجار الرقيق ..

قارن هذا بأسلوب عمر بن الخطاب الذى كان عنده رقيق وهو يكتب إلى عمرو بن العاص ـ الذى كان عنده رقيق فيقول له عن أقباط مصر ـ وهم على غير دينهما ـ « إن أهل هذه البلاد هم اليوم حلفاؤنا وموالينا . ومن اللازم ألا نطلب منهم المغارم (الضرائب) قبل موسم الحصاد ، وأن يخصص ثلث ما فى بيت المال (مال المسلمين) لإصلاح القناطر والسدود (قناطر وسدود النصارى) حتى لا يكون للناس شكاة . وهكذا سوف يتضاعف الدخل . أما الخلافات الدينية فإن الله سيسويها » .

هكذا قال عمر لعمرو . وكلاهما عنده رقيق . وكان الرقيق يؤاكله ويعيش معه أخا وزوجا وعلى قدم المساواة . وإذا أنجبت الأمة أصبحت حرة . وإذا أراد السيد تقربا من الله اشترى عبدا واعتقه وآخاه .

أما هؤلاء الأدعياء البيض الذين يعبدون المادة فإنهم يقتسمون البلاد والقارات بما فيها من عبيد وأحرار وثروات ثم يبتزون خيرات هذه البلاد بثمن لا يغطى مصاريف الانتاج مما يغرق هذه البلاد جميعا فى ديون سحيقة القرار .

ســـر الفـــرية

كما يوضح لنا خطاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص مدى اختلاف مفهوم الاستعمار



الخديوي اسماعيل



عند العرب عنه عند الغرب ، حيث هو عند الأول تعمير ، وعند الآخرين نهب . يقول عمر لعمرو لا تبهظ الضرائب ، ولا تجمعها إلا بعد تواجد المال لدى الممول ، واترك الخلافات الدينية للزمن . أما عند الغرب فعبادة الدولار والنظرية المادية تعنى الربا ومص دماء الفريسة ، ولو أدى ذلك إلى حروب وخراب اقتصادى وانتشار الثورات والأمراض السرية والفقر .

كما يوضح لنا هذا الخطاب هذه الفروق فى تبسيط كامل ، فان نظرة العرب إلى الرق غير نظرة الرجل الأوروبى . فسقراط نفسه ، وهو مشعل الفكر الأوربى يعتبر الرق ضرورى للحضارة ولكن هذه الضرورة إنما مرجعها إلى أنه « رجل من رصاص » إذا قورن بالرجل النحاسى أو الرجل الذهبى ، أو أنه كالقدمين بالنسبة إلى الجسم ، فالرق تقوم عليه حضارة الرجل الأبيض حيث هو يقوم بالعمل السخرة لصالح الغير .

وحتي عندما مكنت الماكينة ـ فيما بعد ـ الرجل الأبيض من أن تقوم الماكينة بالعمل محل الرقيق استغل الرجل الأبيض طبقة العمال بحيث اعطاهم من الحقوق المحدودة ما أشعل حرب الطبقات . فإذا أدى العلم وانتشار التعليم إلى تقارب طبقة العمال من باقى الطبقات ، انتقل الرجل الأبيض إلى استغلال شعوب المستعمرات ! ولازالت أساليب اسرائيل في الاستيلاء على أرض الغير وهدم منازل أهل الأرض الأصليين واستعمال الحديد والنار علاوة على استنزاف الأموال ، تمثل خلاصة وحصيلة معنى كلمة الاستعمار لدى العقل الغربي .

هذا الفرق بين التعمير العربى وبين الاستعمار الغربى أقل كثيرا من الفرق بين معاملة العرب للرقيق ومعاملة الغرب له . فالرقيق لدى العرب الأفارقة هو الذى أنشأ امبراطورية مالى وامبراطورية سنغهاى ومملكة عمر بن سعيد (المملكة التكولورية) ومملكة بورنو ومملكة سامورى وامبراطورية رابح ومملكة سوكوتو ، بينما الرق لدى الغرب فى نفس هذه الفترة الزمنية هو الذى زرع القطن فى أمريكا مجانا تبعا لنظرية سقراط ، وهو الذى استخرج الماس مجانا للرجل الأبيض فى جنوب أفريقيا واستخرج الذهب فى جوهانسبرج مجانا ، واستخرج النحاس فى روديسيا مجانا . ثم اكتوى بعد ذلك بالتفرقة العنصرية فى أمريكا وفى أفريقيا الجنوبية وفى روديسيا .

وللأسف فإن العرب لا يتقنون عرض قضاياهم فهم لا يتتبعون نقاط ضعف التفرقة العنصرية ولا يفسحون المجال لضحايا التفرقة العنصرية ليبسطوا قضاياهم عبر الأدب العربي ولا في مجالات الإعلام العربي . ويكتفي العرب بمجرد نقل ما تقوله أجهزة الغرب فقط مثل « كوخ العم توم » أو مثل نشرات الأخبار عما يجري في جنوب أفريقيا . ولو فهم العرب العقل الأوروبي كما يجب لجلبوا من هذا الأمر قضية اعلامية وقضية أدبية كبيرة جداً تدين الرجل الأبيض وتشينه وتفضحه .

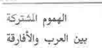
ولو أتقن العرب عرض قضاياهم ، لبينوا للعالم أن العرب هم وحدهم من دون شعوب الأرض كلها الذين كونوا دولاً في أفريقيا لا عن طريق الغزو ولا النهب ولا الاستعباد ولكن عن طريق التجارة . فالتجار العرب هم الذين انشأوا امبراطورية مالي وسنغهاي وعمر بن سعيد وبورنو وساموراي ورابح وسوكوتو أنشأوها عن طريق الأخذ والعطاء والتبادل التجاري الذي لم يعرف الربا ، ولا الديون ولا

العرب وأفريقيا

صناديق النقد الدولي ولا تجارة العملة ، بل وكانوا يتبادلون الرأى والمعرفة الإنسانية ، قبل تبادل السلع !.

وإذا كانوا أثناء تجاراتهم هذه يأخذون « عبيداً » ويبيعونهم فانما كان هؤلاء عند « الأسياد الجدد » يمثلون أخوة وأزواج ، وكثيرون منهم كونوا مراكز لا يحلمون بها في بلادهم . كان كبير ياوران الملك وكل كادر السراي بل وكل حي عابدين ذاته من هؤلاء العبيد . وعندما رفض أهل مصر نداء محمد علي لتقديم بناتهم تلميذات لمدرسة التمريض الأولى في الشرق الأوسط، كانت هؤلاء الجواري السود هن التلميذات الوحيدات لها . وبعد أن تخرجن زوجهن محمد علي من ضباط مصريين وأعطى كل زوجين بيتاً مؤثثا وركوبة ، وامتيازات مادية . أين هذا مما فعلته أمريكا أو جنوب أفريقيا أو رودسيا بأمثالهم ؟!

والتجار العرب الحضارمة هم الذين أنشأوا دولاً اسلامية في جاوة وسومطرة وجزر الهند الشرقية والفلبين . وهي ظاهرة حضارية فذة ، خصوصا إذا قورنت بأفعال شركات التجارة العالمية المعاصرة وما ترتكبه من استغلال ورشوة ونقل لتراث أهل البلاد الأصليين .



الهموم المشتركة بين العرب والأفارقة

هناك تداخل بين المنطقتين أفريقيا والعرب جغرافياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً وهناك معاناة مشتركة لبقايا التمييز العنصري . وإذا لم يبرز هذا التمييز في الحياة اليومية فانه يبرز عند التعامل السياسي .وهناك معاناة مشتركة في حركة التمرد من الاستعمار سواء كان استعماراً قديما وكان المستعمر في بلاد العرب هو نفسه المستعمر في أفريقيا ، أو كان استعماراً اقتصادياً حديثاً ، ومرة أخرى نفس المستعمر هنا هو نفس المستعمر هناك .

وهناك قضية مشتركة بينهما الآن ، هي أن النظام الاقتصادي العالمي المعاصر ظالم لكليهما ، وأن الحوار الذي تم بين الشمال والجنوب لم يؤد إلى شيء وأن كليهما يشعر أنه لامندوحة له عن نظام اقتصادي عالمي جديد قائم على العدل وعلى الروحانيات والأخلاقيات ويحتفظ بالانسانية في تعاملاته . وهو شعور عميق لدى الطرفين ، يفتقده تماماً الرجل الأوروبي الذي اعتبر المنفعة هي كل فلسفته وهي معبوده .



ابن رشد



• القوانين الإسرائيلية ضد العرب متطابقة تماماً مع قوانين التمييز العنصري في أفريقيا

وهناك أخيراً العامل المشترك الاقتصادي بينهما ، وهو أن كليهما ينتج لمواد خام يأخذها العالم الغربي بما يكاد يكون مجاناً ، بينما يصدر إليهما صناعاته وأغلبها كماليات غالية الثمن بشكل مبالغ فيه ، وبذلك يرفع مستوى عمال الغرب ويعالج بطالتهم بينما يتضور المنتج الأفريقي والعربي أو يغرق في الديون والتخلف والتبعية .

وقد تمثلت مأساة العرب في فلسطين وتمثلت مأساة الأفارقة في التمييز العنصري وكلا القضيتين يكاد يكون المتهم فيهما واحد أو من عائلة واحدة . وكانت الاستجابة العاطفية والنفسية في كليهما متطابقة مع الأخرى .

وهناك تطابق نفسي شديد بين العرب والأفارقة : فالعرب عرفوا الصحراء التي ليس لها مالك وانما هي مشاعة للجميع وعرفوا الرعي مشاعاً



سقراط

للجميع . كما عرف الافارقة أيضاً الغابة مشاعة للجميع ولا يدعي أحد ملكية خاصة . ومع ذلك فكلاهما وصل إلى نظرة انسانية ودستور أخوي قبائلي ولم يخلصوا إلى النظريات المادية السائدة رغم ممارستهما للمساواة الحقيقية بطريقة انسانية خاصة بكليهما . وهذا يجزم بالتمايز الكامل بين العقلية العربية والأفريقية وبين العقلية الأوربية أو الغربية . تميزاً مبنياً على الطابع الأخوي والعائلي والانساني والاجتماعي لدى العرب والأفارقة وبالطابع المادى النفعي التقاتلي لدى الغرب .

وفي باب التمايز الخلقى بين العرب الأفارق وبين الغرب نلاحظ تأثير الذهب على كل منهما . فالتجار العرب كانوا يذهبون إلى أفريقيا بحثاً عن الذهب . بل إن محمد على باشا أعلن أن أحد أهدافه من غزو السودان كان الحصول على الذهب . ولكن يلاحظ أن التجار العرب هؤلاء وأن محمد علي هذا انفق الذهب داخل أفريقيا ذاتها ولصالح تمدينها بينما الرجل الأبيض ذهب إلى أفريقيا بدعوى تمدينها ونقل منها ــ ولا يزال إلى هذه اللحظة ــ ذهبها إلى بنوكه . لقد ظل محمد علي وأحفاده ينفقون على كشف منابع النيل وانشاء المدن الحديثة واقامة المستشفيات وفتح المدارس واقامة القانون والعدالة في وقت كان تجار أوربا المرابون يقايضون على سن الفيل بالخرز الملون .

وحتى الأوربي الذي كان يستخدمه محمد علي أو اسماعيل في عملية التنوير والتمدن هذه كان يتشرب روح سيده ويختلف تماماً عن الأوربي الذي يعمل لصالح الامبريالية . نذكر كمثال في هذا الصدد الدكتور أمين باشا حاكم خط الاستواء أيام الثورة المهدية وقد انقطع عنه كل مدد من الشمال .. من مصر . هذا الطبيب كان اسمه الأصلي شفيتزر فاسلم وسمى نفسه أمين . وتزوج من زنجية من أهل البلاد (فريدة) وأنجب منها بنتاً


ابن خلدون


سنجور

وظل ١٣ سنة محتفظاً بعلم مصر مرفوعاً على بحيرة فكتوريا حيث انشأ اسطولاً للملاحة عبر شطآنها وزرع القطن وغزله في مصانع خاصة انشأها في قلب القارة المظلمة في وقت لم تكن مصانع لانكشير قد أنشئت بعد . وطوال هذه الثلاثة عشر عاماً كان يصدر أوراقاً نقدية باسم خديوي مصر ويتداولها الرعايا هناك بكل ثقة واطمئنان .

هل هناك مثال أوضح من هذا عن تقارب العقلية العربية من العقلية الأفريقية وامكانيات تعايشهما معاً في أحلك الساعات ؟ فرغم نشوب ثورة أفريقية هي ثورة المهدي ظل هذا المجتمع معززاً مكرماً تحيط به الثورة من كل اتجاه دون أن تمس شعرة في رأس أحد أفراد هذا المجتمع . هل كان هذا ممكناً لمجتمع أوربي تحيط به ثورة أفريقية دينية متحمسة ؟

نظرية سنجور عن التطابق العربي الأفريقي

في محاضرة للرئيس السابق سنجور بجامعة القاهرة أمام عبد الناصر قال سنجور إن هناك تطابقاً وتعايشاً بين الزنجية والعروبة . وعلل ذلك بأن أفريقيا كانت مهد الانسانية منذ العصر الحجري ثم قال إن أفريقيا فيها جنسان أبيض وأسود ، الأول كون البربر في شمال أفريقيا والآخر كون زنوج الوسط . ولكن كلاهما أفريقي وكلاهما متمازج مع الآخر كابنين لجنس واحد وأن هذا التمازج انتشر بعد ذلك خارج أفريقيا . وذكر أن هناك تلاقياً لغوياً وفكرياً بين اللغات العربية وكل اللغات الأفريقية وان مفكري العرب لعبوا دور الوسيط بين العقل الأوربي والعقل الأفريقي ، وزيادة على دور الوسيط هناك دور الرائد أيضاً كدور ابن خلدون الأفريقي في الفكر المادي ودور ابن رشد في اللاهوت والفلسفة .

ولكن أهم ما قاله سنجور إن العامل الموحد بين العرب والأفارقة هو اللغة العربية والاسلام بطابعهما الذي يصنع الوحدة ولا يفرق . وهذا واضح في مقارنة مع الغزو الأوربي فتعدد اللغات الأوربية وتعدد الكنائس وتعدد المعتقدات والطقوس الدينية تختلف تماماً عن الطابع الواحد والموحد للعروبة وللاسلام .

● تستهلك أفريقيا من البترول تقدمه الدول العربية ، ومع ذلك فالغرب هو الفائز بالثروة والنفوذ في القارة الأفريقية

الانتاج الذهنى الأفريقى باللغة العربية

اللغات المحلية الأفريقية كانت حتى أعوام قليلة مضت تكتب بالحروف العربية ، وكثير من المعاهدات بين فرنسا والدول الأفريقية كتبت باللغتين العربية والفرنسية . واللغة السواحلية لغة فيها من الألفاظ العربية مفردات كثيرة جدا .

والطرق الصوفية العربية وخاصة التابعة للشمال الافريقي موجودة فى كل قرية افريقية ، وكتب التفسير مثل الجلالين والبيضاوى والبخارى ومسلم وكتب الفقه والتصوف تأتى على رأس قائمة التصدير بين العرب والأفارقة . والأدب الدينى والخطابة على المنابر والانطلاقات الصوفية كلها ذات روح عربية متحمسة للعروبة أكثر من حماسة العرب أنفسهم .

وفى الانتاج الأدبى كالشعر والقصص يغلب فن الصياغة والأسلوب على الأفكار متأثرين فى ذلك بالمنهج العربى القديم .

ولازال الأزهر يمثل لأبناء « البلاد الأفريقية » نوراً وناراً يريد كل أفريقى أن يأخذ منها قبسا .

العلاقات الاقتصادية بين العرب والأفارقة

هناك حاليا منظمات عربية لانماء الاقتصاد الأفريقي : الصندوق الكويتى وصندوق أبى ظبى . الصندوق السعودى . المصرف الليبى . البنك العربى الدولى ، البنك العربى للتنمية ، الصندوق العربى للقروض ، الصندوق العربى للتعاون الفنى ، البنك الاسلامى للتنمية ، بنك التنمية الأفريقي .

وتقدم الدول العربية البترولية تسهيلات بترولية وقروضا تساوى ثلثى ما تستهلكه الدول الأفريقية (عدا جنوب أفريقيا) وتقدم الثلث الباقى بقية الدول ولكن فيها ايران وفنزويلا ، ومن هنا نرى أن العرب يساهمون فى أفريقيا مساهمة أساسية وفعالة .

ومع ذلك فإن الحصاد السياسى أقل كثيرا جدا من البذور الموضوعة .

التوجه السياسى الأفريقى

حتى عصر محمد على كانت أفريقيا الوسطى مجهولة من كتب الجغرافيا كلها ، وظلت تسمى هذه المناطق « بالمجاهل الأفريقية » أو القارة المظلمة أو القارة السوداء وذلك حتى فى الكتب المدرسية الجغرافية .

فمنابع النيل نفسها لم تكتشف إلا فى عصر محمد على واسماعيل وسميت اسماء البحيرات كلها

العـرب وأفريقيـا

باسماء المكتشفين الأجانب وكأنه لم يكن لها اسم أفريقي قبل ذلك .

ولقد كان دخول الاستعمار البريطاني إلى مصر عام ١٨٨٢ هو بدء المشروع البريطاني للسيطرة على القارة ، حيث تغلغل إلى السودان ثم الوسط الأفريقي ، وكانت بريطانيا متواجدة في جنوب أفريقيا وأزمعت انشاء أمبراطورية بريطانية في أفريقيا وكان العمود الفقرى لهذه الأمبراطورية المستهدف هو خط حديد القاهرة الكاب .

ولكن ..

خلال الحرب العالمية الأولى قال الإمبراطور الألماني غليوم : ويل للمغلوب . وفعلا لما غلبت ألمانيا في الحرب الأولى خلعت خلعا من أفريقيا وطردت من مستعمراتها الأفريقية .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد خرجت بريطانيا وفرنسا أيضا من أفريقيا . هل كانتا مغلوبتين في هذه الحرب أمام المنتصر الحقيقي وهو روسيا وأمريكا أم ياترى يجب أن نصحح مقولة غليوم ونقول : ويل للغالب والمغلوب معا ؟

المهم أنه بعد خروج أوروبا من أفريقيا أصبح المسرح الأفريقي من الوجهة السياسية مسرحا بين أمريكا وروسيا مع غياب واضح للدور العربي رغم علاقاته اللغوية والعرقية والمالية ، ليس هذا فقط ولكن أفريقيا تعاني حاليا من الاستيطان الاسرائيلي كما يعاني العرب من الأمر نفسه . واستيطان اسرائيل في أفريقيا يتم عن طريق التجارة ومشاريع البناء وأيضا عن طريق خبراء السلاح وحرس أو بطانة بعض الحكام . فهو استيطان فعال دون حاجة إلى أفراد ولا أعداد من السكان هم من الأصل قليلون عند بني اسرائيل .



مازال المواطنون الأفريقيون يكتوون بنار الاستغلال الغربي لكل خيرات بلادهم

بين التمييز العنصرى والاستيطان الاسرائيلي

إن أى مقارنة ولو سريعة بين قوانين الاستيطان الاسرائيلي وبين قوانين التمييز العنصرى الذى يمارس ضد الأفارقة تعطى انطباعا وكأن الاثنين هما توأمان أو ابنان لأب واحد أو رضعا من ثدى واحد ..

فى اسرائيل : قوانين الاستيطان : قانون استملاك الأراضي وقانون أملاك الغائب وهي تصادر ودون تعويض أملاك أي رعية من لبنان أو مصر أو سوريا أو السعودية أو الأردن أو العراق أو اليمن ، وتصادر أملاك أي شخص فلسطيني يقيم بهذه الدول وكل شركة نصف اعضائها أو نصف رأسمالها في الخارج تصادر وتشمل كلمة الملك الأرض والنقود والمنازل والتجارة .

ثم قانون التصرف : وهو أنه إذا لم يتصرف صاحب الملك تصرفا فعليا بنفسه وبيده وكانت الحكومة محتاجة إلى ملكه للتوطين صادرت ملكه هذا بدون تعويض .

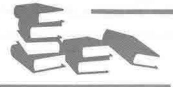
وفى جنوب أفريقيا قوانين التمييز العنصري : يقصر حق المواطنة على المنحدر من أصل أوربي أما أصحاب البلاد الأصليون فمحرومون بحكم القانون والعرف من تولى أي مركز أدارى ولو فى الأحياء الشعبية . وقانون مقاومة الشيوعية يعطى وزير العدل سلطة اقصاء أي شخص من ملكه ومن منطقته ويعطى الحق باقصاء القبيلة بأكملها لمعاقبة فرد فيها وذلك بدون محاكمة . وهناك أيضا قانون التوفيق الذي يحرم الأفارقة أصحاب الأرض الأصليين من ممارسة قوانين الصلح والتحكيم والتوفيق .

والهدف فى قوانين اسرائيل وقوانين التمييز العنصرى هو أن « يظلوا أسيادا » على العرب وعلى الأفارقة .. وأن الاستعمار قد تحول عند اسرائيل وعند جنوب أفريقيا إلى استحمار ثم إلى ابادة .

وفى المستقبل سوف يجد العرب ويجد الأفارقة انهما فى بوتقة واحدة وأنهما يواجهها إبادة واحدة وأن معركتهما سوف تكون واحدة وليست مجرد حركة تحرر وطنى هذه المرة ، إنها معركة إفناء كاملة .

إن الأصل المشترك بين العرب وبين الأفارقة والامتزاج الحضارى والذهنى بينهما خلال الأربعة عشر قرنا والتداخلات السياسية والثقافية بين العنصرين ، تحتم عليهما أن يوحدا صفهما الآن فى مواجهة هجمة نهائية مشتركة ضدهما تديرها الآن الصهيونية والعنصرية وبالأسلحة الذرية . ولكن هيهات أن تبيد مغولية جديدة حضارات إنسانية أصيلة لها تاريخ وجذور .

السيد فهمى الشناوى



بقلم : الدكتور محمد البهي

الكتاب المصدّق

• يقول الله تعالى في سورة الأحقاف :

« ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق ، لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا ، وبشرى للمحسنين » الأحقاف : ١٢)

• يذكر القرآن في بيان حجتيه ، وأنه من عند الله : بأن سبقه كتاب موسى عليه السلام — وهو التوراة — كشريعة ورحمة للمؤمنين ، أرسل به من قبل ربه . وما جاء في القرآن هو على نحو ما في كتاب موسى . فهو شريعة كذلك ، ورحمة للمؤمنين به . ولذا فهو مصدق له ، ولكنه بلسان عربي .

وكتاب موسى كان معروفا وسبق الايمان به . فإذا كان القرآن مساويا لما نزل فيه فليست هنا موانع تقف في طريق الايمان به كذلك ، إلا إذا كانت موانع من : حرص على جاه أو زعامة ، أو من تأثر بتقاليد . وهذه موانع خارجة عن موضوعه .

وتوافق القرآن مع التوراة في تفصيل رسالة الله ، كنظام لحياة الانسان ومنهج يسير عليه الانسان في سلوكه وفي علاقته بالآخرين ، إن كان حجة لصحة نزول القرآن والوحي به ، كما تهدف الآية ، فلا يتبغى أن يتخذ سبيلا — كما يروجه كثير من المستشرقين — لادعاء : أنه لهذا التوافق : من تأليف الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، تأثر فيه بما لليهود من كتاب . إذ أن القرآن في الوقت الذي يؤيد فيه ما نزل في التوراة ، رسالة موسى ، يكشف أيضا عما اختلف اليهود فيه من هذه الرسالة بما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه من أقوالها : « إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل : ٧٦) . وهو لهذا معيار لرسالة الله في ذاتها .

ولو أنه كان مؤلفا خاصا للرسول عليه الصلاة والسلام — كما يروجه هؤلاء المستشرقون — متأثرا فيه بما لليهود من دين ، لما كان فاصلا بين الحق في ذاته ، وهو ما في التوراة كرسالة الله على عهدي موسى .. وباطل بني اسرائيل ، وهو ما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه واختلفوا فيه عن هذه الرسالة .

وكون القرآن مصدقا لكتاب موسى ، ثم حاكيا لما اختلف فيه بنو اسرائيل ، دليل صدقه هو فيما جاء به من عند الله . إذ كيف يتسنى للرسول عليه الصلاة والسلام — كمؤلف للقرآن : حسب إدعاء هؤلاء المستشرقين ، وادعاء السابقين من أهل الكتاب — أن يفصل في تراث اليهود الديني بين ما هو من قبل الله جاء به موسى ، وما صنعوه هم : إمالة برسالة الله إلى تمييز عنصرى لهم ، أو إلى تبرير مواقفهم من الأنبياء بعد موسى ، أو مواقف كبرائهم من ضعفائهم : في إخراج بعضهم بعضا من ديارهم وحل سفك الدماء في سبيل الابقاء على زعامات خاصة ؟

• ومهمة القرآن — بعد كونه مصدقا لما سبقه من كتاب — هي مهمة الرسالة الالهية في كل عهد : أن ينذر به الرسول صلى الله عليه وسلم : الظالمين لأنفسهم برفضهم قبوله ، ويبشر به المحسنين لأنفسهم وفي سلوكهم الانساني على العموم الذي آمنوا به .. ينذر الظالمين بسوء جزائهم في الدنيا والآخرة . ويبشر المحسنين المؤمنين بحسن جزائهم في الدارين معا ، كذلك .

فالظالمون الذين يعارضون قبول الايمان بالقرآن هم أولئك الذين وقعوا — أو يقعون — تحت طغيان « المادية » في حياتهم . ويخشون بالايمان به فوات جاه مادى ، هو جاه الزعامة والرياسة ، أو فوات متعة مادية ، هي متعة ترفهم على حساب حرمان الضعفاء فيهم وشقائهم . فالقرآن : كل دعوته تتمثل في العدل في المبادلة والمعاملة ، وفي الاحسان في الاعطاء أكثر من الأخذ . والعدل يشكل موازنة لاغبن فيها . والاحسان يعطى الدليل على انسانية المحسن في سلوكه مع الآخرين . وفي قبول دعوة القرآن تنازل عن الرياسات والزعامات التى تحصل لأصحاب الرياسة والزعامة : متعا مادية وترفا ماديا ، على حساب الآخرين .

وقد جاء في العهد الذي أخذه الله على بنى اسرائيل ، أن طلب إليهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة ، فيما تذكره الآية :

« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون» (البقرة : ٤٥ ، ٤٦) .. طلب إليهم أن يستعينوا بالصبر في عودتهم إلى الايمان . لأن انتقالهم من وضعهم المادى في الرياسة والمبالغة في الاستمتاع بالمتع المادية .. إلى الايمان بالاعتدال في الاستمتاع بالدنيا وزينتها وعدم الاسراف في طيباتها — وهو نتيجة الايمان بالله — ليس من السهل أن تتحمله النفس البشرية العادية . ولذا لابد من فضيلة الصبر على ذلك .. كما طلب إليهم — في هذه الآية كذلك — أن يستعينوا بالصلاة في هذا الانتقال ، لما في الصلاة من اتصال مباشر بالله ، وبعد عن طغيان المادية .

وفي الوقت الذي يطلب القرآن إليهم الاستعانة بالصلاة .. يحكم على : أنها لكبيرة ، وعظيمة شاقة بالنسبة لأصحاب الرياسات ، لأنها دليل التحول بالفعل من المادية إلى الروحية . وهذا أمر يشق عليهم . أما الخاشعون الضعفاء فيهم ، الذين لا تسيطر المادية عليهم فلا ينكرون اليوم الآخر ، ويظنون أنهم مع ذلك ملاقوا ربهم ، فلا تكبر عليهم الصلاة ولا تشق عليهم . إذ تحولهم من وضعهم السابق .. إلى الوضع الجديد في الايمان بالله ، أيسر من تحول المستكبرين فيهم . لأنهم قد لا يخسرون ماديا شيئا وان هم خسروا شيئا ، فقليل ما يخسرون .

فهؤلاء الظالمون يكون القرآن انذارا لهم بسقوط مجتمعاتهم ، أو بالانتقام منهم عن طريق الحاقدين عليهم فيها ، ثم بعقاب الله لهم في آخرتهم . ومن أجل هذا الجزاء الأليم في دنياهم ، وفي آخرتهم .. يتضح ظلمهم لأنفسهم .

أما المحسنون فالقرآن بشرى لهم ، بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في دنياهم وفي آخرتهم على السواء . لأنهم لم يصنعوا سوءا ، يضمر لهم غيرهم العداء بسببه في دنياهم . ثم يجازيهم الله عليه في لقائهم معه في الآخرة جلت قدرته ، لأنهم أحسنوا أي أعطوا أكثر مما أخذوا . وبذلك كانوا يؤثرون غيرهم على أنفسهم . فلهم حسن السمعة في الدنيا ، ورضاء الله في الآخرة .

أول روايـــــة عربيّـــة تســـبق الروايـــة الغربيّـــة

بقلم : أحــمد محمد عطيــة

يــدعــونـــا واجب العمل القــومـــى ، مــن أجل تــأصيل ثقــافتنــا العربيــة الحــديثـة لمراجعة كثـير مـن المسلمـات التـى نقلنـاهـا عـن الغرب ، وثبـتـهـا الغزو الثقـــاف الغربــــى فى كل المجـــالات وبـــالأخص فى مجـــال الأدب والفن ..

فقد ألفنا على نسبة الفن الروائى إلى الغرب ، ونقلناه عنه ، وجعلنا الرواية الغربية مثالا يحتذى ويقتدى به وفقا للمقاييس والأشكال الغربية وقلنا بأسبقيتها وريادتها .. وذلك نظرا لقوة الغزو الحضارى الأوروبى ، وللتعتيم الاعلامى الغربى المفروض على الثقافات والفنون والآداب فى أنحاء العالم الأخرى .. وما استهدفه الغزو الفكرى الاستعمارى من محو تراثنا والحط من شأنه ، وغسل عقولنا وقولبتها لصالحه ، إتماما لاستلابنا وتبعيتنا له ، مما يحتم علينا مراجعة تلك المسلمات الغربية والعودة إلى الينابيع الروائية والقصصية والفنية فى تراثنا ، لدراستها وبعثها واستلهامها ، من أجل إبداع رواية عربية أصيلة ومتميزة بالخصائص العربية ومعبرة عن الوجدان العربى والقيم العربية والشخصية العربية .

فإذا كانت الرواية الأوروبية قد نشأت فى القرن الثانى عشر وازدهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فإن الرواية اليابانية ، مثلا ، سبقتها إلى الظهور فى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر . وتذكر الكاتبة الغربية « ديانا سبيرمان » فى دراستها عن بزوغ الرواية فى الشرق الأقصى ترجمة عبد الواحد محمد أن « قصة جنجى » التى كتبتها سيدة البلاط اليابانية « موراسكى » فى ذلك الوقت المبكر . « تمثل ماتعنيه بالضبط بكلمة رواية » وأنها « لم تكن من النوع الذى يتوقعه كل من ألف الأدب الأوروبى » وأضافت الباحثة الغربية قائلة عن كتاب « قصة جنجى » « انه مع ابتعاده حقا عن العديد من العناصر التى نعدها دائما هنا فى الغرب كعناصر ضرورية ، فإن هذا الكتاب يحتفظ فى نصه المترجم لابطاقة خلق الاثارة وحدها بل بطاقة خلق الانفعال الزاهى زهاء الانفعال الذى تحدثه الروايات الأوربية » (مجلة « آفاق عربية » عدد ايلول تشرين ١٩٨٣) .

الرواية الشرقية

وتلاحظ هذه الباحثة الغربية « أن الأدب القصصى النثرى فى اليابان كان يتبع مسارا مضادا بالضبط لمسار نظيره الأوروبى .. قبل أن يأتيه التغيير بفعل التأثيرات الأوربية ، بل ان الصينيين لم يعدوا الروايات أدبا أبدا إلا حين تحولوا كلية صوب الأفكار الغربية . بالرغم من قدم الفن القصصى الصينى وأسبقية الرواية الصينية فى الظهور فى القرن السادس عشر .

وقد تخلقت الرواية الصينية من ربط مسلسلات المغامرات الأسطورية الصينية وتطورت فى طريق ابداع رواية مختلفة الشكل عن الرواية الغربية ، وتميزت ببراعة رسم الشخصيات ، سابقة بذلك نظيرتها الأوروبية . مثلما سبقت الرواية اليابانية مثيلتها الأوربية فى الاهتمام بالزمن . فكما تقول « ديانا » ان سينكلر وا .م فورستر ونورثروب فراى يعدون الاهتمام بالزمن ميزة خاصة بالرواية تتميز بها جميع أشكال الأدب الاخرى . وهذا الاهتمام بالزمن هو ماكتشفه أحد مؤرخى الأدب اليابانى على الأقل فى قصة جنجى » .

وهذا يؤكد أسبقية الرواية فى الشرق على الرواية فى الغرب وتميزها بأشكال خاصة بها تغاير الشكل الغربى . لذا ، فمن الطبيعى أن رواية الشرق الأقصى لاتشبه الرواية الأوربية .. لأن خلفية رواية الشرق الأقصى الاجتماعية لاتشبه كليا خلفية الرواية فى انجلترا القرن الثامن عشر ، ومن هنا فالقول بضرورة الربط بين نشوء الرواية وبزوغ الطبقة الوسطى لايصح بخصوص الرواية فى كل مكان لاختلاف ظروف النشأة والمجتمع والثقافة

● لمــاذا لانعـــــودإلى الينــابيــع الروائيـــة والقصصيــة والفنيـــة فى تـــــراثنـــــــا لبعثهاواستلهامهــا؟

ولأن «التاريخ الصيني يختلف جدا عن التاريخ الأوروبي ، كذلك الحال في موقع التجار والكسبة وشخصيات الطبقة الوسطى الأخرى في الصين ،

فلا يبدو هناك أي سبب يدعو لإنتاج أدبي شبيه بنظيره الأوروبي ... فابتكار الرواية في اليابان لم يرتبط بأي حال بنمو طبقة جديدة وإنما ارتبط باضمحلال طبقة قديمة ، وليس هناك من دليل على أن أياً من الكتاب أوقراء الرواية الصينية الأولى كان ينتمي إلى طبقة جديدة» .

لكل حضارة أشكالها

وهكذا فلكل حضارة تراثها وأشكالها وثقافتها الخاصة المتميزة وان هذا التميز هو الطريق الصحيح لتأصيل الابداع العربي والرواية العربية وتجديدهما أيضا . ومن ثم فإن استبعاد الأصول القصصية والروائية العربية اعتماداً على أسس ومقاييس غربية كان عملا تعسفياً من قبيل الخضوع للغزو الفكري الغربي . ولهذا كثيرا ما نجد بعض الباحثين العرب والأجانب يستبعدون الفن القصصي والروائي من التراث العربي قياسا على أشكال غربية ومفاهيم غربية ، غير منتبهين إلى أصالة الشكل القصصي العربي وتميزه وتفرده عن سواه من الأشكال القصصية الأخرى في العالم

وقد تطور الشكل الروائي ، واتسعت مفاهيم الرواية في الأدب العالمي ، إلى حد نفى أسسها المتعارف عليها في الفن الروائي ، من استبعاد الشخصية البطولية ، واختفاء الأبطال ، وتقطيع الزمن والمكان ، وتفتيت الشخصيات ، وتقليص دور الراوي والسرد ، والتركيز على الأشياء دون البشر ، والاكتفاء بالمشاهد المتحركة والمتداخلة .. إلى غير ذلك من التطورات المتلاحقة في المعمار الروائي ، المصاحبة لتطور الفن الروائي ، وانعكاس التطور الاجتماعي والتقدم العلمي والقيم ومشاكل الحضارة على صفحات الرواية العالمية الحديثة وبنيتها ، التي تنوعت حسب ظروف كل حضارة من الصين وروسيا إلى أمريكا اللاتينية ... بحيث لا يمكن وضع تعريف جامع مانع لفن الرواية ينطبق على كل الروايات . كما أن مقدمات الرواية الغربية ، في القصص والحكايات والملاحم ، تجد مثيلاً لها في التراث القصصي العربي .

وقد عرف العرب الفن الروائي والفن القصصي ، وقدموا إبداعات ثرية وأصيلة ومتميزة في هذا المجال سبقت الفنون الروائية والقصصية الغربية وأثرت فيها . ويكفينا هنا ــ حسبما يسمح المجال ــ ذكر تأثير عمل قصصي وروائي عربي واحد كألف ليلة وليلة في الرواية الغربية ، وهو



عنترة بن شداد



أبو العلاء المعري

تأثير عميق وشامل تجاوز حد التأثير إلى النقل والاقتباس ، وامتد من البنية القصصية والروائية إلى الجو العام ، والقيم والشخصيات ، والأساطير والرموز ، وهذا يدلنا على أصالة فن القصة العربية وصلاحيته للتطور والتقدم ، وتغذية الفن الروائي الحديث ، بالرغم من اختلاف الأشكال القصصية والروائية ، بين القديم والحديث ، وبين العربي والغربي .

أصالة القصة العربية

ولا ترجع أصالة الفن القصصي العربي إلى «ألف ليلة وليلة» وحدها ولكنها تنهض على تراث قصصي عظيم ، بدءاً من الأدب النثري والقصصي المعبر عن معارك «أيام العرب» في الجاهلية ، ومروراً بقصص الجاهلية اليمنية ، والقصص القرآنية والاسلامية ، إلى سير «عنترة بن شداد» و «سيف بن ذي يزن» و «بني هلال» ، ومقامات الهمذاني والحريري ، والقصص الفلسفية في «رسالة الغفران» للمعري ، و «قصة حي بن يقظان» لابن طفيل (التي اقتبس منها الروائي الانجليزي دانيال ديفو روايته الشهيرة «روبنسن كروزو») ، وقصص التجار العرب وسواها من القصص والروايات العربية ، مع الكثير من كتب الأدب والتاريخ العربية ذات الصياغة القصصية رغم طابعها الشعري أو الاخباري أو التاريخي ، والتي تشكل جانباً كبيراً من التراث العربي ، مثل أخبار ابن دريد والأغاني للأصفهاني ...

وليس أدل على صلاحية هذه الأشكال التراثية العربية للاحياء في الفن الروائي الحديث من تجربتي الأديب الأرجنتيني «جورج لويس بورجيس» والروائي الأمريكي «مايكل كريتون» ، فقد ابتكر بورجيس جنساً أدبياً طليقاً أطلق عليه اسم Fiction وهو يجمع بين القصة والمقالة ، أو بالأحرى يقوم بعملية دمج بين القصة والخبر ، أو بين الأدب والتاريخ ، وأحب أن أزعم أن أسس الأداء الفني في هذا الجنس الأدبي قد استفادت من تجربة القصة في التراث العربي .. ولهذا فمادة القصة لديه كثيراً ما تعتمد على مصادر عربية واسلامية ، وقد كانت «ألف ليلة وليلة» وكتب الأخبار العربية وكتب التاريخ الاسلامي من المصادر الأثيرة لديه .. ، كما كتب الناقد السوري خلدون الشمعة في بحثه الممتع «بورجيس وفن الخبر العربي» (المنشور بالعدد الممتاز من مجلة المعرفة ، السورية عن تأثير الأدب العربي في الآداب الأجنبية ــ كانون الثاني ــ شباط ١٩٧٨) وأثبت خلدون الشمعة ، في هذا البحث ، أن كتاب بورجيس «الكائنات الخيالية» هو مجموعة من القصص والحوادث المقتطفة من التراث العربي الإسلامي ، في الطبري وألف ليلة وليلة ومن كتاب «منطق الطير» للشيخ المتصوف فريد الدين العطار .

أما الروائي الأمريكي «ما يكل كرايتون» فقد استلهم ، في روايته «أكلة الموتى» (ترجمتها تيسير كامل ونشرت في روايات الهلال عدد مايو ١٩٨٥) ، مخطوطة العالم الرحالة العربي ابن فضلان ، المكتوبة في أوائل القرن العاشر الميلادي (بين ٩٢٤ ــ ٩٢٦) عن رحلته إلى بلاد الشمال الأوروبي ، تركيا وروسيا وبلغاريا واسكندنافيا ، وقد اعترف الكاتب الأمريكي مايكل كرايتون بتميز أسلوب ابن فضلان قائلا : «قد يبدو أسلوبه في تدوين مشاهداته ذاتياً بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروي لنا قصة كما تعودنا أن نسمع القصص .. ولكن ابن فضلان كان كاتباً ، ولم يكن هدفه الرئيسي التسلية ...» (الترجمة العربية ص ١٦) وقد حققت هذه الرواية الأمريكية العربية الأصل أعلى أرقام التوزيع في أوربا والولايات المتحدة ، كما ذكر مصطفى نبيل في مقاله بمجلة

المصور «أكلة الموتى ــ أول تقرير ديبلوماسي يكتبه عالم مسلم من ١٠٠٠ عام .» (المصور عدد ٢٤ مايو ١٩٨٥).

كتاب التيجان

وهذا كتاب «التيجان في ملوك حمير»، وهو عمل قصصي كبير وقد يتضمن أول رواية عربية كاملة ومتميزة في التاريخ، سبقت الرواية الغربية. فهو «كتاب فني يسجل ميلاد فجر القصة العربية، وطريقة روايتها»، كما كتب الشاعر اليمني الكبير الدكتور عبدالعزيز المقالح في تقديمه للطبعة الثانية من الكتاب التي أصدرها مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في صنعاء عام ١٩٧٩. (ص ٨) ويوضح المقالح أهمية الكتاب الأدبية والفنية ومدى تأثره به قائلاً: «قرأته هذه المرة بعين الشاعر لا بعقل الباحث أو المؤرخ، وقد أدهشني حقاً وحملني إلى عوالم من الخيال والأساطير تتضاءل أمامها تلك الأفلام الغربية المدهشة التي تمطرنا بها استديوهات هوليوود..» (ص ٦) ويضيف الباحث والناقد اليمني د. عبدالعزيز المقالح: «أن كتاب التيجان يجمع بين الحادثة التاريخية والقصص الديني، وبين الخرافة والأسطورة..» (ص ٧).

أما فاروق خورشيد فقد وصفه، (في كتابه «في الرواية العربية عصر التجميع» وهو من مراجعنا الرئيسية في هذه الدراسة، الطبعة الثانية ص ٥٥) بأنه «المنبع الأول لما عرف العرب من أساطير حول نشأة الكون وقصص مبدأ العالم وظهور اللغات ونشأة اللغة العربية..» وأضاف فاروق خورشيد قائلا إن «كتاب التيجان لوهب بن منبه.. وهدف أصحابه إلى الامتاع من ناحية واشباع حاجة العرب إلى أبطال يحوون جماع فضائلهم الحربية والنفسية.. كما هدف أصحابه أيضاً إلى ابراز المضامين الدرامية التي حوتها حياة العرب وعاشوا في إسارها.. وهي بهذا كله قد جمعت تراثاً فنياً عربياً زاخراً استمد منه العرب في مختلف أطوار حياتهم الروائية المتأخرة، ويستمدون منه بعد ذلك في كل أعمالهم، فآثاره تظهر في الأعمال الروائية المتأخرة، مما يدل على اطلاع أصحاب الروايات المتأخرة التأليف على أعمالهم وتقديرهم لها وتأثرهم بها..» (ص ٢٠٦).

وكتاب «التيجان في ملوك حمير» أبدعه الأديب العربي القديم «وهب بن منبه» (المتوفى سنة ١١٠ هجرية) ورواه أبو محمد عبدالملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٣٤٧ هجرية بمطبعة مجلس إدارة المعارف العثمانية في الهند ببلدة حيدر آباد. وقد تم العثور على النسخة الأصلية في صنعاء، وهي نسخة قديمة يبلغ عمرها خمسمائة عام تقريباً، فقد انتهى من كتابتها، في يوم السبت ٢٦ من شهر رجب سنة ١٠٣٤ هجرية، وكتبها بخط يده مطهر بن عبدالرحمن بن المطهر بن الامام شرف الدين، وهو سجين بسجن قصر صنعاء اليمن المسمى بالدار الحمراء، وكان قد مضى عليه في السجن ــ كما يقول في خاتمة النسخة الأصلية ــ سبع سنوات وخمسة أشهر.. (ص ٥٠٠) أي أن تدوين الكتاب تم في عصر لاحق للروايات.

ووهب بن منبه أديب عربي مبدع ومثقف، لذا سمي بفقيه اليمن، إذ كان يعرف عدة لغات كالعبرية والسريالية والآرامية والحميرية، وقد ألف عدة كتب أشهرها وأهمها كتاب «التيجان..» الذي يجمع بين الثقافة والفن والابداع. فقد اعتمد وهب بن منبه، في كتابه الذي يروي قصص ملوك حمير على قراءات وروايات متعددة لقصص وأخبار العرب من الجاهلية إلى الاسلام. فهو تجميع وابداع وصياغة لقصص وكتب وروايات عربية قديمة وأصيلة ومتميزة. ولا شك أن الرواة الذين تناقلوا محتويات الكتاب قد أضافوا الكثير إلى كلمات وهب بن منبه وحكاياته وقصصه ورواياته.. فجاء العمل تعبيراً عن الفن الروائي العربي والوجدان العربي معاً.

وقد اختتم «السيد زين العابدين الموسوي» كتاب «التيجان» بكلمات تؤكد ريادة هذا الكتاب للفن الروائي والقصصي العربي قائلاً إن «القصص والأشعار التي ذكرت في هذا الكتاب أغلبها نادرة جدا وغريبة حق الغرابة بحيث لا يوجد أكثرها في غير هذا الكتاب..» (ص ٥٠٣).

وقد تردد ذكر كتاب التيجان واسم وهب بن منبه في كثير من الكتب والمراجع العربية القديمة والحديثة، غير أن النص الكامل للكتاب ظل مجهولا حتى قدر له الظهور حديثا، في طبعة مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، بهمة وحماسة الدكتور عبدالعزيز المقالح، الذي أصدره وقدم له في سلسلة المائة كتاب. وهذه الطبعة الحديثة هي مصدرنا في هذه الدراسة.

أمتع القصص

يستهل وهب بن منبه كتابه «التيجان في ملوك حمير» بالحديث عن قراءاته للكتب قائلا إنه قرأ ثلاثة وتسعين كتابا، ثم يسرد قصص خلق العالم الأسطورية حسب تصوره بأسلوب قصصي يجمع بين الخيال والأصول الدينية الاسلامية ليصور خلق الانسان وآدم وحواء والجنة والنار والملائكة والشياطين والأزمنة والفصول، مؤيدا بآيات من القرآن الكريم. ويمزج وهب رواياته الخيالية



دانيال ديفو

الممتعة بأبيات من الشعر المتخيل على ألسن آدم وقابيل وإبليس ونوح وسواهم. فهو ينطلق من الأسس الدينية الاسلامية ليبدع حكاياته ورواياته الخيالية والأسطورية في ابداع فني مشوق. ومن أجمل هذه الروايات روايته التفصيلية لقصة نوح وسفينته والطوفان..

كما يتضمن كتاب «التيجان» روايات وهب بن منبه عن ملوك حمير، وهي روايات تجمع بين التأريخ لسير الملوك وصراعاتهم وغزواتهم وبين الأساطير والفن القصصي والشعر والأخبار والحكمة والقيم العربية وآيات القرآن الكريم. وهي روايات وقصص خصبة الخيال وتصلح للاحياء والبعث إذا أعيدت صياغتها في أدبنا العربي الحديث، لما تجسده من نماذج البطولات العربية التي تتحدى قسوة الطبيعة وقوى الحيوان الفتاكة، مثل «قصة المغارة التي فيها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم». (ص ١١٤) التي تصور بطولة «الهميسع» ومواجهته الصعبة للجبال والثعابين والتنين، تصويرا أسطوريا يجمع بين الخيال والواقع.

ومن أمتع القصص التي يرويها وهب بن منبه قصة «ملك الصعب ذي القرنين»، إذ يلعب الخيال دورا عظيما في بناء القصة وتسلسلها الشيق. وهو خيال واسع الأفق يشمل الأرض والسماء والنجوم والبشر والجن والحيوان والطير والجنة والنار، مع قوى الطبيعة من رياح وعواصف وأمطار، ويستخدم أسلوب الحلم في صياغة واقعية. وتشغل قصة ذي القرنين عددا كبيرا من صفحات كتاب التيجان، ومع ذلك نتابعها بشوق واستمتاع دون أن يتسرب الملل إلى قارئها، لما تحتويه من خيال خصب ووقائع قصصية مثيرة تدور في أمكنة متعددة تشمل العالم كله.

ويسرد وهب هذه الروايات والقصص الأسطورية للايماء إلى حكم عربية وقيم إسلامية نبيلة تأتي في شكل أدبي يمزج القصة بالشعر.

ويحتوي كتاب «التيجان» عددا هائلا من الروايات والقصص التاريخية والأسطورية


د. عبد العزيز المقالح

والواقعية التي تقع في عصور وأزمنة وأمكنة مختلفة ومتعددة ، مثل قصة لقمان والنسور السبعة وقصة سيف بن ذي يزن وغيرها .. مما لا يتسع المجال للإحاطة بها . ذلك أن الكتاب عمل قصصي عظيم من أول سطوره حتى آخر صفحاته . (٥٠٦ صفحة قطع كبير) .

رواية « موطن الموت »

غير أن أهم ما يحتويه كتاب « التيجان في ملوك حمير » روايات وقصص الحب العربية ، وأبرزها رواية « موطن الموت » التي تصور أعذب وأقدم قصة حب عربية بين « مضاض بن عمرو الملك » وابنة عمه « ميا ابنة مهليل بن عامر » . وهي قصة حب عفيف تتمثل فيها خصائص البيئة العربية والشخصية العربية والقيم العربية ، والأسلوب العربي والبناء الروائي العربي الذي ينهض على دعامات قوية من الشخصيات الروائية والصراع الدرامي المشوق والشعر العربي والأخلاق الإسلامية .

فبطلا الرواية ، مضاض وميا ، أو « مي » كما يتكرر اسمها في الكتاب ، يتميزان بالجمال ، وقد شبا في حي واحد ، وربطهما الحب العفيف ، فقد صان مضاض « مئزره عنها » ، « فلما بلغ بهما الهوى مبلغه وحذرا من الفضيحة أو السقم والموت » (١٩٩) بعثا إلى الحارث بن مضاض ملك مكة يشكوان « ما نزل من شوق بعضهما إلى بعض » . فأبلغ الحارث أباها ، مهليل بن عامر بن عمرو ، بقصة حبهما ، ووافق الأب على زواجهما ، غير أن الوقت كان يوافق شهر رجب ، الذي لا يحدث فيه سوى العمرة والطواف ، ومن ثم تأجل الزواج إلى ما بعد شهر رجب .

فذهب مضاض ليعتمر ، وكذلك فعلت ميا عندما علمت برحيل مضاض ، لكن حادثا عكر صفو الحب ، إذ رأت « ميا » حبيبها « مضاض » يناول « رقية بنت البهلول » الماء لتروي ظمأها الشديد .فاشتعلت الغيرة في قلب « ميا » وسقطت مغشيا عليها ظنا منها بأن مضاض يحب رقية .

وزاد الأمر تعقيدا أن تدخل « قبيس بن سراج الجرهمي » ، الذي أحب ميا أيضا ، فأبلغ ميا بقصة حب مختلقة بين مضاض ورقية . بل انه افتعل حوارا شعريا أداره بين مضاض ورقية يثبت قصة الحب بينهما . مما أكد شكوك ميا وظنونها ودفعها لقطع رحلة العمرة متوهمة غدر حبيبها مضاض . وطلبت ميا من أبيها السماح لها بالرحيل إلى مقر أخوالها ومقاطعة كل مكان يوجد به مضاض .

فلما عرف مضاض بدسيس قبيس ، استعد لقتاله ، غير أن قبيس فر واختفى . وحاول مضاض إقناع مى ببراءته من قصة الحب المختلقة مع رقية . ودار بينهما الحوار الشعري التالي :

قال :

يعشــى عن النــاس لحظ طــرفي
وعنك يــا مــي غــيــر عــاشي
أتــهجــريـنـــي بغيــر ذنب
وتقتلينـــي بقـــول واشـــي

فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعا وتبعها وهي تقول :

كـذبت هـوى وحنثت إذا يميني
إذا طــالبت اثــرا بعد عــيــن
ســأرحل والفؤاد لــه وجيب
واقطـع للنـوى بيننـا ببيني

(ص ٢٠٢)

وهكذا افترق الحبيبان . ورحل مضاض مع اثنين من رفاقه . وعاود مضاض محاولته الشعرية مع ميا خلال ارتحالهما . ولكن ميا صدته . فقرر مضاض الانتحار عطشا قائلا : « والله لا أشرب بعدها ماء أبدا ، وولى وأنف أن يدخل مكة ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء . فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه العطش وانصدع قلبه في صدره لما خامره اليأس حتى بلغ هذا الموضع فغشيه الموت ، فأناخ ناقته وأخذ رأسه عمرو وجعله في حجره وقال له : قصفك الدهر يا مضاض ففتح عينيه وقال له : قصفني قبيس » (ص ٢٠٤ و ٢٠٥) .

● في رواية "موطن الموت" نرى البناء الروائي العربي الذي يؤكد الأصالة والأسبقية على الفن الروائي الغربي

وأوصى مضاض بدفنه « بموطن الموت بين الدوحتين » وحفر له ضريحا ،ووضع عليه « صخرة عظيمة » . ثم تنفرج عقدة الرواية بلقاء يتم بين رقية وميا ويدور بينهما حوار تكتشف ميا من خلاله براءة حبيبها من قصة الحب المزعومة التي اختلقها قبيس للوقيعة بينهما . فقررت مى الانتحار عطشا أيضا للحاق بحبيبها ،وأنشأت تقول شعرا :

أيــا مــوطـن الموت الــذي فيــه قبـره
سقتك الغوادي الســاريــات الـهــوامــع
ويــاســاكنــا بــالــدوحتيــن مغيبــا
لان طــرت عن إلــف فــألفك تــابــع

(ص ٢٠٧)

« وآلت على نفسها أن لا تشرب ماء حتى يرد جمل أبيها هوزـ وكان هوز لا يرد إلا عن خمس ــ فأقامت يومين وليلتين . فلما كان اليوم الثالث ولا أحد يعلم بها غير سلمى ــ غشيها الموت مع الليل الى الربوة . فولت إلى الربوة وتبعتها سلمى . فلما بلغت أعلى الربوة سقطت . قالت سلمى : « فوضعت يدي على فمها فوجدته كالحجر الصلد ، فرفعت رأسها إلي بلسان غليظ وصوت خفي . فقالت بكلام ضعيف لا أكاد أبينه : (قولي لأبي يدفنني بالدوحتين بجوار مضاض) » .

وتضيف الرواية قائلة إن أباها نفذ وصيتها ودفنها مع حبيبها مضاض في الدوحتين أو « موطن الموت » .

هذه هي أول رواية عربية في التاريخ ، عربية في بيئتها الصحراوية التي يعلو فيها شأن الماء ، وقد لعب الماء دورا محوريا هاما في تعقيد رواية الحب وفي ختامها أيضا ، رومانسية في تصوير قصة الحب العفيف وفي انتحار الحبيبين ، كما فعل روميو وجولييت في عصر لاحق . فهي رواية عربية كاملة ومتميزة وأصيلة وسابقة على الرواية الغربية . وهي تصلح شكلا ومضمونا للاحياء والبعث والتضمين في الرواية العربية الحديثة ، لما تتضمنه من شخصيات وحوار وصراع ، ولعذوبة أسلوبها الشعري والقصصي واستيعابها للتقاليد والطقوس والقيم الاسلامية .

وتثبت هذه الرواية العربية القديمة أصالة الفن الروائي العربي وتميزه وأسبقيته على الفن الروائي الغربي . ولعل هذا يؤكد ما ذكرته في مستهل هذه الدراسة من ضرورة مراجعة كثير من المسلمات التي نقلناها عن الغرب ، وخاصة حول نسبة الفن الروائي اليه والكتابة على منواله . فإن لنا فنوننا وآدابنا العربية منذ أقدم العصور ، وواجبنا أن ننتقي منها وأن نطورها في أعمال عربية حديثة ، حتى نضيف للغرب ولا نتبعه .

أحمد محمد عطية

دواب الأرض في القرآن الكريم

كيف ميّز الله الإنسان وكرّمه وخلقه في أحسن تقويم؟

بقلم: الدكتور محمد رشاد الطوبي

يحتوى القرآن الكريم بين دفتيه على كثير من الآيات البينات التى تشير بشكل واضح وصورة ملموسة إلى المخلوقات العديدة التى تحيط بالانسان فى كل مكان وزمان . والتى تجعل من الأرض التى نعيش عليها معرضا منقطع النظير لألوان من الحياة الحيوانية أو النباتية على حد سواء ، وتعتمد كل تلك الألوان والأشكال والأنواع فى بقائها وانتشارها على الماء الذي يهبط عليها من السماء مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

« والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها » .

صدق الله العظيم

فحياة الأرض التي يعيش عليها الانسان هى في حياة تلك المخلوقات من نبات أو حيوان .

فإذا تناولنا الحيوانات الأرضية بالشرح والايضاح نجد أن الله سبحانه وتعالى قد وهب لكل منها نوعاً من الحياة يضمن لها النمو والبقاء ومنافسة الحيوانات الأخرى التى تشاركها العيش على سطح الأرض ، فهى قادرة على البحث عن الغذاء والابتعاد عن الأخطار التي تهددها أو الأعداء الذين يتربصون بها ، فقد أتيحت لها وسائل الدفاع عن النفس بالقدر الذي أتيحت به مصادر الغذاء ، وقد نتلمس مثل تلك المعانى الرائعة فى الآية الكريمة التالية :

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

صدق الله العظيم

و« المستقر » هو المكان الذي استقرت فيه كل واحدة من تلك الدواب . هذا مع العلم بأن كلمة « الدابة » ـ كما جاء فى المعجم الوسيط ـ هى كل ما يدب على الأرض ، فجميع الحيوانات الأرضية على اختلاف أشكالها وأحجامها هى من « الدواب » . ولعل أصغرها حجما ـ ولكن ليس أقلها شأنا ـ هو النمل والنمل الأبيض ، ولكل منهما قصة طريفة فى القرآن الكريم .

وأولى هاتين القصتين هى التي ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

صدق الله العظيم

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على معرفة بلغة الطير والحيوان فقد استطاع تبيان حديث تلك النملة لرفاقها من جماعات النمل وتحذيرها لهم ، حيث تستطرد الآية التالية بعد ذلك ... « فتبسم ضاحكاً من قولها » ..

والواقع أن النمل يعيش فى مستعمرات على أكبر جانب من الرقى والتخصص ، حيث تعيش مختلف أفراد الجماعة داخل المستعمرة الواحدة ولكل منهم وظيفة محددة يؤديها لخدمة المجتمع بأكمله . وتكون الأغلبية العظمى من تلك الأفراد من العمال أو الشغالة التى تكد وتشقى للقيام بجميع الأعمال المدنية التى تهدف إلى بقاء المستعمرة ونموها ، ومن تلك الأعمال على سبيل المثال جمع الغذاء وتخزينه فى مستودعات تحت الأرض لاستخدامه فى وقت الجفاف ، ورعاية صغار النمل وتغذيتها والحفاظ عليها ، وتنظيف مختلف أجزاء المستعمرة وما تحتوى عليه من الحجرات أو المساكن التى يستقر النمل بداخلها أو الدروب والممرات التى يسلكها فى غدوه ورواحه فى رحلات جمع الغذاء وغير ذلك من الأعمال المنزلية .

وهناك أيضا الجنود أو المقاتلون ولهم رؤوس ضخمة وفكوك قوية أعدت خصيصا للدفاع عن المستمرة من كل اعتداء يقع عليها أو على الأفراد المقيمين فيها . وهناك أيضا الملكات (الإناث الخصيبة) التى تبدأ كل منها بتكوين المستعمرة الخاصة بها ، وعدد محدود من الذكور تقتصر وظيفتهم على إخصاب الملكات . فتنتج من النسل ما يكفى لنمو المستعمرة عددياً وتعويض ما يفقد من أفرادها نتيجة للموت أو الفناء .

أما القصة الثانية فتتعلق بمجموعة أخرى من الحشرات يطلق عليها أحيانا اسم « النمل الأبيض » ، ولكنها فى واقع الأمر ليست من النمل فى شيء ، بل هى رتبة أخرى من الحشرات التى تتغذى على الأخشاب بكافة أنواعها وأيضا على المنتجات الخشبية ، فهى تنخر فيها من الداخل تدريجيا حتى تلتهمها تماما ، ولا يبقى منها سوى القشرة الخارجية الرقيقة التى تحجب تلك الحشرات عن الضوء ، وذلك لأنها لا تعيش إلا فى الظلام ، ونظرا لتلك الطبيعة الغذائية فقد اطلق عليها اسم « الأرضة » ، وكانت الأرضة معروفة عند العرب حيث وصفت بأنها « دويبة بيضاء تشبه النملة » ، وقد اشتق اسمها من فعل « أرض » ، وجاء فى المعجم الوسيط ما يلى : « أرضت الأرضة الخشب أرضا أكلته » ..

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم تحت اسم « دابة الأرض » كما يتضح من الآية التالية :

« فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » .

صدق الله العظيم

والمنسأة هى العصى الغليظة التى تكون مع الراعى ، والمقصود بتلك الآية الكريمة هو سيدنا سليمان عليه السلام . وقد أدركه الموت وهو واقف على قدميه ومرتكز على عصاه . وظل فى وقفته ردحا من الوقت حتى انتهت « الأرضة » من التهام تلك العصى . إذ أنها كانت تنخر فيها من الداخل حتى أتت عليها . وسرعان ما سقط على الأرض حيث عرفت وفاته بعد ذلك .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفت أنظارنا إلى أهمية تلك المخلوقات . وإلى أن لكل منها مجتمعا خاصا بها يتشابه مع المجتمعات البشرية فكانت الآية الكريمة التالية :

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

صدق الله العظيم

والوقع أن النمل والأرضة (دابة الأرض) اللتين ورد ذكرهما فى الآيات السابقة من الحشرات التى تعيش فى مستعمرات متكاملة ومتعاونة مما جعل علماء الحشرات يطلقون عليها اسم « الحشرات الاجتماعية » (Social Insects) وتشترك معها فى تلك الظاهرة جماعات النحل الذى يعيش فى مستعمرات مشابهة . وقد تكلمت عن ذلك بالتفصيل فى كتاب سابق لى عنوانه « طبائع النحل » أصدرته « المكتبة الثقافية » (العدد رقم ١٠٢ ـ ١٩٦٤) .

ولم تقتصر الآية السابقة على « دواب الأرض » بل امتدت أيضا إلى « طيور السماء » حيث وصفتها هى الأخرى بأنها « أمم أمثالكم » ويعرف المختصون بدراسة الطيور أن لها جماعاتها الخاصة التى تعيش فى نظام دقيق وحياة منسقة ، وتتضح تلك الحياة الجماعية أكثر ما تتضح عند الطيور المهاجرة فى مواسم هجرتها . وعند الطيور البحرية فى مواسم تكاثرها .

وتقطن الطيور المهاجرة أساساً المناطق الشمالية من نصف الكرة الشمالى فى قارات أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية . وعند حلول فصل الشتاء حيث تكتسى الأرض بالجليد ويصبح الغذاء نادرا تندمج تلك الطيور فى جماعات كبيرة تحتوى كل منها على آلاف مؤلفة من الأفراد . ثم تبدأ تلك الأسراب هجرتها السنوية إلى الجنوب حيث يكون الجو أكثر دفئا والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً . وهى تمضى هناك فى تلك الاقاليم الجنوبية الدافئة فصل الشتاء . ثم تعود بعد ذلك إلى أوطانها وقد امتلأت شحما ولحما وأصبحت مستعدة للتكاثر .

ومن أهم الطيور البحرية التى تندمج فى جماعات كبيرة أثناء موسم التكاثر الطيور المسماة « طيور البطريق » . وهى طيور بحرية فقدت القدرة تماما على الطيران ، وتحورت أجنحتها إلى زعانف تستخدمها فى السباحة داخل الماء . وهى تقضى معظم وقتها فى البحر حيث تشارك الأسماك فى مسابحها . كما تعتبر الأسماك البحرية غذاءها الرئيسى . وفى موسم التكاثر تترك طيور البطريق بيئتها المائية وتصعد إلى اليابسة فى القارة القطبية الجنوبية . ويكون صعودها إلى تلك الأرض التى يكسوها الجليد طول العام فى جماعات كبيرة . وهنا تضع تلك الطيور بيضها حيث يتبادل حضانته كل من الذكر والأنثى فى تعاون وثيق . وبعد فقس البيض . وانتهاء موسم التكاثر تعود جميع تلك الطيور (كبيرها وصغيرها) إلى البحر لاستئناف حياتها من جديد ، وقد ضمنت تلك المعلومات وغيرها في كتاب أصدرته لى « دار المعارف » فى سلسلة « كتابك » وعنوانه « حياة الطيور » (رقم ١٦٦ عام ١٩٨٤) وإنى أذكره هنا لمن أراد مزيدا من المعلومات .

ونعود بعد ذلك مرة أخرى إلى « دواب الأرض » التى ورد ذكرها فى الآيات السابقة ، فهى فى واقع الأمر لا تقتصر على تلك الدويبات الصغيرة « كالأرضة » التى أكلت عصى سيدنا سليمان . أو « النملة » التى خاطبت أقرانها لتحذيرها من خطر كان يقترب » بل إن هناك أيضا أنواعا كثيرة كبيرة الحجم سخرها الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان كما يتضح من الآيتين الكريمتين التاليتين :

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة »

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » .

صدق الله العظيم

والنعم وجمعها نعمان وأنعام كما جاء فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٠ تطلق فى الأصل على « الإبل » . كما أنها تطلق أيضا على « الإبل والبقر والغنم » على التوسع . وهى جميعا كما هو معروف من « ذوات الأربع » أى أنها تمشى على أربعة أرجل . وقد أشار إليها القرآن الكريم مرة أخرى فى تلك الآية الكريمة التى تتعلق بالحركة والانتقال من مكان إلى مكان وهى :

« فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » وليس هناك بين جميع المخلوقات من يمشى على رجلين مشيا صحيحا وحقيقيا ومتوازنا سوى الانسان الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على رأس المخلوقات جميعا . فهو يسير على قدميه معتدل القامة مرفوع الرأس بطريقة لا يدانيها أى مخلوق من المخلوقات الأخرى على الاطلاق . وهو ما تشير إليه الآية الكريمة :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »

صدق الله العظيم

وآية أخرى فى نفس المعنى وهى : « الذي خلقك فسواك فعدلك » .

صدق الله العظيم

وهو ما يوضح بطريقة لا تدعو إلى اللبس أو الغموض إلى حسن القوام واعتدال الجسم كما هو مشاهد وملموس . وقد اختار الله سبحانه وتعالى لبنى الانسان « أحسن تقويم » تكريماً له وتمييزاً عن باقى المخلوقات على اختلاف أنواعها وأشكالها التى لا يكاد يدركها حصر ولا عد .

وقد أدت استقامة القامة وارتكاز الجسم على رجلين إثنتين بدلا من أربعة أرجل (كما فى باقى الدواب والأنعام التى خلقها الله سبحانه وتعالى) ، أدت تلك العملية إلى تحرير الرجلين الأماميتين حيث تحورتا إلى ذراعين يستخدمهما الانسان فى مختلف الأعمال والأغراض ولعل من أهم تلك التحورات انزلاق الأبهام ليصبح فى مواجهة الأصابع الأخرى حيث يستطيع الانسان عن طريق تلك اليد القابضة الإمساك بمختلف الآلات والأدوات .

ويعزى كثير من العلماء تفوق الانسان وتقدمه فى العلوم والفنون ، وإتقانه لكثير من الحرف اليدوية التى تحتاج إلى مهارات عالية . ونجاحه فى ولوج الميادين الزراعية والصناعية وغيرها ، يعزون كل تلك القدرات إلى امتلاكه لتلك اليد القابضة التى يقع فيها « الإبهام » فى مواجهة الأصابع الأخرى فى اليد .

* جماعات من الطيور تعيش فى نظام دقيق وحياة منسقة

* مستعمرات متكاملة ومتعاونة يعيش فيها النمل

* طيور بحرية فقدت القدرة على الطيران وتعلمت السباحة !

محمود درويش للدوحة:



حوار: مفيد فوزي

استكشاف حياة شاعر، في جلسة أو جلستين أو ثلاث.. رهان على مستحيل!

الشاعر كائن استثنائي. طائر اعتاد التحليق في سماوات بعيدة. وإخطاره بالتوقف ليروي قصة حياته، محاولة لقص جناحيه! أين يسكن الشاعر؟!.. في قصائده. أين يقيم بالضبط؟.. في قصائده. من هو على وجه التحديد؟ راجع قصائده! لهذا تسلحت — قبل أن أراه — بديوانه وكتاب نقدي عنه لرجاء النقاش: شاعر الأرض المحتلة.. محمود درويش.

أصعب ما في شاعر مزاجه الشخصي. قلت وأرددها إنه كائن استثنائي، فلا أستطيع أن أعرف ماذا يثير شهيته للكلام، ولا أعرف متى يتدفق.. في النهار أم الليل؟ ولا أعرف المحاذير التي إذا تطرقت إليها قد تسد مسامه ويتحول أمامي إلى قارة مغلقة الحدود. أظن أنه من حق القارىء أن يعرف خلفية الحوار قبل الحوار نفسه. فالخلفية النفسية ترسم صورة للشاعر حتى ولو حاول إخفاءها. وعلى المستوى الشخصي كان عندي فضول لأرى محمود درويش وأقدم «الانسان» قبل «الشاعر» فتجربة طفل في السادسة أيقظته أمه من النوم فجأة «فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرية أعدو في الغابة وكان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ولم أفهم شيئا مما يجرى. بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربي الضائعين في كل الجهات إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين تساءلت بسذاجة: أين أنا..؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة لبنان. يخيل إلى أن تلك الليلة وضعت حداً لطفولتي بمنتهى العنف وأحسست فجأة أني أنتمي إلى الكبار..» تجربة طفل أحس أنه «ينتمي إلى الكبار» منذ السادسة جديرة بالرصد.. ومحاولة استكشاف آفاقها.

وقد فهمت بعض العادات المزاجية عن محمود درويش.

— انه يفضل «الليل» كثيرا في الحوار لأنه يثير فيه التأمل والتحليق.

— لا محاذير عنده ولا محظورات في الحديث.

— انه لا يحب «المباشرة» يكره أن يتحول إلى «مصدر» لصحفي أو «موضوع» لكاتب. يحب «المعايشة».. وإلا كان «مغلقا للتحسينات»!

— إذا كنت قارئا لشعره واحفظ بعضه، ارتفعت درجة شهيته للحديث وإذا كنت لم أتعرف عليه بعد كشاعر.. أحس هو بغربة وقد يسألني فجأة: «من تريد أن تقابل؟»!

— أقفز بذكاء فوق حادث طلاقه من زوجته السابقة الشاعرة!

جرى الحوار بيني وبين الشاعر محمود درويش في عمان، العاصمة الأردنية فوق أحد تلالها. هناك في بيت صديق «فاروق القاضي». كنا قد مررنا على الشاعر — بعد الغروب — في الفندق. واصطحبناه وعباءة الليل تغطي بيوت

- كتبت قصائد باللغة العبرية في مراهقتي
- أنا وسميح القاسم نسير نحو هدف واحد باتجاهين
- علاقتي بأبي عمّار ليست علاقة مثقف بالسُّلطة
- وصل توزيع كتبي إلى المليون نسخة

عمان . وفى السيارة قلت لمحمود درويش إن الليل يحرض على الكتابة . وقلت له إن هناك « وشوشات » أسمعها تصوغ حروفا متشابكة فوق الورق . وقلت له إنى أكتب الأوراق الرسمية المقدمة للحكومة فى النهار . وقلت له إنى أكتب فى حضن صوت فيروز . وقلت له إن أول أبيات شعر كتبتها فى حياتى كانت لبنت الجيران ، ويبدو أنه لفرط ركاكتها ، أحبت واحداً غيرى كان يلعب كرة القدم في المدرسة.وضحك محمود درويش بطفولة ، اهتز كل شيء فيه ، كان يضحك كالأطفال عندما يرون شارلى شابلن « يتكعبل » في شيء ما ! وشعرت أن كلانا يقترب من الآخر . وأخذت أستعيد فى ذهنى تجربة رجاء النقاش التحليلية عنه ، فالناقد « مكتشف » لقارة الشاعر بصورة ما . وعندما صعدنا التل بالسيارة وألقينا نظرة على عمان من أعلى . قلت لمحمود درويش « أظن أن جسر الملك حسين ليس بعيدا من هنا » وقال الشاعر بكلمات محددة وقد ذكرته بالأرض المحتلة ، فالجسر هو الحدود الفاصلة بين الأردن والضفة ..

« هل تعرف أنى من قرية البروة ؟ إنها على بعد ٩ كيلو من عكا . كان لها اسم رومانى وحرف تحريفا صغيرا . قريتى الفلسطينية تسكننى تماما . فأول طلقات رصاص انطلقت فى سماء القرية الهادئة كان عمرى ٦ سنوات » . وصمتنا . وشعرت أن محمود درويش لا يهرب فى جميع الأحوال من « موضوعه الرئيسى » الذي يملأ عليه وجدانه وشعره بحيث أننا نستطيع أن نقول دون أن نخشى الخطأ . إن كل شعر محمود درويش يتصل بموضوع أساسى واحد هو وطنه وجرحه فلسطين .

محمود درويش « أنبته جذع زيتونتنا الخالدة .. أورق وأثمر فأنشد للجذع الراسخ ، والأرض الملوعة والطير المهاجر .. يحتضن أعشاشه ويدعو أسرابه إلى العودة » (حنا أبو حنا فى مقدمة ديوانه الثانى ١٩٦٤) . كنا قد وصلنا . ولم أشأ بدء الحوار مباشرة . كنت ببساطة أحاول أن أحافظ على « مفردات » مزاج الشاعر .

« حين قلت لمحمود درويش .. سأطرح أسئلتى من أبيات قصائدك ، قال متهللا « أرحب بهذه الطريقة لأنها تستفز ذكرياتى وتفتح شهيتى للكلام ! » .

قلت له :
أنا من قرية عزلاء منسيه
شوارعها بلا أسماء
.... فهل تغضب .
سجل ..
أنا عربى .

قال محمود درويش : هذه القصيدة كتبتها قبل ما يزيد على ربع قرن . وأخذ الشاعر نفسا طويلا من سيجارة لا تفارق شفتيه .. وقال لم تكن قصيدة كانت مجرد حادثة شخصية . ذهبت عندما بلغت سن الرشد إلى وزارة الداخلية الاسرائيلية للحصول على بطاقة هوية وبدأت فى تعبئة الاستمارة . كتبت المزايا الشخصية ولون العينين والشعر والعنوان الى أن وصل الموظف إلى السؤال التقليدى عن القومية . وكان الحوار باللغة العبرية فقلت له « أنا عربى » . فسقط القلم من يد الموظف الاسرائيلي وقال : ماذا تقول ؟ قلت « نعم » سجل أنا عربى ، قلتها بالعبرية وخرجت من مكتبه فى مدينة عكا لأستقل الاتوبيس إلى قريتى ووجدت نفسى أدندن بهذا الاستفزاز سجل : أنا عربى إلى أن تطور إلى هذا الشكل النهائى . لم أكن أعتقد أن هذا النص يتحول إلى قصيدة . كنت أظنها صرخة استفزاز لموظف اسرائيلى استهجن أن أكون عربياً . ولكن عندما قرأت هذا النص فى أحد المهرجانات الخطابية فوجئت بأن الناس استعادته ثلاث مرات على الأقل . وعندما أصبحت هذه القصيدة هويتى الشخصية الشعرية حاولت أن أتمرد عليها لأنى كنت ومازلت مهووساً بالتفوق على نفسى وتطوير تجربتى الشعرية ولكن الناس ـ مثلك ـ لازالوا يلاحقوننى بهذه القصيدة حتى الآن . واستسلمت للعلاقة بين القصيدة والناس ..

- فلسطين ليست قضية سياسية إنها قضية جمالية
- أنا لا أدّعي معرفتي بالمرأة .. ولن أعرفها !

همست مقاطعاً محمود درويش « من المستحيل استرداد قصيده احتلت وجدان الناس » .

قال : أصبت الحقيقة . والدليل أننى عندما كنت أذهب إلى القرى الفلسطينية أكتشف أن الأطفال عندما يرون الشرطة الاسرائيلية يلاحقونها ويقولون « سجل أنا عربى » تحولت إلى نشيد شعب .

واستطرد محمود درويش يقول : فى القصيدة أكثر من محطة استفزاز لإسرائيل . الأولى ، أنى عربى . الثانية ، كثرة النسل العربى ، فأنا أقول : أطفالى ثمانية وتاسعهم يأتي بعد صيف ، والعامل الثالث فى الاستفزاز هو أنى من الطبقة العاملة فلاح .

قلت لمحمود درويش مستفسراً : « هل كتبت يوماً شعراً باللغة العبرية التى يبدو من حديثك أنك تجيدها » ؟

قال الشاعر : « كتبت قصائد غزلية في مرحلة المراهقة . لكنى كنت كاتبا سياسيا باللغة العبرية كنت أكتب مقالاً أسبوعيا فى مجلة اسرائيلية وأحاضر وأخطب بالعبرية !

* * *

قلت لمحمود درويش :
إننى مندوب جرح لا يساوم
علمتنى ضربة الجلاد ..
أن أمشى ثم أمشى ثم أقاوم

وفى مثل وظيفتك هذه ، الاستقالة .. ممنوعة !

سرح الشاعر وقال : اخترت الطريقة التى تفجر بها الراقد والمخزون !

ابتسمت فى سرى ، فقد شعرت أنى أتحاور مع محمود درويش على نفس الموجة وربما نفس الذبذبات .

قال الشاعر : الأبيات من قصيدة تذكرنى بمجزرة كفر قاسم .

محمود درويش للدوحة:

شاعر وشاعرة.. لا يستطيعان أن يعيشا معاً!

وقد أتيح لى أن أزور هذه القرية بعد عشر سنوات من المجزرة .. وحرضتنى على كتابة هذه القصيدة . فلا قدر لى إلا أن أمسى على جرحى وأقاوم . والاستقالة غير واردة ولا أفكر فيها من حيث الوعى بضرورة الاستمرار فى الايمان والمقاومة !

همست مقاطعاً ولكن لك قصيدة أخرى بعنوان : « ويسدل الستار ولهذا أستقيل » !

ضحك محمود درويش وقال : فى حوارك .. شيء من التربص !

قلت : بل كثير من الاهتمام !

عاد الشاعر يقول : يسدل الستار قصيدة كتبتها بعد خيبة ٦٧ .

وهى قصة ممثل مسرحى يمل دوره ويكتشف أنه أداة فى يد المخرج ولهذا يتمرد على دور ليس له ، أى أنه يستقيل من دور الزيف ومن القناع الذى يضعه على وجهه . إنها استقالة ممثل مسرحى اكتشف بعض الحقائق عن خيبة ٦٧ وليست استقالة من عملية المقاومة أو التشبث بمبادىء المقاومة .

* * *

فجأة ، قلت لمحمود درويش : اسمح لى أن أكون تصادميا !

قال بسرعة : السؤال التصادمى ليس بحاجة إلى إذن . إنه يفرض نفسه !

قلت : عندما يقارنون بينك وبين الشاعر سميح القاسم ، تبدو المقارنة ليست بصالحك . يقولون إن سميح القاسم مازال يجلس على ربوة الصمود ويقولون بالحرف الواحد إن محمود درويش قد اغتنى ويقولون إن التجربة الدرويشية تسللت إليها الرفاهية .. وها أنذا أصغى لك !

قال محمود درويش .. وكلماته تصاحبها سحابات الدخان :

ـ أولا ، يشرفنى أن أواصل عمليتى الشعرية بزمالة مشرفة مع سميح القاسم . لقد بدأنا كتابة الشعر معا ، وعشنا معا فى شقة واحدة وسرنا فى طريق واحد ومازلنا نسير فى طريق واحد .. هو فى اتجاه وأنا فى اتجاه نحو نفس الهدف . هو يمثل الوجه الباقى فى الأرض المحتلة وأنا أمثل وجه المقاومة التى يخوضها الشعب الفلسطينى خارج الأرض المحتلة . أى أننا نمشى خطوة واحدة فى اتجاهين متعاكسين . لا يعنينى أن أقارن بأحد . إنما يعنينى أنا وسميح القاسم وغيرنا أن نضيف أبياتا شعرية على النشيد الفلسطينى الذي لم يكتمل .

استطرد يقول : أما أنى قد اغتنيت فانا أعترف بذلك . نعم لقد اغتنيت بتجربتى الشعرية وثقافتى الشعرية وبتطوير شعرى ومساهمتى المتواضعة فى تطوير الشعر العربى الحديث ، من هذه الناحية أنا غنى جداً وغنى بعدد قرائى . نعم أنا غنى لأنى أحد الذين وصل توزيع كتبهم إلى المليون نسخة !

* * *

همست مقاطعاً : لا أعرف رأيك فى الشاعر نزار قبانى . أنا أراه الأكثر شهرة وحضورا على الساحة العربية . أراه الأكثر تمرداً على القوالب .. شعرية كانت أو اجتماعية . أراه صاحب لغة خاصة به اخترعها ولا أحد يعرف من أي نبع يغرف .. إن صديقى الشاعر الأردنى يشبهه بالمليونير الشديد الغنى الذي لا يحتاج حين يريد شراء أى شىء إلا إلى مجرد التوقيع على ورقة صغيرة . فتوقيع هؤلاء كما تعرف معترف به فى كل أنحاء الدنيا .

قال محمود درويش : ستفاجأ عندما أقول لك ان نزار قبانى أحد آبائي الشعريين ولا يستطيع أى شاعر من أبناء جيلى أن ينفى أو يخفى أبوة نزار قبانى الشعرية على هذا الجيل . كلنا تأثر بأناقة الجملة الشعرية عند نزار قبانى وتمرده على الكلاسيكية . وعندما ينمو الشاعر ينتقل من الافتتان إلى الاستقلال بشخصيته . نزار قبانى لا يعنيه ـ مثلا ـ أن نقول عنه إنه شاعر ثورى وهو لا يدعى ذلك . هو شاعر جميل يكتب هموم الناس سواء كانت هموما عاطفية أو هموما سياسية وأنا أيضا لا أدعى أنى شاعر ثورى . هذا متروك للتاريخ ومتروك لتفاعل الناس .

قلت همسا : كيف « تصنف » نفسك ؟

قال : أنا شاعر مهووس بخلق معادل لغوى للواقع العربى الذى نعيش فيه . أى أننى أخلق واقعا لغويا . لا يهمنى أن أكون شاعرا ثوريا أو رومانسيا . فى قصيدتى الواحدة عدة مدارس . أنا أستفيد من كل المدارس واكتب قصيدة متميزة اسمها قصيدة درويشية ومن دلائل ذلك أن علاماتى ، بصماتى الشعرية موجودة على جيل كامل .

قلت لمحمود درويش :

فلسطينية كانت

ولم تزل ...

قال الشاعر : هذه القصيدة كتبتها فى أحد السجون الاسرائيلية فى سجن الرملة على وجه الدقة وعنوانها « عاشق من فلسطين » وقد لاحظ النقاد والقراء أن شعر القصيدة لا يصنف الى أغراض شعرية ، أى ليس لى قصيدة غزلية ، وقصيدة فى وصف الطبيعة وأخرى قصيدة رثاء أو قصيدة حب . كل هذه المشاعر والموضوعات تذوب فى قصيدة واحدة . هذه القصيدة هى قصيدة حب للأرض أو قصيدة حب لامرأة تلخص الأرض . ليس عندى معلبات شعرية . النص الشعرى مفتوح على كل الأغراض والموضوعات .

همست .. أعترف بأنى أردت أن أدلف إلى قلبك !

همس بالمقابل : أعترف أنى لا أدعى معرفة بالمرأة .. !

همس : هل أصابك بعض الأذى منها ؟

همس بالمقابل : أحيانا ..

ثم اعتدل محمود درويش فى جلسته وقال : لا أستطيع أن أدعى كما يدعى الشعراء أنى خبير بشئون المرأة وعواطفها . لى علامات كثيرة فى حياتى الشعرية والعاطفية ، لا تؤهلنى للادعاء بمعرفة المرأة ..

قلت لمحمود درويش ـ رغم أنى محذر من الخوض فى هذه السيرة لكنى بعناد طفولى سألت : الشاعرة فى حياة الشاعر هل من الممكن أن تكون رفقة جميلة .. و ...

قال مقاطعا : لا .. شاعرة وشاعر لا يستطيعان أن يعيشا معاً !

قلت : لا .. بدون تفكير ؟!

قال مكررا إجابته بحسم وهو يضغط على الحروف : شاعرة وشاعر لا يستطيعان أن يعيشا معا !

قلت : هل هناك امرأة ما تريح الشاعر ؟

قال بعد تردد : لا أعرفها ؟!

قال ضاحكا : ويبدو لى أنى لن أعرفها لأن الشاعر أيضا ليس حالة موحدة . الشاعر انسان ولكل انسان طبيعة وكيمياء نفسية مختلفة . أنا من الشعراء الذين « لا يحتملون » بضم الياء فى معاشرة طويلة لأن لى مزاجاً حاداً ولى تقلباتى النفسية والعاطفية ولا يحق لأى امرأة أن تتحملها لذلك لا أعرف المرأة التى تريحنى . من يريحنى الآن يتعبنى غدا . من يريحنى فى هذه الساعة قد لا يريحنى بعد ساعة .. !

ان مزاجى الخاص يرهقنى . أصارحك .. عندما أجريت آخر فحوص لقلبى منذ شهر ، قال لى أحد الأطباء « أنت الذى استدرج الجلطة القلبية من فرط توترك ونزقك ! ! ! »

قلت :

حبنا أن يضغط الكف على الكف

ونمشى

وإذا جعنا تقاسمنا الرغيف

وفى ليالى البرد أحميك برمشى

● مازلت أتهجى نشيدي الطويل !

● نزار قباني أحد آبائي الشعريين

وبأشعار على الشمس
تطوف ...

رد محمود درويش هذا هو حلمي . هكذا أفهم الحب . هل حققته ؟

هذا سؤال آخر . المشكلة أن الرجل يضع نمطاً للمرأة من اختراعه .. والمرأة تضع نمطا من اختراعها للرجل . الانسان ليس نمطا . الانسان كائن متغير ومتطور دائما . لا يمكن أن يكون ثباتا نمطياً .

قلت لمحمود درويش : من الحب إلى الحرب .
لو أتيح لك أن يكون لك عمل نضالي في منظمة التحرير ..

قاطعني الشاعر : أجمل ما في حوارك أنك لا تحب الوقوف طويلاً في المحطات . قطارك يعرف طريقه جيداً ! وأرد على تساؤلك لقد مارست مهاما وظيفية في المنظمة منذ انخراطي فيها وفي مقدمتها أني كنت رئيسا لتحرير المجلة الفكرية للمنظمة . وكنت مديراً عاماً لمركز الأبحاث . وفيما بعد أرغمتني المهام الوطنية على قبول رئاسة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وأرأس أيضا مجلة أدبية . لذلك أنا أحتل مواقع في منظمة التحرير . ولكن لو كان سؤالك يعني « منصباً رسمياً لي » فأنا أتمنى أن أبعد عني هذه الكأس ! تسألني بعينيك : لماذا ؟ والاجابة لأبقى هامشاً فاصلاً بين الانخراط في العمل السياسي اليومي وانتاجي الثقافي والشعري !

قلت : هل هناك حساسية ما بسبب علاقتك بأبي عمار . سؤال صريح ، هادىء ؟

قال : علاقتي بأبي عمار علاقة واضحة وسهلة . لا صعوبة فيها اطلاقا . لأنه « قائدي » . هذا هو الاطار الكبير ، وعلى الاطار الشخصي هو صديقي . ولذلك لا أشعر بأي حساسية في علاقتي به . إن السؤال عن العلاقة بين المثقف والسلطة سؤال مطروح . بمعنى أن علاقتي بياسر عرفات ليست علاقة مثقف عربي بسلطة عربية . لأن ياسر عرفات مازال في تعامله معنا مواطنا فلسطينيا عاديا . ولا أحد يحسده على قيادة السفينة الفلسطينية التي تتجه في محيط هائج . إننا نشعر أنه « أبونا » جميعا ولكننا نشعر أيضاً أنه « ابننا » . نشعر أننا مطالبون بأن نغدق عليه كمية أكبر من الحنان . ومن هنا سؤال السلطة والمثقف غير وارد . إنه يبحث عن بر أمان للشعب الفلسطيني ونحن معه .

* * *

قلت لمحمود درويش : هل أساء البعض من العرب موقفك في الأرض المحتلة . هل واجهت يوما أي اتهام لك واضطررت للرد عليه ؟

قال الشاعر : أنا لا أشكو إلا من فرط الحب الأعمى . في يوم من الأيام استقبل النقاد العرب قصائدنا نحن السجناء بطريقة مؤذية .. بمعنى أنه لا شعر خارج الأرض المحتلة . ولكن الحاجة النفسية لدى المواطن العربي المهزوم إلى مصادر قوية تأتيه من الأرض المحتلة وقداسة القضية الفلسطينية جعل التقييم النقدي مضللاً . ومن هنا كتبت مقالتي الشهيرة « انقذونا من هذا الحب القاسي » وقلت نحن لم نأت من فراغ ولسنا بنباتات شيطانية . نحن أبناء المدرسة الشعرية العربية الحديثة ولسنا سوى مساهمين صغار في هذه الحركة . أما الاتهامات فجاءت في مرحلة متأخرة عندما اتهمنا بعض المتطرفين بأننا « جنسية اسرائيلية » وهناك فرية قذرة تقول إننا (سميح القاسم وأنا) قد رفعنا العلم الاسرائيلي !!! أي صفاقة وخسة . من هذه التهمة ! إنه خيال أسود .

غيرت الموضوع .. وقلت لمحمود درويش :

انا نحب الورد
ولكنا نحب القمح أكثر
ونحب عطر الورد
لكن السنابل منه أطهر ..

قال محمود درويش : أنا لم أذهب إلى الطبيعة ولم أخترها موضوعاً شعرياً . أنا ابن الريف وجدت نفسي في الطبيعة . فأنا كل عالم صوري الأولى هو من طبيعة بلادي وأنا انتمي إلى أرض هي أجمل أراضي وأوطان العالم . فلسطين ليست فقط قضية سياسية وانسانية . هي أيضا بالنسبة لي قضية جمالية ، هي فعلا قضية مفقودة ، كل صوري وكل أزهاري وأعشابي وأشجاري وطيوري هي ليست مستوردة من مرجعية ثقافية . إنما مأخوذة من طبيعة معاشة ، أنا واحد من أبنائها ! ابن هذا البرتقال وابن هذا الزيتون ابن هذا التنوع اللامتناهي من أزهار الربيع الفلسطيني . فعلاقتي بالطبيعة ، يعني لي أرضي الأولى وسمائي الأولى وفضولي الأولى التي هي وطني .

قلت للشاعر : عندي سؤال يرضي فضولي الشخصي ; كيف يمكن للفن أن يتعايش مع الأيديولوجية ؟

قال : أنا بالفعل استهجن خوف كثيرين من المثقفين الذين يرون تعارضا بين الفن والأيديولوجية . أنا لا أجد تضاربا بينهما . المهم أولا أن تكون مبدعا مثقفا أو مؤمنا بعقيدة أو ملتزما بفطرة ما أو ساعيا نحو رسالة ما أما الخطورة فهي أن تخضع الفن اخضاعا ميكانيكيا لخدمة هذه الايديولوجية . الخطورة ليست في أن يحمل الشاعر ايديولوجية الخطورة هي تقديم الفن كخادم مباشر لهذه الايديولوجية .. والموهبة فقط هي التي تستطيع أن تخفي الفكرة المباشرة .

* * *

قلت لمحمود درويش : هل عرفت الهزيمة في الحب ؟

قال : أنا دائما مهزوم في الحب !

قلت : هل الهزيمة وقود .. الشاعر ؟

قال : ياسيدي ، كل عاشق هو مهزوم ، بمجرد أن يقع في الحب !

قلت : هل دموعك سهلة ؟

قال : دموع طفل !

تابعت أسئلتي القصيرة ذات الايقاع السريع وأخذ الحوار يقترب من الشاطىء .

وقلت : ما هو الهوس عندك ؟

قال : التعلق بشيء يصل عدم تحقيقه حد محاولة الانتحار .

قلت : من أين تأتيك البهجة ؟

قال : من نهار جميل أو إحساس غامض بالاقبال على الحياة .

قلت هل أنت ثائر أم شاعر ؟ إنه سؤال ساذج ..

قال : أنت يريحك أن تطلق عليه سؤالا ساذجا وهو في الحقيقة سؤال ماكر .. أنا شاعر وأنا ثائر .. أو قل أنا شاعر ثائر . أو قل أنا ثائر شاعر . ببساطة أنا اعتبر نفسي شاعراً ثوريا .

لم يفقد محمود درويش درجة شهيته للحديث ثانية واحدة . دخن عشرات السجائر قطعنا الوقت بسيفه . وبعد فنجان قهوة . سألته عن عدوه : من يخاف ؟

فقال : لي عدو واحد هو الضجر . أنا لا أخاف إلا من الضجر ، لا أخاف من الموت . خاصة وأني عرفت الموت دقيقة ونصف دقيقة وكان نوما أبيض ومريحا . لكني أخاف الضجر وهو أن تتكرر الأشياء بطريقة لا جديد فيها . أن تتكرر الصور بطريقة لا جديد فيها . أن تتكرر الهزيمة عربيا بنفس الشكل !

قلت : هل هناك القصيدة التي لها « القدرة على التغيير » ؟

قال وهو يضع رأسه بين يديه : لا أعتقد أن قدرة الشعر على التغيير هي قدرة آنية أو يومية . هي قدرة بطيئة جداً وسرية جداً وغير واضحة . ومازلت كشاعر لم أقل ما عندي . أشعر أنني مازلت أتهجى نشيدي الطويل ولم أدخل فيه !! ثم صمت محمود درويش .

* * *

.. وخشيت من « الضجر » عليه . فانسحبت من أمامه .. وتركته يواصل التحليق .

مفيد فوزي

"الدوحة" في الأراضي المقدسة ضمن بعثة الحج القطرية

بينما كنت ووفدنا الاعلامي المنضوي تحت لواء بعثة الحج القطرية ننعم بالإقامة المؤقتة في مدينة رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وإذ بأحد مسئولي البعثة ينبئنا بضرورة التوجه صباح الغد إلى مكة المكرمة لنكون في خدمة ضيوف الرحمن بناء على توجيهات رئيس البعثة .

كان الخبر مفاجئاً لي ، فأنا ما زلت متعطشاً للبقاء في المدينة المنورة ، وما برحت ظمآن للصلاة والدعاء في مسجد الرسول ، ولكنني عزيت نفسي بالسعادة المرتقبة في المسجد الحرام حيث الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه ، وبأنني تارك المدينة لا محالة استعداداً لأداء فريضة الحج التي طالما تمنيتها وحلمت بها في يقظتي وسباتي .

كانت لحظة وداعي لقبر رسولنا الأعظم شديدة الوطء على نفسي . ففاضت دموع العين مني صبابة وتأثراً ، ودعوت الله أن يكتب لي عودة أخرى لتلك البقاع الطاهرة .

في رحاب مكة والمسجد الحرام

بقلم : نبيل خالد الأغا

لم يكن قائد مركبتنا يعلم شيئاً عن طبيعة طريق « الهجرة » الجديد الممتد بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، لأجل ذلك تطوع أحد سائقي البعثة الخضرمين فرافقنا حتى قرية « أبيار علي » على بعد ١٥ كم وهي ميقات أهل المدينة ومن حولها حيث نوينا وأحرمنا بالعمرة والحج ، وواصلنا مسيرتنا ونحن نردد نداء الخلود : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

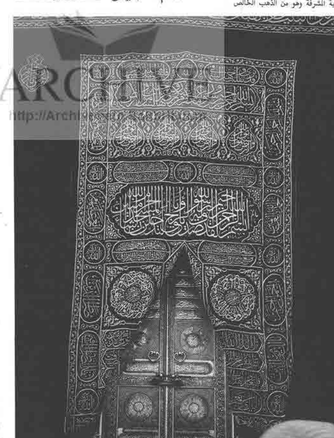
وبعد مضي ثلاث ساعات ونيف وصلنا مشارف مكة ، ورائحة الطهر والقداسة تعبق في صدورنا وقلوبنا ،وماكدنا نصل مقر البعثة حتى انطلقنا إلى المسجد الحرام متلهفين لإدراك صلاة الجمعة فيه .

هأنذا أدخل باسم الله باب السلام ، وفجأة أرى وجه حبيبتي المشع فرحاً ونوراً ،إنه أجمل وأروع وأقدس ما رأيت وماسوف أرى ، ويفيض القلب حباً ومناجاة : لقد وصلت إليك أخيراً يا كل شوقي والتياعي ، بعد طول تمن وتلهف ومكابدة ..

أقبل بثغري الأثم وجهك المشرق أبداً ، أتعلق بضفائرك الأجمل ، أتمسح بثوبك الأعطر ، أتدثر بستائرك الأطهر ، ثم أدعو لك العلي القدير : اللهم إن هذا بيتك الذي عظمته وكرمته ، اللهم فزده تعظيماً وتكريماً وتشريفاً ، وأدعوه سبحانه : « رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» .

أبدأ بتحيتك ، وتحيتك هي الطواف ، فأطوف حولك ، وأكاد لا أصدق عيني اللتين تكتحلان بمرآك ، أطوف وأكاد لا أقوى على حمل قدمي اللتين أعيتهما رهبة المكان والزمان . أطوف .. وأطوف حولك كما طافت الملايين والملايين من قبلي .. وأنت أنت الكعبة الكعبة ذات الأسماء

باب الكعبة المشرفة وهو من الذهب الخالص



الشريفة المذكرة والمؤنثة ، فأنت بكة التي بكت ودقت أعناق الجبابرة . وأنت البيت الحرام الذي حرمه الله على المشركين ، وأنت البيت العتيق الذي أعتقه الله من الكفار والجبابرة ، وأنت التي تتربعين بكل الاعزاز وبكل التعظيم والإكبار وسط ألف مليون مهجة ، ووسط ألف مليون قلب ، ووسط ألف مليون كبد هي مهج وقلوب وأكباد المسلمين كل المسلمين .

انتهى الشوط الأول .. والثاني ، وأنا أدعو وأسبح وأحمدل واستغفر وأقرأ القرآن ، ومن شدة الرهبة يتلعثم لساني ، ومن شدة الزحام تتعثر قدمي ، الصهد يلفح وجهي ، والعرق ينز من كل أعضائي ، وقرص الشمس منصب على الرأس شبه العاري ، لكن كل ذلك يهون ولا يكاد يبين أمام عظمة الموقف ، وأخيراً انتهى الشوط السابع على خير ،وصليت ركعتين قريباً من مقام ابراهيم ، وهو المقام الذي وقف عليه الخليل عليه السلام حين بنى الكعبة وأذن للناس بالحج ، ودلفت إلى ماء زمزم أعب منه عباً فلا أكاد أرتوي ، وتذكرت حديث رسولنا الأعظم : ماء زمزم لما شرب له ، إن شربته تستشفي به شفاك الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به .

واستحضرت من ذاكرة التاريخ ساعة فجر الروح الأمين جبريل عليه السلام ماء زمزم لأول مرة ليشرب منها اسماعيل الوليد سقياً من الله تعالى .

توجهت بعدئذ إلى مرتفع الصفا حيث ابتدأت السعي والدعاء : رب اغفر وارحم ، واعفو وتكرم وتجاوز عما تعلم ، انك تعلم ما لا نعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم . « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

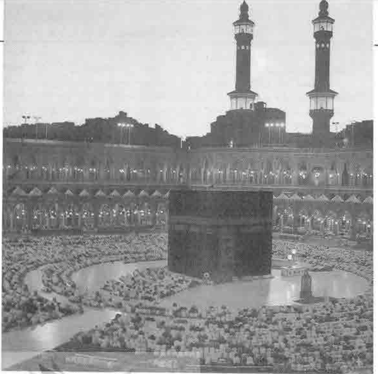
وقطعت ما يقرب من سبعمائة متر حتى وصلت إلى مرتفع المروة وبذلك انتهى الشوط الأول ، ولما أتممت أربعة أشواط بدأ المؤذن يكبر لصلاة الجمعة .. ويا لروعة هذه الصلاة الجامعة المعبرة عن أوضح مظاهر الايمان في الأمة الاسلامية ، حينما تستجيب لنداء واحد ، ولرب واحد ، وارادة واحدة .

تنتهي الصلاة وأواصل السعي ، فلما انتهيت منه لجأت إلى أحد الرجال فقص بضع شعيرات من رأسي ، وبذلك أكون قد تحللت من إحرامي وأديت مناسك العمرة .. فحمدت الله حمد الشاكرين .

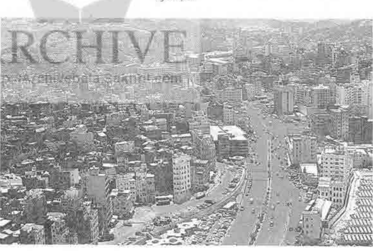
سويعات في جدة

كان ضمن نشاطات وفدنا الاعلامي خلال موسم الحج زيارة الحجاج القطريين في أماكن إقامتهم التي حددها لهم المقاولون (المطوفون) القطريون ، وتسجيل تحياتهم وأشواقهم إلى أهليهم وأصدقائهم لبثها في برنامج يومي بتلفزيون قطر .

وتكفل بهذه المهمة الزميلان مصطفى حسين مصطفى وطلعت موسى ، وكان يتحتم على الوفد



الكعبة المشرفة



المناطق المحيطة بالحرم المكي .. ثم لقطة أخرى لكاتب المقال بجوار الحجر الأسود



الاعلامي تأمين وصول دفعتين من شرائط التسجيل أسبوعياً إلى الدوحة عن طريق السفارة القطرية في جدة ، ووجدتها فرصة ثمينة أزور فيها هذه المدينة التي أحببتها على البعد ، وتمنيت زيارتها على القرب .

ولما اقتربنا منها زدنا شوقاً إليها ، وأدهشتني أيما دهش سلسلة الجسور والكباري المتعانقة في مداخل ومخارج ووسط المدينة ، وعندما تعمقنا في أعماقها دهشت أكثر وأكثر . فأنا لم أكن أتصور أن جدة تتمتع بهذه الدرجة العالية من الجمال والسحر والجاذبية ، أبرز ما ارتسم في ذاكرتي اتساع ونظافة شوارعها وميادينها ومحلاتها ومتنزهاتها . إضافة إلى الذوق الرفيع الذي يتمتع به المواطن السعودي في اختيار التصميم الأنيق لعمارته أو داره . أو متجره .

لكن فرحتي بزيارة جدة لم تكتمل نظراً لقصر الوقت من ناحية ولاستحالة السير على القدمين ظهراً والتجول فيها بسبب شدة الحرارة المشبعة برطوبة البحر الأحمر .

هذا .. وقد سعدنا بزيارة الأخ الاستاذ ماجد العلي القنصل القطري في جدة . الذي أكرم وفادتنا وقدم لنا كافة التسهيلات ، وكذلك أعضاء السفارة القطرية .

وعرجنا أثناء تجوالنا على مقر وزارة الاعلام السعودية ، وحصلنا من المسئولين فيها على تصاريح تخولنا تصوير الأماكن المقدسة وحرية التجول فيها .

نشاط الفريق الكشفي

تقترب الأيام رويداً رويداً من شهر ذي الحجة ، والعبد الفقير إلى رضوان ربه يغبط نفسه على وجوده في عاصمة الاسلام المقدسة . معتمرا وحاجاً وصحفياً في وقت واحد . وقد حاولت أثناء وجودي أن أشبع فضولي الصحفي بالرغبة في كتابة بعض التحقيقات الثقافية بمكة والمدينة فكانت الأجابة شبه جاهزة أمامي من لدن المسئولين السعوديين : نحن مستعدون .. ولكن بعد انتهاء موسم الحج إن شاء الله . وكنت في قرارة نفسي أشعر بالأسف لأن ذلك غير ممكن نظراً لارتباطي ببعثة الحج القطرية ذهاباً وإقامة ومغادرة . فأستسلم لأمر الله . على أمل تحقيق ذلك مستقبلاً .

أما داخل مقر البعثة في حي المعابدة وفرعها في شعب عامر فكانا يموجان بالحركة الدائمة ، فبالإضافة إلى خدمات البعثة الطبية المستمرة على مدار الساعة فهناك النشاط المكثف للفريق الكشفي المؤلف من أربعة عشر عضواً ، إضافة إلى القائدين النشطين ثامر مشعل الدوسري وعلي منصور المنصوري ، وإني لأشهد للحق بأن هذا الفريق قد أدى مهمته كاملة غير منقوصة في الحراسة والمتابعة وإرشاد الحائرين والتائهين ، وبناء وترتيب معسكرات البعثة ومخيماتها في منى وعرفات وسط جو قائظ لم تقل فيه درجة الحرارة مطلقاً عن أربع وأربعين درجة مئوية طوال موسم الحج .

وهذا التنسيق البديع أدى إلى أن يكون مقر البعثة في منى واحداً من أجمل وأنظف مقار البعثات الاسلامية بكل فخر وتواضع . وكان لاشراف ومتابعة الاستاذ محمد عبدالله الأنصاري ــ وكيل وزارة التربية والتعليم بالوكالة ــ رئيس بعثة الحج ، وكذا جميع المسئولين الاداريين أثر واضح في تجسيد هذا الانجاز الكبير .

في جوف الكعبة

توجهت في الساعة السادسة من صباح يوم السبت غرة ذي الحجة الموافق للسابع عشر من أغسطس (آب) عام ١٩٨٥ م مع بضع عشرات من الاعلاميين الاسلاميين ورؤساء البعثات الاسلامية وكذلك بعض السفراء لحضور وقائع الغسيل السنوي للكعبة المشرفة من لدن سمو الأمير ماجد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة نائباً عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز .

ولقد فرحت لهذا الحدث فرحاً شديداً لأنه سيتاح لي خلاله الفرصة النادرة للزيارة الهادئة . والفرصة الوحيدة للتصوير داخل المسجد المكي .

عندما وصلت المسجد ألفيت مئات الجنود والضباط وقد أحاطوا المنطقة بسياج أمني محكم أتاح لي لأول مرة ــ وربما لآخر مرة ــ فرصة الوصول بأمان واطمئنان ودونما زحام إلى الحجر الأسود ، وقد تشرفت بتقبيله عدة مرات . والجديد الذي أضفته إلى معلوماتي في تلك اللحظات هو أن الحجر ليس أسود كما يطلق عليه ، بل هو بني اللون تبدو فيه بضع نقاط . ويحيط به إطار من الفضة حفاظاً عليه وصوناً له .

لكن مفاجأة المفاجآت بالنسبة لي في هذه الرحلة الروحانية هي دخولي في جوف الكعبة حيث صليت فيها عدة ركعات ، ولكنني في غمرة فرحي ورهبتي وانتفاض جوارحي لم أعرف عددها ، هل كانوا أربعاً أم زادوا واحدة ؟ أم كانوا ثلاثاً ؟ الله أعلم !

لقد استشعرت الرهبة بمجرد أن لامست قدماي السلم المتحرك الموصل إلى بابها ، وسرت في جسدي قشعريرة زادت حدتها عندما دلفت في جوفها . واختلطت زخات العرق بزخات الدمع ، وتزاحمت على قلبي ولساني أدعية وتوسلات وآيات تداخلت كلها وتشابكت ، وتشكلت منها كلها سيمفونية فريدة من الضعف الانساني المنسحق أمام جبروت الله الرحمن الرحيم .

وبالله ما تمنيت أن أبقى منغرساً في مكان مثل هذا المكان ، وما دبت في قلبي رهبة من قبل مثلما دبت في هذا المكان ،لكن هذه النعمة لم تدم طويلاً ... عشر دقائق تقريباً غرقت خلالها في لجة الأنوار السماوية ، وإذا بيد بشرية مسبوكة من الفولاذ والعنف تشدني من كتفي وتدفعني إلى لجة الأنواء الدنيوية ، وإذ بي خارج الكعبة جوار مقام سيدنا ابراهيم أكمل صلاتي ونسكي .

وبعد لحظات دخل سمو الأمير ماجد إلى جوف الكعبة وتشرف بغسلها بالماء والعطور ، ثم خرج الجميع ، وكان الشيخ طه شيبي كبير سدنة بيت الله الحرام آخر الخارجين حيث قفل باب الكعبة بمفتاح كبير الحجم وضعه في جراب خاص كان يحمله .

ولم تكد تمضي بضع دقائق على سحب السلم المتحرك حتى فك الجنود الطوق الذي أقاموه ، فانهمر طوفان بشري باتجاه الكعبة والحجر الأسود ، وعناية الله وحدها هي التي سلمت عظامي وآلة تصويري من التكسير .

على صعيد عرفات

اليوم هو الثامن من ذي الحجة المعروف بيوم التروية ، ارتدينا في الظهيرة ملابس الاحرام ، وتوجهنا إلى معسكر البعثة في منى قبالة مسجد حجاج البر . فأدينا صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء قصراً بدون جمع . وبعد فجر يوم التاسع من ذي الحجة توجهنا إلى عرفة .. ها نحن قد دخلنا في اليوم المشهود ، والحديث النبوي المختصر البليغ « الحج عرفة » يدفعنا إلى مضاعفة الدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن .

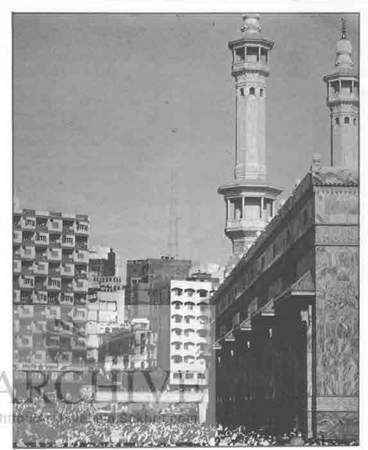
والذي أثار انتباهي بصورة مباشرة أن عرفة ليس جبلاً ضخماً ، ولا سلسلة من الجبال كما كنت أتخيل من خلال مفهوم سابق عن جبل عرفات . فعرفة ــ أو عرفات ــ ميدان واسع أرضه مستوية ويبلغ طوله نحو ميلين وعرضه كذلك . وإلى الشمال منه جبل واحد اسمه جبل الرحمة .

أما الأمر الثاني الذي لفت انتباهي فهو شدة اكتظاظ الحجاج في ذلك اليوم حيث بلغ عددهم مليون ونصف المليون حاج . وليس في عرفات مساكن ولا مبان حجرية ولا شجر أو ظل .. أما هذا العدد الهائل فمستقره الخيام وظلال الشاحنات والحافلات !

يا لعظمته يوماً من أيام البركة والمغفرة . وما أحيلاها مشاعر الغبطة والنشوة والقناعة نستشعرها ونحن على ثقة بأن الله قد تجاوز عن سيئاتنا وغفر لنا ذنوبنا .

لقد شعرت بأن روحي قد سمت فوق مستواها الانساني الذي ألفته وعاشت في عالم شبيه بعالم ملائكي . وشعرت بأنني أقترب رويداً رويداً من عالم الأنبياء والصديقين والأبرار والشهداء .

كنت أمعن النظر في مئات الألوف من المسلمين أمامي وقد وحدوا ملابسهم ، وتجردهم ، وأهدافهم .. ومواقفهم ، وتمنيت عليهم أن



النهضة العمرانية الحديثة في مكة المكرمة

يتوحدوا خارج عرفات كما توحدوا داخله ، وأن يضموا صفوفهم خارج الحرم كما ضموها داخله ، وأن يستمروا في طاعة الله خارج المشاعر المقدسة كما أطاعوه سبحانه داخلها .

ثم رحلت بعيداً في أعماق الزمن الخالي ، وطويت بذاكرتي العقود والقرون ، وعدت إلى أكثر من ألف وأربعمائة سنة مضت ، وامتثلت النبي محمداً هاهنا فوق عرفات في حجة الوداع سنة تسع من الهجرة ، لقد أحرم مثل احرامنا ، واستغفر كاستغفارنا ، وخضع لله خضوعنا ، انني امتثله يخطب بمائة ألف حاج بيّن لهم أمور دينهم ودنياهم . فألف ألف صلاة وتسليم عليك يا رسول الله الأمين .

رمي الجمرات

عند الغروب نفرنا إلى مزدلفة ، وما أدراك ما الطريق إلى مزدلفة !؟ زحام يعجز المرء عن وصفه حتى يخيل إليك أن السائرين على أقدامهم إليها أسعد حظاً من المتطين صهوات السيارات والحافلات . أقول هذا برغم ما تبذله الشرطة السعودية من مجهودات عظيمة ، وبرغم ما صنعته الهندسة السعودية من مسارب وممرات عديدة تستحق التقدير والثناء . وبمناسبة الحديث عن الخدمات السعودية فصدقوني أنني حمدت الله مراراً وتكراراً أن وهب المملكة العربية السعودية الخير الوفير لتوظف جزءاً كبيراً منه لخدمة الاسلام والمسلمين ، وكم تساءلت أمام بعض الزملاء : ماذا تتوقعون أن يكون الحال لو كان الأمر مغايراً لما هو عليه اليوم ؟!

عندما وصلنا إلى مزدلفة ، نزلنا جوار أحد الجسور فصلينا المغرب والعشاء جمع تقديم وخلدنا إلى النوم قليلاً ، وبعد منتصف الليل بقليل توجهنا إلى مكان رمي الجمرات بين مكة ومنى ، فرمينا جمرة العقبة الكبرى ، وهي أكبر الجمرات الثلاث . وهناك من الناس من يطلق عليها اسم الشياطين ، ويصنفونها بالشيطان الكبير والصغير والأوسط .

ولأننا أتينا إلى المكان مبكرين نوعاً ما فلم نتعرض للضغط الخانق الذي يتعرض له كثير من الحجاج ، ثم عدنا مشياً على الأقدام إلى معسكرنا فتحللنا من احرامنا بالحلق أو بالتقصير ، وكنا قد دخلنا في أول ساعات يوم عيد الأضحى المبارك حيث صلينا الفجر ونحرنا .

وفي اليوم الثاني توجهنا بعد صلاة العشاء ورمينا إحدى وعشرين حصاة وزعناها بالتساوي على (الشياطين الثلاثة) . وصادفنا هناك تلالا من الشباشب والأحذية وبقايا المظلات التالفة وزجاجات المياه الفارغة منتشرة في كل جوانب المنطقة ، مما يدل على آثار « معركة » ضارية بين الحجاج والشياطين ! !

وفي صباح اليوم الثالث من أيام العيد شهدنا فتيان الكشافة يؤدون التحية للعلم القطري ساعة إنزاله عن السارية الرئيسية بمعسكر البعثة بمنى ، وتمت إزالة نيف وعشرين خيمة خلال ساعات محدودة ، ثم توجهنا إلى منطقة رمي الجمرات وقذفنا الشياطين أيضاً بأحدى وعشرين حصاة ، وعدنا إلى مكة المكرمة وتوجهنا إلى الحرم وطفنا طواف الوداع .

وقد حدث أثناء ذهابي إلى المسعى أن أقيمت صلاة العشاء فصليت على السلم (الدرج) ! هل جربت ذات مرة الصلاة عليه ؟ لقد جلست على درجة عليا وصرت أسجد على الدرجة الأسفل منها . تجربة طريفة لاشك . انها تشعرك بمزيد من الخضوع والانكسار لله عز وجل ،ألا ليت كل المتكبرين وكل الذين في قلوبهم مرض أن يصلوا على السلم ولو مرة واحدة ، فلعلهم يستشعرون ضآلة أحجامهم أمام عظمة الواحد القهار .

* * *

بعد انتهائي من تأدية آخر منسك من مناسك الحج سكنت في قلبي السكينة ، واطمأنت في نفسي الطمأنينة ، واستقر الرضى في كل جانحة من جوانحي ، وما برحت أستشعر نعم الله التي لا تعد ولا تحصى على عباده ، مضيفا إلى كل دعواتي وتوسلاتي اليه عز وجل أن يبصرنا في ديننا ، وأن يعمق مخافته ومهابته في قلوبنا وجوارحنا ، وأن يكتب للمسلمين نصراً حاسماً على أنفسهم وشهواتهم وتخاذلهم وتناحرهم ، وأن يجمعهم دوماً على صراطه المستقيم ، وأن يكتب للمسجد الأقصى الأسير وما حوله العتق والتحرير ، ولكافة المطحونين والمقهورين في دنيا الله الواسعة الرحيبة .

ما أكرمك ربنا وما أعظم رحمتك .. قضيت لنا أن نعتمر ونحج ، فهيأت السبيل ، ويسرت الطريق ، فتقبل ربنا حجتنا وعمرتنا ، ويسرهما لكل من يظمأ لهما من المسلمين ، وهيئ اللهم لنا من أمرنا رشدا .

نبيل خالد الأغا

● تذكار من فلسطين

وَاتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً

يناهز عمر مدينة الخليل نيفاً وخمسة آلاف سنة ، منذ أن ابتناها الكنعانيون الأوائل في موقعها الجبلي باسم « قرية أربع » ، نسبة إلى مؤسسها « أربع العناقي » من أحد بطون كنعان ، وربما كان ذلك سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد .. ثم بعد ما يقرب من ستة عشر قرنا وفدإليها النبي العربي ، الحنيف ، المسلم ، إبراهيم عليه السلام ، إثر هجرته من مدينة « أور » بالعراق ، فيما يقارب مطلع القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وفق أرجح التقديرات ، فاتخذها موطناً له ولأسرته ، وعاش ، وتوفى ، ودفن في ثراها الطهور..

ظلت المدينة محتفظة باسمها الكنعاني هذا ، باستثناء فترة الاحتلال اليهودية الأولى التي عرفت فيها مؤقتاً ، وتوراتياً فقط ، باسم « حبرون » ، نسبة إلى حبرون بن كالب بن يفنه ، أحد قادة الغزو بإمرة يوشع بن نون ، هذا الأخير الذي يعتبر الأب الروحي ، والمعلم الأول ، لجميع القتلة العنصريين في « اسرائيل » الراهنة . من هول ما ارتكب من فظائع إجرامية عاتية ضد المدن الفلسطينية التي احتلها ، خاصة مدينة أريحا التي أهلك جميع أحيائها من إنسان وحيوان ، بنص التوراة الحرفي : « وأهلكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » .. (يشوع ــ ٦ : ٢١)..

ثم ما إن أطل على بلاد الشام فجر الفتح الإسلامي العميم ، حتى أخذت تعرف المدينة باسم « الخليل » أو « خليل الرحمن » ، تبركاً بمثوى الرفات الابراهيمية الطاهرة فيها ، وتيمناً بالآية القرآنية الكريمة التي تنص على خلة إبراهيم ــ أي محبته القصوى ــ عند الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » ..(النساء : ١٢٥) ..

وفي هذا الليثوغراف المقابل (من مجموعة روبرتس الفلسطينية في أوائل القرن الماضي) ، يبدو الحرم الابراهيمي بمئذنته في يمين الصورة ، بينما لا يظهر من المدينة ذاتها إلا مجرد انطباع فني عن طراز معمارها العربي الإسلامي العريق ، وتمثيل تقريبي لطبيعتها الجبلية العامة ..

تعاني مدينة الخليل حالياً ، ومنذ أن لحقت بالاحتلال الصهيوني الذميم في نكبة حزيران الأسود عام ١٩٦٧ ، من واقع وضعها على رأس قائمة الأطماع الصهيونية ، بعد القدس مباشرة ، في مجال تهويدها واستلاب هويتها العربية والاسلامية الضاربة في أعماق التاريخ .. فما كادت سلطات الاحتلال تفرغ من أول قرار لها بضم القدس القديمة إليها بصيغة الأمر الواقع ، بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٨ ، (أي بعد عشرين يوما من احتلالها) ،حتى كان قرارها الثاني مباشرة هو الاحداق بمدينة الخليل بمجموعة مستعمرات « كفار عصيون » الجبلية الاستراتيجية ، بتاريخ ١٩٦٧/٩/٢٧ ، ثم تلا ذلك الاستيلاء على مساحات واسعة من ضواحي المدينة لإقامة حزام أول من المستعمرات الملاصقة تماماً لعمران الخليل التاريخي ، على نحو ما تمثله مستعمرة « كريات أربع » المشرفة من عل على الحرم الابراهيمي ، كما أعقب ذلك التوسع في مصادرة أراضي القرى القريبة ، بسبيل اقامة حزام ثان من المستعمرات ، يتألف هذه المرة من مستعمرة « كرمئيل » المقامة على أراضي قرية « يطة » العربية ، ومستعمرة « متسق » على أراضي قرية « ترقومية » ، ومستعمرة « تشيغوت » على أراضي قريتي « صوريف » وبيت أمر » ..

زد على ذلك أنه علاوة على استكمال مخطط تهويد « الحرم الابراهيمي » ذاته ــ وهو ما سنأتي عليه في حلقة مستقلة من هذه التذكارات الفلسطينية ــ فلقد قطع الغزاة اليهود شوطاً بعيداً وخطيراً في محاولة تهويد المدينة العربية الإسلامية من داخلها بإقامة حي يهودي مثير للاشمئزاز بمعماره اليهودي البشع ، في قلب الأحياء القديمة ذات القيمة التاريخية والأثرية الفائقة ..

فمدينة الخليل ، عموماً ، هي هدف التهويد الثاني مباشرة بعد القدس الشريف .. ولست أدري ، لقد ناقشنا ذات مرة في إحدى دورات مجلسنا الوطني الفلسطيني العتيد ــ ولكن دون طائل للأسف العميق ــ مشروع تأسيس رابطة « التوأمية البلدانية » بين سائر المدن الفلسطينية المحتلة ، وكبريات شقيقاتها العربيات على متسع الوطن الكبير ، بكل ما تعنيه مثل هذه التوأمية من تعاطف وتواجد مع المدن والقرى الفلسطينية في محنتها الرهيبة هذه ، وبكل ما يستلزمه شرف الأخوة العربية من بذل وتضحية في سبيل استنقاذها من براثن التهويد .. وفي هذا المجال ،

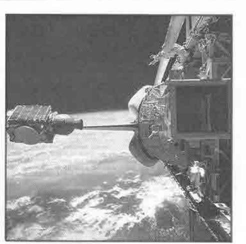
لئن كانت القدس (بوصفها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين) خليقة بتوأمية مكة المكرمة .. فإن مدينة الخليل لخليقة دون ريب بتوأمية المدينة المنورة في نطاق بلدانية المملكة العربية السعودية .. وكذلك هي النسبة والمقياس على مستوى مدن الوطن الكبير ، من المحيط إلى الخليج ..



بقلم : يوسف الخطيب



تطور استخدام الفضاء



القمر «عربسات ــ ٢» لحظة اطلاقه من المكوك



بقلم: سعد شعبان

شهدت البشرية في العامين الأخيرين تطورات مذهلة في استخدام الفضاء باعتباره أحدث تكنولوجيا في العصر الحديث. ولقد لعب الدور الرئيسي في هذا المضمار على الجانب الأمريكي «مكوك الفضاء» الذي تكررت رحلاته، وأصبح الفاصل الزمني بينها قصيراً إلى حد قريب من شهر واحد أو أقل، وذلك بفضل تعدد أنواع وأجيال المكوك الذي ظهر منه حتى الآن أربعة أنواع هي «كولومبيا. وتشالنجر. وديسكوفري، وأتلانتس» ولقد قام رواد رحلات المكوك الأمريكي الأخيرة بانجازات فضائية تميزت بجديتها سواء في المجالات العلمية أو التطبيقية أو العسكرية.

كما سجل الرواد السوفيت قصب السبق في مجال آخر، يرتكز على استخدام المحطات المدارية، وبقاء رواد الفضاء بها مدداً طويلة لا تقاس بالأيام ولكن بالشهور، وضربوا أرقاماً قياسية فاقت الأرقام الأمريكية بكثير.

رغم أن حلبة التنافس في الفضاء، لم يدخلها غير عدد محدود من الدول إلا أن الميدان يكاد يكون قاصراً على الدولتين الأعظم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي لأن اسهام الدول الأخرى ما زال محدوداً وخاصة في مجال اطلاق سفن الفضاء، وانتاج الصواريخ العابرة للقارات.

ورغماً من ذلك فإن التنافس بينهما يأخذ عدة أوجه وصور، وتؤدي في النهاية إلى الاستخدامات العسكرية. ولذلك فإن روح التربص في كلا الجانبين تغلب على روح البحث العلمي والتطبيقات السلمية: وينظر كل منهما إلى الجانب الآخر بعين الحذر، خشية سنوح فرصة للتفوق في جانب لم يتح له. وإن كانت هناك تجارب تجرى في سرية تامة منذ سنوات في كلا الجانبين لاستخدام الفضاء للأغراض العسكرية، إلا أن هذه القضية أصبحت معلنة في كل وسائل الاعلام بعدما أعلن الرئيس الأمريكي ريجان عام ١٩٨٤ عزمه على استخدام الفضاء للأغراض العسكرية في أوائل الحقبة القادمة من التسعينات ليكتمل الاستخدام الأمثل للفضاء في أوائل القرن المقبل، وأطلقت الصحافة العالمية على ذلك اسماً غير معبر هو «حرب الكواكب» أو «حرب النجوم». وهو في حقيقته نقل ساحة الحرب من وجه الأرض إلى «أغوار الفضاء».

إلا أن الحقيقة أن مجالات التحول في التطبيقات الفضائية ليست في المجال العسكري وحده، ولكنها تحولات شاملة في كل اتجاه. ومن المؤكد أن هذه التطبيقات ستدفع بكثير من الوسائل المستخدمة حالياً إلى عالم النسيان خلال سنوات محدودة. ولذلك سنستعرض في مقالنا هذا، أهم هذه التحولات الفضائية لنرى أننا على عتبات حقبة جديدة في عصر الفضاء.

أرقام قياسية للحياة في الفضاء

مضى على إطلاق المحطة المدارية السوفيتية «ساليوت ــ ٧» الآن ما يزيد على ثلاث سنوات وما زالت محلاً لتجارب فضائية متقدمة. فقد

● كيف يتمّ القبض على الأقمار الصناعية؟

● قصة التنافس الحاد بين أوربا وأمريكا في مجال الفضاء



رائدا فضاء يعتليان طرف ذراع المكوك

جعل منها العلماء السوفييت محطة استقبال لرواد فضاء يسافرون إليها على متن سفن فضاء من طراز « سويوز » لتلتحم بها ، ثم ينتقل روادها إلى المحطة المدارية ليظلوا بها أياماً أو شهوراً . ولقد تكررت تجربة الالتحام عدة مرات خلال هذه السنوات ، وفي كل مرة يقوم رواد السفينة مع رواد المحطة المدارية بتجارب متقدمة أو يسبحون خارجها ليؤدوا بعضاً من هذه التجارب .

ولم يقتصر الأمر على التحام سفن الفضاء وحدها ، بل تكرر الأمر بالتحام « شاحنات الفضاء » من طراز « بروجريس » تقوم بنقل الوقود والماء والغذاء والملابس والأجهزة لرواد المحطة المدارية . الأمر الذي مكن ثلاثة من رواد هذه المحطة عام ١٩٨٤ للبقاء في الفضاء مدة ٢٣٧ يوماً . وهي مدة قياسية بالنسبة للرحلات الفضائية السابقة سواء السوفيتية أو الأمريكية . ولم يحطم هذا الرقم السوفييتي حتى الآن ، إذ أن الرقم القياسي الأمريكي كان ٨٤ يوماً وسجله رواد معمل الفضاء الأمريكي « سكاي لاب » عام ١٩٧٣ .

وفي عام ١٩٨٥ نجح التحام سفينة الفضاء « سويوز ـ تي ـ ١٣ » ثم « سويوز ـ تي ـ ١٤ » . وقد أمضى رائدان منهما في المحطة المدارية « ساليوت ـ ٧ » مدة قربت حتى أكتوبر ١٩٨٥ من أربعة شهور ، ويبدو أن هناك نية لتسجيل رقم قياسي جديد .

ومن أهم التجارب التي كان يقوم بها الرواد عمليات السباحة خارج المحطة المدارية للقيام بمهام متقدمة ، دون أن يكونوا مرتبطين بالمحطة الأم . وفي مضمار السباحة خارج سفن الفضاء يحاول رواد كلا الطرفين أيضاً ضرب أرقام قياسية .. إذ قد تستلزم بعض المهام مدداً طويلة تمتد إلى عدة ساعات . ولقد سجل الرواد السوفيت مدة بقاء قياسية للسباحة في الفضاء قدرها خمس ساعات متواصلة في أغسطس ١٩٨٥ قام أثناءها رائدان بتركيب ألواح تحمل خلايا شمسية اضافية للمحطة المدارية « ساليوت ـ ٧ » لزيادة الطاقة الكهربية التي تستمدها أجهزة المحطة منها وجدير بالذكر أن الأرقام القياسية الأمريكية للسباحة في الفضاء خارج السفن قد تجاوزت هذا الرقم بعد ذلك بأقل من شهر إذ تمكن رائدان أمريكيان في سبتمبر ١٩٨٥ من الخروج من مكوك الفضاء (ديسكوفري) والبقاء خارجه مدة سبع ساعات وخمس عشرة دقيقة . وقد قضيا هذه المدة في محاولة اصلاح القمر الصناعي (لي سات ـ ٣ » الذي كان معطلاً في الفضاء قبل ذلك بعدة شهور ، لعدم بلوغه المدار المخصص له .

الكرسي النفاث

وعندما يسبح رائد الفضاء خارج سفينته فانه يعتمد في ذلك على وجود مستودع للأوكسيجين المضغوط يحمله خلف ظهره ليستمد منه الغاز اللازم لتنفسه . ويحمل معه أيضاً مستودعاً آخر لنفث الهواء المضغوط من فتحات ضيقة ليمكنه التوجه والحركة للاقتراب والابتعاد عن السفينة . كما أنه يرتدي زياً يحميه من اشعاعات الفضاء الضارة ، ويوفر له الدفء اللازم لجسمه .

إن الغاية من تجارب البقاء في الفضاء مدداً طويلة واضح أنها تتم في اطار الاستعداد لغزو الكواكب بواسطة سفن مأهولة بالرواد ، بعد أن فرغوا من غزو القمر . كما يتم ذلك أيضاً وفي اطار التدريب لاقامة مستعمرات دائمة في الفضاء تدار بواسطة الحواسب الالكترونية والتي ما زال العقل البشري سيدها إلى الآن . ولذلك فإن التغلب على مصاعب البقاء في الفضاء مدداً طويلة يتم في هدوء وبالتدريج . إذ أن حالة انعدام الوزن تقف عقبة كأداء أمام سلامة حياة الرواد . فرغم امكان التغلب عليها ، خلال الرحلات الأخيرة وبدرجة كبيرة إلا أن ذلك لم يجرب إلا لشهور معدودة حتى الآن ، بينما الأمر قد يستوجب سنوات طويلة . ولقد سجل العلماء التغيرات الجمة التي تطرأ على أجسام الرواد عند تعرضهم لحالة انعدام الوزن ، وعلى



القبض على القمر الصناعي الأندونيسي لسحبه داخل المكوك

الأخص الدورة الدموية ، وتمدد عضلة القلب ، وافرازات الغدد الصماء ، والتأثيرات العصبية . وكان آخر ما اكتشفه علماء الطب اختلال

سرعة ترسيب الكالسيوم في عظام الرواد ، وتعرض أجسام كثير منهم لطول مفاجئ يتناقص بالتدريج بعد انتهاء الرحلات .

استقرار تكنولوجيا إطلاق الأقمار

حتى عام ١٩٨٣ كانت الأقمار الصناعية تطلق إلى الفضاء بواسطة صواريخ الدفع المتعددة المراحل ، التي تعتمد على حرق الوقود السائل أو الجاف ، وتصعد إلى المدارات العليا في الفضاء حاملة الأقمار الصناعية . وتستقر الأقمار الصناعية

على مداراتها لتبدأ في الدوران بسرعات منتظمة لا يعوقها شيء لأن الفضاء ليس فيه احتكاك ، فهو خلو من أي مادة أو غازات يمكن أن تحدث هذا الاحتكاك . وتوجد حالياً عدة آلاف من الأقمار

الصناعية تابعة لعدد غير قليل من الدول ، بعضها يدور على مدارات منخفضة وبعضها يدور على مدارات عالية ، لتحقق أغراضاً لا عد لها ولا حصر . ولقد تشعبت أوجه استخدام الأقمار الصناعية خلال السنوات الأخيرة وأصبحت تستخدم في مجالات حيوية تفيد جميع أغراض التنمية . كما استخدمت لأغراض سلمية ومعروفة ، وأغراض عسكرية غير معلنة أيضاً تحت مسميات الاستطلاع أو الانذار المبكر وحقيقة الأمر أنه تجسس يتمثل في التصوير الفضائي من علو شاهق لنقل ما لا يخطر على بال من المعلومات والتقاط مالا يكاد يسمع من الأصوات .

ويقف على قمة الاستخدامات السلمية للأقمار الصناعية استخدامها لتحقيق الاتصالات فوق رقع



● ماذا كانت مهمة الرائد العربي الأمير سلطان في مكوك الفضاء الذي أُطلق في يونيو ١٩٨٥ ؟

شاسعة المساحة . سواء في ذلك الاتصالات الاذاعية أو المرئية أي التليفزيونية أو تحقيق الاتصالات الهاتفية .

وقمر واحد من أقمار الاتصالات يمكن أن يغطي قارة بأكملها أو عدة قارات بالبث الاذاعي والتليفزيوني فتتمتع الدول التي يغطيها بسهولة نقل المعلومات والثقافات والبرامج الترفيهية والعلمية والاخبارية والتعليمية خلال ثوان . كما يستطيع نفس القمر أن يحقق عبر قنواته سرعة نقل آلاف المكالمات التليفونية . الأمر الذي يغني عن استخدام مئات من محطات الاذاعة اللاسلكية أو التليفزيونية أو السنترالات التليفونية وما يلزم لربطها من آلاف الكيلومترات من كوابل نقل المكالمات التي تحفر لها الأرض أو يلزم مدها تحت مياه البحار والمحيطات .

لذلك خلقت أقمار الاتصالات عالماً سهلاً أحدث ثورة في نقل المعلومات وهز العالم بابهار شديد جعل شرايين المواصلات تنقل في يسر ما كان يحتاج لوقت طويل خلال ثوان معدودة ، وما كان يتكلف أموالاً طائلة بتكاليف زهيدة . واليوم لا يقتصر استخدام أقمار الاتصالات على نقل الاذاعات والمكالمات فحسب ، بل امتد إلى نقل الصحف اليومية ، فأصبح قارىء صحيفة في الشرق يستطيع قراءتها في نفس يوم صدورها في عدة دول أخرى . وأصبحت الدول ذات الجزر المتعددة كاليابان واندونيسيا والفلبين حريصة على ربط هذه الجزر عبر أقمار الاتصالات لأنها أفضل من كل وسائل التكنولوجيا التقليدية .

ولابد لكي يحقق القمر الصناعي للاتصالات دقة بث اذاعاته أن يصل إلى مدار عال فوق خط الاستواء تماماً على ارتفاع ٣٥٨٨٠ كيلومتراً حتى تتوافق سرعة دورانه حول الأرض مع سرعة دوران الأرض حول محورها ، ويصبح القمر معلقاً فوق هذا المدار أو ثابتاً في مكانه ولذلك يطلق عليه اسم « المدار الثابت » . ولكنه يميل بزاوية محدودة ليحقق بث اذاعاته إلى المنطقة المراد تغطيتها .

ولقد تعددت أوجه استخدام الأقمار الصناعية في مجالات أخرى غير الاتصالات . على رأسها مجال « التنبؤ الجوى » أي خدمة الأرصاد الجوية للحصول على نشرات جوية دقيقة وطويلة الأمد تستطيع أن تتنبأ بالظروف الجوية التي تصل إلى مدة سبعة أيام مقبلة أو تقصر إلى بضع ساعات .

والذين أسعدهم الحظ برؤية التليفزيون الأمريكي يرون دقة الصور الفضائية التي ترسلها أقمار التنبؤ الجوي وكيف يتم تحليلها لاعطاء نشرة جوية



رائد الفضاء العربي الأمير سلطان بن فهد العزيز أثناء إجراء تجارب على انعدام الجاذبية قبل قيامه برحلة الفضاء

دقيقة ، تحذر الناس وتبصرهم بأحوال الطقس ساعة بساعة بل دقيقة بدقيقة وخاصة في أحوال هبوب الأعاصير وهطول الأمطار وحدوث الظواهر الجوية التي لها تأثير على حركة السياحة والرياضة والنقل والأحوال العسكرية والملاحية الجوية والبحرية .

كما تعددت أوجه استخدام الأقمار الصناعية في مجالات كثيرة لخدمة التنمية بتحليل الصور الفضائية كالمسح وتحديد الأرض الزراعية والمساحات القاحلة ورصد ظواهر زحف الرمال أو التصحر ، ونحر الشواطئ وتصوير المناطق التي تكسوها مياه الفيضانات أو التي تحدث بها كوارث الزلازل والبراكين . وخدمة أغراض التعمير والنقل واستصلاح الأراضي والزراعة وتحديد مناطق انتشار الآفات الزراعية والمناطق الصالحة لصيد الأسماك ورصد المساحات التي تكسوها بحيرات الزيت في البحار والمحيطات ورصد مصادر التلوث الكيماوي في الأنهار والبحار ، ومتابعة هجرة وحركة أسراب الطيور والحيوانات . وأصبحت البشرية تعيش دنيا متطورة تضع اللمسات الفنية فيها الأقمار الصناعية باستخدام تكنولوجيا الفضاء المتطورة والمبهرة .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك كل ما تهتكه أقمار التجسس العسكري من أسرار ، فإننا في الحقيقة نعيش عالماً جديداً تلعب فيه الأقمار الصناعية أهم الأدوار .

ولقد شهدت الأعوام الأخيرة تكنولوجيا مستحدثة لاطلاق الأقمار الصناعية من فوق متن مكوك الفضاء الأمريكي بدلاً من اطلاقها بواسطة صواريخ الدفع من الأرض . وكان أحد الأقمار التي قيض لها نجاح الاطلاق بهذه الطريقة القمر الصناعي العربي الثاني « عربسات ـ ٢ » الذي أطلق في يونيو ١٩٨٥ ، رغم أن « عربسات ـ ١ » الذي أطلق في فبراير ١٩٨٥ كان قد أطلق بالوسيلة التقليدية بواسطة صاروخ أوروبي من طراز « اريان » .

والحقيقة أن المحاولتين الأولى والثانية لاستخدام المكوك الأمريكي كمنصة اطلاق منيتا بالفشل . ووقتها قيل ان القمرين ضاعا في الفضاء والحقيقة أنهما لم ينجحا في بلوغ المدار الثابت لأقمار الاتصالات فوق خط الاستواء . ولكن بعد ذلك بشهور قليلة استقرت تكنولوجيا اطلاق أقمار الاتصالات من فوق متن المكوك ونجحت عمليات اطلاق أقمار أمريكية وأقمار أخرى لصالح عدة دول



المرصد الفلكي الأوربي

منها كندا واندونيسيا والمكسيك والهند والدول العربية وكثير من دول أوروبا. وأصبح مكوك الفضاء منافساً في اطلاق الأقمار لأنه أقل تكلفة من الصواريخ. إذ يبلغ ثمن اطلاق قمر صناعي واحد بواسطة المكوك ما يقرب من ٢٥ مليون دولار، ويستطيع المكوك حمل قمرين في رحلة واحدة.

القبـــض علـــى الأقمار الصناعية

في نوفمبر عام ١٩٨٤ أمكن اجراء أول عملية استعادة لقمر صناعي معطل في الفضاء بواسطة رواد المكوك والعودة به إلى الأرض لاصلاحه. وقد تم ذلك بالنسبة للقمرين الصناعيين اللذين كانا قد أطلقا من قبل ولم يبلغا المدار المخصص لهما وهما (بالابا ــ٣ ب) الاندونيسي، و«وي ستار» الأمريكي واعتبر ذلك بدءاً لتكنولوجيا جديدة، أول منافعها إنقاذ ملايين الدولارات التي كان يمكن أن تضيع هباء في الفضاء تمثل ثمن القمر الصناعي نفسه. وثانيها أنها بدأت حقبة جديدة في فن جديد هو فن إنقاذ الأقمار الصناعية فقد كان كل قمر يفشل قبل ذلك، ويظل كصندوق معطل في الفضاء لانفع منه ولا أمل فيه، بل هو يشكل عقبة إذ قد تصطدم به سفن الفضاء في المستقبل. ولكن الحقيقة أن باباً جديداً فتح على مصراعيه بهذا الانجاز الجديد، يمكن أن يكون فاتحة لنشاط عسكري جديد. إذ ما دام القبض على قمر صناعي في الفضاء قد أصبح ميسوراً وعملية العودة به إلى الأرض قد أصبحت سهلة، فماذا يمنع من يملكون مرونة الحركة في الفضاء بالمكوك من أن يقبضوا على أي قمر مهما كانت هويته أو جنسيته. ولاشك أن ذلك سيكون حقيقة واقعة في المستقبل.

ولقد حققت مرونة الحركة في الفضاء، وسهولة انتقال الرواد خارج سفنهم وتوجههم نحو القمر الصناعي لاصلاحه أو الامساك به لوضعه داخل المكوك، وجود ذراع آلية مفصلية يمكن أن تبرز من المكوك لمسافة خمسة عشر متراً. ولها ثلاث وصلات فيمكن أن تنثني وتنتهي بمخلب يمكن التحكم فيه ليمسك بالأشياء فيسحبها إلى داخل المكوك.

ولقد أجريت تجربة التحكم في هذه الذراع الآلية بواسطة رائدة الفضاء الأمريكية الأولى «سالي رايد» التي نجحت في القيام بهذه العمليات بواسطة حاسب اليكتروني داخل المكوك. وتمت التجربة الأولى بنجاح بالامساك بعبوة فضاء أمريكية على هيئة صندوق ألماني الصنع أطلق عليه اسم «سباسو ــ١»، قذف في الفضاء ليبتعد عن المكوك مسافة ٨٥٠ متراً، وظل طافياً خارجه عشر ساعات، حتى أمكن استعادته بالذراع الآلية مرة أخرى وأدخل في المكوك ثانية. ولقد أضاف إلى مرونة الحركة استخدام رواد الفضاء لما يطلق عليه اسم «الكرسي النفاث» الذي يستخدمونه عند السباحة في الفضاء. فهو بمثابة مقعد يجلس عليه الرائد وله ظهر يحوي مستودعاً للأوكسيجين والغاز المضغوط. وتتحقق مرونة الحركة عند السباحة في الفضاء بخروج الغازات المضغوطة من ٢٤ فتحة نفث تسمح بالحركة في ثلاثة اتجاهات قربا من أو بعداً عن المكوك مسافة عدة كيلومترات ثم يعودون إليه محمولين فوق هذا الكرسي.

ولقد تحقق بفضل هذه المرونة في الحركة إنقاذ عدة أقمار صناعية معطلة في الفضاء منذ سنوات كان أولها القمر الأمريكي «سولارماكس» الذي ظل معطلاً في الفضاء أربع سنوات حتى تحقق اصلاحه عام ١٩٨٤ .. فاذا تعذر الاصلاح في الفضاء بتغيير الأجزاء التالفة منه فان القمر يمكن أن يقبض عليه



● احتمالات واسعة لصناعة أدوية فضائية جديدة لعلاج عدد من الأمراض المستعصية

ليعود مع المكوك إلى الأرض لتجرى عليه الاصلاحات اللازمة قبل اعادة اطلاقه مرة أخرى كما حدث بالنسبة للقمر الصناعي الاندونيسي « بالابا ـ ب ـ ٢ » ، والذي أعيد اطلاقه بعد عدة شهور فتحقق بذلك لأندونيسيا انقاذ ٧٥ مليون دولار كانت معرضة للضياع في الفضاء . ويستخدم الرواد لتحقيق ذلك قفصاً معدنياً ذا محور طولي على شكل الحربة ليمكن أن يسحبوا به القمر الصناعي المعطل حتى يقترب من المكوك . ولقد أتاح ذلك للأمريكيين مرونة حركة في الفضاء ليست متاحة للسوفييت حتى الآن،الأمر الذي قد يحقق بعض النجاح في مجال عسكرة الفضاء ، لذلك فمن المتوقع خلال سنوات أن تنتقل ساحة الحرب من على وجه الأرض إلى أغوار الفضاء حيث ستمتزج تكنولوجيا صناعة الصواريخ مع توليد أشعة الليزر والحرب الاشعاعية لصنع ملحمة جديدة في الاطلال على أهل الأرض من عل ، فتنتقل ترسانات الأسلحة من على وجه البسيطة إلى أعماق السماء اللانهائية .

رواد فضاء من كل جنس

تميزت الحقبة الأخيرة بانطلاق رواد فضاء من جنسيات مختلفة . في رحلات سوفييتية بسفن « سويوز » ، أو في رحلات أمريكية بواسطة المكوك . ولقد شارك في هذه الرحلات رواد من تشيكوسلوفاكيا والهند وأندونيسيا وفرنسا وكندا ، وكان أحدهم عربياً سعودياً هو الأمير سلطان بن سلمان الذي شارك في رحلة مكوك الفضاء في يونيو ١٩٨٥ . وعمل كمراقب لاطلاق القمر الصناعي العربي « عربسات ـ ٢ » ، وقام باجراء أربعة تجارب علمية في المكوك ، صمم لها ولتحقيق النفع منها في المنطقة العربية لفيف من العلماء العرب السعوديين . واحدة منها تعني بتصوير بعض المعالم الطبوغرافية والجيولوجية في منطقة الخليج والجزيرة العربية . وتجربة أخرى تتعلق بلزوجة عينات عن خام زيت البترول أخذت من الجزائر والكويت والسعودية ، لدراسة إطالة أعمار آبار البترول العربية ، والتي بدأ بعضها ينضب ويضن باعطاء المعدلات المعتادة من الخام الأسود ، وتجربة ثالثة تتعلق بتأين الغازات في طبقات الجو العليا وآثار هذا التأين على نقل الاتصالات بين الأقمار الصناعية . كما شارك رائد الفضاء العربي في تجربة طبية مع الرائد الفرنسي الذي كان معه في نفس الرحلة . ولاشك أن اشتراك رواد من مختلف الجنسيات في رحلات الفضاء يكسر حاجز الجمود في حقل أبحاث الفضاء ، ويقوي أواصر التعاون بين الدول ، وينهي وقفة المتفرج التي تقفها كثير من الدول في انبهار بانجازات الفضاء دون أن يصاحب ذلك حركة ايجابية لمشاركة فعلية .. ذلك أن كل رحلة يسبقها تدريب علمي وعملي للرواد والعلماء ، وتتم في اطارها عملية تبادل معلومات . تفتح أذهان رهط كبير من المتخصصين على ما يجري في هذا العالم المتقدم .

وهناك تصريح أمريكي بأن أول راكبة فضاء من المدنيين ستسافر إلى الفضاء كراكبة لتحقق امكان السياحة الفضائية ستكون مدرسة أمريكية ، وستطير عام ١٩٨٦ على متن المكوك .

كما سيشهد عام ١٩٨٦ مشاركة رواد فضاء من جنسيات أخرى حجزوا أدوارهم في رحلات مكوك الفضاء التالية منهم كندي وآخر ياباني واندونيسي وصيني ومكسيكي وفرنسي ومجري ، ومن ثم فان أواصر التعاون ستقوى . غير أن ثمة تعاوناً أكثر ايجابية يتم في إطار تصنيع بعض الأجهزة والمعدات التي تستخدم في مكوك الفضاء . فعلى سبيل المثال تشارك تشيكوسلوفاكيا في صنع بعض أجهزة التصوير التي يستخدمها السوفييت في سفن « سويوز » . كما شاركت اليابان في صنع أجهزة تصوير ذات حساسية فائقة يستخدمها الرواد الأمريكيون في التصوير الليلي ، كما شاركت كندا في صنع الذراع الآلي المفصلي الذي يستخدم في المكوك .

أوروبا تدخل حلبة المنافسة

بدأت أوروبا تنشط في مجال الفضاء من خلال منظمة أبحاث الفضاء الأوروبية المعروفة باسم « ايسا » (ESA) . ولقد كان أول انتاج لهذه المنظمة في فجر عهدها في السبعينيات هو صنع نوعين من الصواريخ المتعددة المراحل تحت اسم « أوروبا ـ ١ » و« أوروبا ـ ٢ » ونجحا في حمل قمرين صناعيين يحملان نفس المسمى « أوروبا » . غير أن تطوراً شاملاً طرأ على نشاط المنظمة ، وتحول انتاجها إلى انتاج صاروخ متعدد المراحل تحت اسم « اريان » (ERIAN) وتعددت مرات إطلاقه ونجاحه في اطلاق أقمار صناعية أوروبية ، وفي إطلاق أقمار صناعية لدول أخرى . وكان من هذه الأقمار القمر الصناعي العربي الأول « عربسات ـ ١ » الذي أطلق يوم ٨ فبراير ١٩٨٥ وأنهى عزلة العرب وجعلهم يشاركون في حقائق عصر الفضاء بايجابية . وتوسعت منظمة « ايسا » في عمليات الاطلاق إلى درجة أن بعض شركات الاتصالات الفضائية الأمريكية . تفضل إسناد عمليات اطلاق أقمارها اليها . غير أنها منيت بخيبة أمل كبيرة ، عندما فشلت عملية إطلاق اريان الخامس عشر في شهر سبتمبر ١٩٨٥ عندما توقفت المرحلة الثالثة منه عن الاشتعال ، فاضطروا لتفجيره في الجو ، وكان يحمل قمرين صناعيين أحدهما أوروبي والآخر أمريكي وتكبدت المنظمة خسارة قدرها ٥٠ مليون دولار .

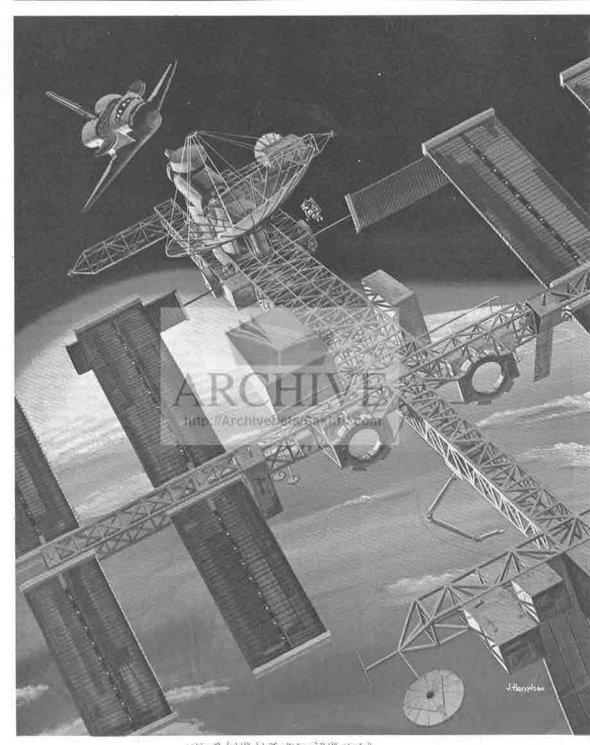
إلا أن حلبة المنافسة الفضائية بين أوروبا وأمريكا تمثلت في عدة أنشطة أخرى منها اعتزام فرنسا انتاج مكوك فضاء تحت اسم « هرمس » . ومنها أفكار تدور حول انتاج أول سفينة فضاء أوروبية لغزو الكواكب تحت اسم « كولومبوس » ، ومنها تعديل جوهري على تصميم الصاروخ اريان تحت اسم (اريان ـ ٥) . ومنها أيضاً أفكار بريطانية عن انتاج مكوك فضاء يقلع أفقياً دون الاستعانة بالصواريخ كالمكوك الأمريكي ويهبط في المطارات مثله . وتوجت هذه الأفكار بنجاح فرنسا منفردة في انتاج شبكة من أقمار الموارد الأرضية تحت اسم سبوت(SPOT) ، تعمل على منافسة الأقمار الأمريكية للموارد الأرضية المعروفة باسم « لاندسات » . وتنافس أقمار « سبوت » مثيلاتها الأمريكية في مناطق التغطية بالتصوير الفضائي بكاميرات التصوير في ضوء الشمس النهاري ، وفي التصوير بكاميرات الاحرار التي تعمل بالأشعة الحمراء للتصوير في ظلام الليل الدامس . إذ تلعب الصور الفضائية دوراً يتعاظم يوماً بعد يوم في تقديم العون لكافة ضروب التنمية اعتماداً على شمول الصور الفضائية وتغطيتها لمساحات كبيرة واكتشافها أدق التفاصيل .

كما تعاونت منظمة ايسا الأوروبية مع وكالة الناسا الأوروبية في اطلاق معمل أبحاث اوروبي أطلق عليه اسم « معمل الفضاء » (LOP) ، على متن المكوك في رحلتين متباعدتين . وحشدت في هذا المعمل أعداداً من الأجهزة الحديثة المتطورة لخدمة أوجه مختلفة من العلوم والأبحاث التطبيقية البيولوجية والطبية والفلكية والهندسية . وعمل على المعمل في رحلتي اطلاقه علماء متخصصون من دول أوروربا ، وليسوا رواداً للفضاء .

ويوما بعد يوم تتطلع دول أوروبا إلى اللحاق بالولايات المتحدة في ركب الفضاء حتى لا يزيد هذا التخلف بينهما . ولكن يبدو أن الأمر بالغ الصعوبة لأن التكاليف الباهظة التي تتطلبها عمليات الفضاء لا يصمد لها الاقتصاد الأوروبي .

مصانع في الفضاء

بدأت جهود التصنيع في الفضاء منذ عدة



المستعمرات الفضائية ، ستحتل مكانها في الفضاء في التسعينيات

تطور استخدام الفضاء

سنوات باجراء لحام بعض المعادن بعضها إلى بعض اثناء الرحلات الكونية ، وتخليق أنواع من السبائك تحت حالة انعدام الوزن للوصول إلى معادن أكثر تماسكاً ، وأقوى امتزاجاً ، ولا تتخللها فقاقيع للهواء . ولقد تم ذلك من جانب كل من السوفييت والأمريكيين وتكرر ذلك عدة مرات ، وفي رحلات متعددة ، ووصفت اللحامات بأنها تتم بدون تسخين ، حتى شهد عام ١٩٨٥ تجربة رائدة جديدة في تخليق بلورات فائقة الدقة في حجمها المتناهي في الصغر ، إذ قيل ان ١٨٠٠٠ بلورة منها لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس ، وهي مع حجمها الدقيق جداً فانها بالغة النقاء ، ذلك أن الخواص الطبيعية المتوفرة في الفضاء تتيح تكون بلورات آحادية الجزيئ كبيرة الحجم نظراً لانعدام قوى الدفع الناتجة عن الجاذبية الأرضية وقوى الحمل ، كما تنعدم الفقاعات والغازات والأبخرة التي تتصاعد على سطح الأجسام المائية والمعادن المنصهرة . وتتخلق بلورات المواد المصنعة في الفضاء في كروية منظمة للغاية . ولذلك سارعت شركات الأدوية والعقاقير الطبية إلى التقاط هذا الانجاز للتفكير في تصميم مشروع أول مصنع فضائي للأدوية ، وتحدد عام ١٩٨٩ لبناء هذا المصنع الأمريكي لصنع عقاقير فائقة النقاء ، لأنها بعيدة عن كل مصادر التلوث المعهودة على الأرض كالاشعاع أو الجراثيم أو الفيروسات . ويزمع العلماء استخدام الطاقة الشمسية لتوليد الكهرباء اللازمة لأول مصنع فضائي ، وسيكون عدد العاملين فيه عالمين فقط حيث سيتم التحكم في أجهزته بالحواسب الالكترونية .

ولن يقيم العالمان في هذا المصنع بصفة دائمة بل سيعودان إلى الأرض ويترددان عليه من آن لآخر ، لأن عماد العمل سيقوم به « الروبوت » المزود بحواسب اليكترونية تقوم بكل الخطوات . كما أن الانتاج الفضائي سينقل إلى الأرض من آن لآخر . ليصبح لدى العلماء خامات فائقة النقاء ، وبلورات فائقة الانتظام . ومن بين العقاقير المزمع تصنيعها في الفضاء هرمونات جديدة وأمصال لم يكشف النقاب عنها بعد ، قد تفيد في علاج بعض الأمراض المستعصية كالشيخوخة ، ومن الأمصال التي يدور حولها البحث مصل لعلاج الانفلونزا ودواء لعلاج السكر ودواء آخر له القدرة على إذابة الجلطات التي تسد الشرايين .

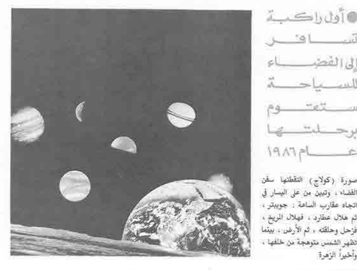
غير أن طموح العلماء في استغلال الصناعات الفضائية يتجه إلى عالم المواد من الجوامد أنصاف الموصلات وأشباه الموصلات والتي أحدثت في عالم الأليكترونات ثورة ، بتصغير أحجام المكونات الاليكترونية إلى أحجام صغيرة للغاية . مكنت المهندسين من صنع أجزاء أجهزة الاتصال والحواسب الاليكترونية والستترالات وأجهزة التوجيه في أحجام تقرب من علب الكبريت ، ولو كانت صنعت بالطرق التقليدية القديمة لشغلت عدة آلاف من الغرف . ذلك أن التحكم في تكوين بلورات المواد وتكوينها الذرى الداخلي هو الذي فتح باباً جديداً في عالم الدوائر الاليكترونية جعل البلورة الصغيرة من مواد السيليليوم والجاليوم والارسنيد ، تحقق ما كان يعمله جهاز اليكتروني كبير الحجم .

لذلك ستشهد الحقبة الجديدة مصانع فضائية تخدم صناعات متعددة ، على رأسها العقاقير والأجزاء الاليكترونية والسبائك . ولن يقف التطور عند حد ، بل ستنطلق صناعات أخرى كثيرة .

مستعمرات في الطريق إلى الفضـــــاء

عندما أعلن الرئيس ريجان عام ١٩٨٣ استخدام تكنولوجيا الفضاء للأغراض العسكرية ، فقد حدد أوائل حقبة التسعينات لجعل هذه القفزة حقيقة واقعة . ويستند في ذلك على اطلاق مستعمرات فضائية تكون بمثابة قواعد ثابتة تطل على الأرض من ارتفاعات شاهقة وتستطيع القيام بما لا تستطيعه الطائرات أو الصواريخ أو سفن الفضاء منفردة أو مجتمعة . فمن هذه المستعمرات يمكن أن توجه « مدافع الموت » أو « بنادق الموت » متمثلة في « أشعة الليزر » الخارقة نحو الصواريخ المعادية العابرة للقارات ، فتعطلها عن بلوغ غايتها قبل أن تصل إليها . ولقد كانت هناك خيارات كثيرة لجعل « عسكرة الفضاء » حقيقة واقعة بتثبيت مرايا دائرية عاكسة ذات أقطار كبيرة . قدروا أنها قد تبلغ ٣٠ متراً قطراً ، لتوضع فوق المستعمرات الفضائية فتوجه اليها اشعاعات الليزر من محطات أرضية ، لكي تنعكس عليها عند توجيهها نحو الصواريخ المعادية وهي في الفضاء ، فتعطلها عن بلوغ أهدافها . ويتحكم في حركة هذه المرايا وتحديد زوايا اتجاهها حواسب اليكترونية توصلها بمحطات التحكم الأرضية. وكان ثاني هذه الخيارات هو تعاكس الأوضاع ، بحيث توضع المرايا على الأرض ، وتوضع محطات توليد أشعة الليزر على المستعمرات الفضائية ، فتوجه نحو الأهداف المعادية لتمنعها من مواصلة طريقها .

● أول راكبة تسافر إلى الفضاء للسياحة ستقوم برحلتها عام ١٩٨٦



صورة (كولاج) التقطتها سفن الفضاء ، وتبين من على اليسار في اتجاه عقارب الساعة : جوبيتر ، ثم هلال عطارد ، فهلال المريخ ، فزحل وحلقته ، ثم الأرض ، بينما تظهر الشمس متوهجة من خلفها ، وأخيراً الزهرة

وهناك خيارات أخرى كثيرة ، أفرزتها عقول العلماء ولم يستقر على أيها بعد . لكن الأمر الذي تم العزم عليه ، هو ضرورة اقامة « مستعمرات فضائية » لتكون ركيزة الانطلاق نحو منع الصواريخ المعادية من مواصلة سيرها . ومن هنا وجدت أفكار كثيرة للعلماء عن تصميمات مختلفة للمستعمرات الفضائية وما تحويه من أجهزة ومعدات بما يكفل مواصلة الحياة لرهط من العاملين والعلماء للبقاء عليها ومواصلة العمل منها سواء لوضع الحواسب الاليكترونية أو المرايا العاكسة أو العبوات المتفجرة . ولن تأتي حقبة التسعينيات إلا وسيكون مكوك الفضاء قد حمل أجزاء من هذه المستعمرات إلى الفضاء ليعمل رواد الفضاء على ربط أجزائها بعضها إلى بعض ليتكون منها الهيكل الشامل لها . ولقد بدأت فعلاً المصانع الأمريكية في تصنيع أجزاء من هذه المستعمرات .

سعد شعبان

هونج كونج

مدينة مفتوحة مازالت غارقة في الأساطير

مجدي نصيف

انسابت بنا السيارة من مطار هونج كونج الدولي إلى وسط المدينة . الشوارع عصرية حديثة ، ترتفع على جانبيها ناطحات السحاب إلى ستين طابقا ، وتنتشر بين أرجائها المحلات المليئة بالبضائع .

وفجأة تدخل بنا السيارة إلى وسط المدينة ، حيث يقع الفندق . الشوارع ضيقة واللافتات تعترضها بكتابات صينية مثل الرسم ، ملونة باهرة الألوان ، والألوان النيون تصل من المحلات على جانبي الشوارع الضيقة إلى منتصفها ، تبهر الأبصار بألوانها الزاهية المتعددة .

بعدها بدأنا جولتنا في المدينة : بلد صيني أصيل ، وإن كانت تغطيه قشرة رقيقة غربية في مظهرها ، فوسط جزيرة لكاولون الشوارع غربية المظهر ثرية ، هادئة ، وفي هونج كونج هناك الشوارع القديمة المزدحمة ، على جانبيها الحوانيت الصينية التقليدية ، تعلوها منازل للسكنى ، وهي لا تفترق في كثير أو قليل عن الشوارع الصينية في القرن التاسع عشر . الفارق الرئيسي في نوعية السلع المعروضة ، حيث تعرض هذه الحوانيت حاليا البضائع الحديثة إلى جانب البضائع الصينية التقليدية .

سحر الشرق القديم

لكن المدينة رغم هذه القشرة الغربية الرقيقة تعبق بسحر الشرق القديم .

وفي المناطق النائية من هونج كونج ، مازالت الحياة تسير كما كانت عليه منذ مئات السنين وفق حياة الريف الرتيبة الهادئة .

وفي شوارع وسط المدينة ، تتناثر الحوانيت وإلى جانبها المطاعم الصينية التقليدية ، التي مازالت تحتفظ بطابعها .

وتمنح هونج كونج زائريها مناظر طبيعية خلابة عديدة ، فمستعمرة هونج كونج (البريطانية حتى الآن) تتكون من مئات الجزر الصغيرة المتناثرة جنوب بحر الصين ، وكثير منها غير مأهول ، ويصل عددها كلها إلى ٢٣٦ جزيرة ، شواطئ هادئة منعزلة ذات مناظر خلابة ، وهضاب تنظر إلى المدينة والشواطئ من عل ، هذا

مدينة هونج كونج ، التي تحولت إلى عاصمة للمال والتجارة



إلى جانب ما أضافه مخططو المدن من جمال إلى الجزيرة : البحيرات الصناعية وسط الوديان الخضراء ، والطرق المحفورة وسط الجبال ، بمناظر تطل على الميناء ، وناطحات السحاب التي ترتفع إلى ستين طابقاً .

التاريخ والحضارة

وصلت بريطانيا بتجارتها إلى الصين في القرن الثامن عشر ، وأدارت تجارتها من مستعمرة « ماكوا » البرتغالية التي مازالت موجودة حتى الآن .. وحصر الصينيون التجار البريطانيين فيما بين نهر بيرل ومدينة كانتون . وكان الدفع بالفضة يعوض البريطانيين عن تجارتهم في الشاي والحرير ، ورغم ذلك كان ميزان المدفوعات في صالح الصينيين . هنا لجأ البريطانيون إلى تجارة مدمرة هي « تجارة الأفيون » وتحول شعب الصين إلى تابع لهذا الكيف ، مما حدا بامبراطور الصين عام ١٧٢٩ أن يصدر قانوناً ضد هذه التجارة المحرمة . وخاضت الصين ضد بريطانيا حربها المعروفة باسم « حرب الأفيون » لتمنع بريطانيا من تصدير الأفيون إلى شعبها .

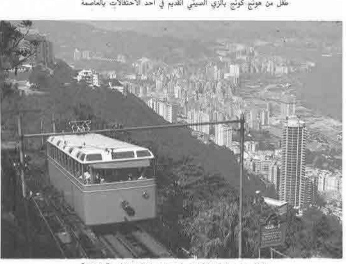
كانت كمية الأفيون التي صدرتها بريطانيا إلى الصين عام ١٨٣٦ حوالي ٢٦ ألف طن .

وكانت إحدى نتائج حرب الأفيون ، مولد ، مستعمرة هونج كونج ، فقد تنازلت ، امبراطورية ، الصين عنها لبريطانيا حسب « معاهدة نانكين » عام ١٨٤٢ م . ثم أضيفت جزيرة كولون إلى المستعمرة ، بعد معاهدة أخرى وقعتها بريطانيا مع الصين عام ١٨٦٠ م . وفي عام ١٨٩٨ حصلت بريطانيا على عقد مع الصين لابقاء هونج كونج في حوزتها لمدة ٩٩ عاماً ، أي تنتهي عام ١٩٩٧ م . ولم تخض الصين أي حرب بعد استقلالها واعلان « جمهورية الصين الشعبية » عام ١٩٤٩ ، أي حرب لتحرير هونج كونج ، وإنما ظلت مبقية على الوضع منتظرة ، بل وتحولت المدينة إلى باب خلفي للصين تحصل منه على العملة الصعبة ، وتصدر إليها البضائع الصينية التقليدية التي مازال هناك اقبال في العالم أجمع على شرائها .

ودخلت في مباحثات مع بريطانيا منذ عام



طفل من هونج كونج بالزي الصيني القديم في أحد الاحتفالات بالعاصمة



لقطة بانورامية للمدينة التي اشتهرت بمناظرها الطبيعية الخلابة



من كل لون طبق : في أشهر الأسواق بالعاصمة

١٩٨٤ م ، مصممة على استردادها وإن كانت تصرح بأن وضع المستعمرة سيظل كماهو عليه دون تغيير بعد انضمام المستعمرة إليها . وفي الفترة ما بين عامي (١٨٤٠ ـ ١٩٥٠) ،قامت « مستعمرة هونج كونج » بدور المنطقة « الترانزيت » للتجارة بين الصين والغرب ولكن ما إن حلت الحرب الكورية عام ١٩٥١ حتى حظرت الولايات المتحدة الأمريكية أي سلع أساسية واستراتيجية للصين الشعبية . هنا بدأت تجربة هونج كونج الخاصة ، وبدأت تتشكل بشكلها الحالي . اتجهت إلى التصنيع والسياحة ، وتدفقت عليها رؤوس الأموال الأوربية والأمريكية مستفيدة من الأيدي العاملة الرخيصة ، وعدم وجود ضرائب ، وازدهرت المستعمرة . وزاد عدد سكانها الصينيين حتى وصل الآن إلى خمسة ملايين ونصف مليون نسمة . وبعد أن كان الاقتصاد يعتمد على التجارة أساساً ، تحول إلى التصنيع والتصدير ، حيث قامت صناعات كبيرة وحديثة مشهورة مثل صناعة النسيج والقماش ، وصناعات الالكترونيات وصناعة البلاستيك ، ولعب الأطفال .

ونتيجة لهذه القفزة ، تمت هجرة واسعة من الصين الدولة الأم إلى مستعمرة هونج كونج . وكان الصينيون يلجأون إليها بأعداد كبيرة منذ عام ١٩٤٩ ، وهو عام استقلال الصين ، وإن توقف ذلك بعد حين .

وقفز عدد سكان المستعمرة من ٦٠٠ ألف نسمة عام ١٩٤٥ إلى خمسة ملايين ونصف هم عدد سكانها الآن .

ويمثل الصينيون ٩٨٪ منهم ، ويعيش في المستعمرة حوالي ٢٠ ألف بريطاني ، وهذا بخلاف القوات البريطانية المتواجدة هناك . وهناك كذلك ١٣ ألف أمريكي ، إلى جانب ٨٥ ألفاً من جنسيات أخرى .

ويعيش كل هؤلاء في مساحة لا تزيد عن ٤٠٠ ميل مربع ، وحتى الآن يستصلح المزيد من الأراضي بانتزاعها من البحر . ولذا يعيش الصينيون في مستعمرة هونج كونج في كل مكان ، الفقراء يتزاحمون في الأكواخ والأحياء الفقيرة ، والطبقات القادرة والثرية تسكن ناطحات السحاب . فالمدينة تقف شاهقة على قدميها ، وبمعنى آخر فإن التوسع تم رأسياً بدلاً من أن تتوسع المدينة بشكل أفقي لحل مشكلة السكان ، فازداد عدد الناطحات على هذه المساحة الصغيرة ، هذا إلى جانب الآلاف (من ثلاثة أجيال) يعيشون في القوارب ويطلق عليهم اسم « سكان القوارب » .

إن « هونج كونج » مدينة مفتوحة : الضرائب منخفضة (بل وتكاد لا توجد) وليس هناك ضريبة استيراد مما جعلها أرخص من السوق الحرة في مطار هونج كونج نفسه ، وضريبة الاستيراد لا تفرض إلا على التبغ وبعض منتجات البترول والعملات حرة الحركة لا يعوقها عائق . وهذا ما أعطى هونج كونج طابعها الخاص ، إذ تحولت إلى إحدى عواصم العالم للمال والتجارة والعملة ، والصناعة .

● أصبح سكانها خمسة ملايين نسمة ، ومازال أهلها يقيمون المهرجانات الصينية القديمة !

بقايا الصين القديمة

وإذا كانت هناك أشياء قد اختفت من الصين الأم ، فقد ظلت باقية هنا في هونج كونج . فالمنجمون على سبيل المثال مازالت سوقهم رائجة ويؤخذ رأيهم في كل شيء . فإذا كان المهندسون على سبيل المثال يحددون كيف تبنى ناطحة السحاب بالنسبة للبحر والرياح ، فإن المنجمين يدلون برأيهم حول الأرواح الشريرة في الناطحة وكيفية مجابهتها .

ومازلنا نرى الأساطير والحكايات الصينية القديمة ، من خلال الأفلام المنتجة محلياً باللغتين الماندارية والكانتونيزة . ومازالت الأوبرات الصينية تذاع من الراديو والتليفزيون . أما الاحتفالات والمهرجانات الصينية القديمة ، فمازال أهلها يحتفلون بها جميعاً ، وخاصة في عيد رأس السنة الصينية .

مجدي نصيف



فنان عربي تتحمس له ألمانيا

غازي الدليمي

اللون الأخضر والأمل في مستقبل الإنسان

بقلم: صبحي الشاروني

يعتبر إقليم ـ أو مقاطعة ـ شمال غرب ألمانيا من أهم الأقاليم الصناعية فى المانيا الاتحادية ، ومدينة دوسلدورف هى عاصمة هذا الاقليم التى يسميها البعض (باريس ألمانيا) ، وذلك لأن بها تجمعا يضم أهم الفنانين الألمان . كما تتركز فيها تجارة اللوحات العالمية فى ألمانيا الاتحادية .

وخلال مرورى بهذه المدينة وأنا فى طريقى إلى برلين الغربية نبهنى بعض الأصدقاء إلى وجود فنان عراقي شاب يحتل مكانة متميزة بين فناني هذه المدينة ، وانه متفرغ لفنه ، كما يحظى برعاية المسئولين عن الثقافة فى تلك المقاطعة .

لهذا طلبت أن التقي به وأزور مرسمه خلال رحلة عودتي من برلين التي ذهبت إليها مدعوا لأحاضر عن الفن العربي مستعينا بالشرائح الملونة فى تقديم صورة محددة الملامح للحركة الفنية العربية .



علامة الاستفهام : إحدى لوحات الفنان العربي غازي الدليمي بألوانها المبهجة ورموزها التي توحي بالقوة الهائلة القادمة لإنقاذ العالم !

سلمنى صديقي سماعة التليفون لأضرب موعدا مع الفنان ، واتفقنا على اللقاء في مقهى بميدان محطة القطار الرئيسية ، وطمأنني أنني سأتعرف عليه بسهولة من خلال لحيته وسحنته العربية التي لن أخطئها .. وكان يوما مشمسا حيث ركبت إلى جانبه في سيارة نصف نقل مقفلة ..

وأوضح في الطريق أنه اختار هذه السيارة لكى يسهل عليه نقل لوحاته بها من مكان لآخر ، ولأنه أحيانا يبيت فيها خلال رحلاته الطويلة داخل ألمانيا وخارجها .

بين العراق وألمانيا

ولد الفنان غازى الدليمى فى مدينة بغداد عام ١٩٤٨ ، وانتقل مع عائلته إلى مدينة كركوك وهو فى سن الخامسة حيث التحق بالمدرسة الابتدائية ثم ثانوية كركوك بنين ، وحصل على البكالوريا عام ١٩٦٨ . بعدها التحق لمدة عام بأكاديمية الفنون فى جامعة بغداد حيث درس أصول الخط العربي .. ثم سافر إلى ألمانيا الاتحادية لدراسة فنون (الرسم والتصميم) ، والتحق بجامعة دوسلدورف عام ١٩٧١ حيث أمضى خمس سنوات فى هذه الدراسة حصل في نهايتها على دبلوم التخصص في الرسم والتصميم .

لكن الألمان لا يقنعون بالشهادات الدراسية ، وتحتم تقاليدهم أن يقضى خريج الجامعة بضع سنوات في مواقع الانتاج العملي والمتصل باحتياجات المجتمع ، وبعد هذا الاحتكاك يتم الاعتراف بكفاءته وتصبح له مكانته كمتخصص ذى خبرة فضلا عن شهادته .. وسار غازى الدليمي فى نفس الطريق ، فالتحق بالعمل فى مواقع ومراكز الاعلانات التى تستخدم الرسم وأساليب الطباعة الفنية فى الدعاية للمنتجات الصناعية ..

وتخصص فى تصميم الاعلانات لاحدى شركات السيارات ، وتدرب على الأساليب العملية لاستخدام خبراته ودراسته في تلبية الاحتياجات اليومية التي تخدم المجتمع الصناعي . وامتدت فترة العمل كمصمم للاعلانات خمس سنوات كاملة . وفى عام ١٩٨٠ بدأ يحس أنه سئم العمل في ميدان الاعلانات ، وأنه لن يكتسب خبرات جديدة في هذا المجال ، بالاضافة إلى أنه أحس باشتياق إلى الانتاج الفنى الخالص .. فصار يرسم



اللون الأخضر والأمل في مستقبل الانسان

في السحاب



وجه وأنغام وألوان



تنويعات على الكرة

لوحاته في غير أوقات العمل .. وشاهد مدير شركة الدعاية التي يعمل بها عددا من لوحاته .. فدعاه إلى زيارته في منزله مع كل رسومه التي لا تتصل بعمله فى فن الاعلان . وخلال هذه الزيارة اقترح عليه إقامة معرض لهذه الأعمال في مقر الشركة لأنه تحمس لها إذ وجد فيها جديدا لا يشبه ما يعرضه الآخرون .

طريق الفن

فى هذا المعرض الأول الذي أقامه عام ١٩٨١ لمس الفنان إقبال المشاهدين من الجمهور الألمانى ، حيث باع لهم عددا من هذه اللوحات ، ومن هنا أدرك أن الطريق مفتوح أمامه للانتاج الفنى الخالص ، وانطلقت شرارة الفن التي يغذيها الإقبال والتقدير .. وأحس أن الفن يعطيه أضعاف ما يعطيه عمله فى الدعاية وتصميم الاعلانات ..

وتحمس أحد أصدقائه الألمان الذين يعملون معه فى شركة الاعلان ، واقترح أن يقيم معرضه الثاني فى بنك (اكسبرس) .. في هذا المعرض الثاني تأكد أن طريق الفن هو طريقه وبعده تفرغ تماما للرسم والتصوير الزيتي وتوقف عن تصميم الاعلانات .. وتوالت معارضه الخاصة والمشتركة مع الفنانين الألمان .. وتم الاعتراف به رسميا عندما قبلت لوحاته التى تقدم بها للمشاركة فى معرض فنانى مدينة دوسلدورف السنوي الكبير ، حيث تقوم لجنة من كبار نقاد وفناني المدينة باختيار الأعمال التي تصلح للعرض من بين أعمال المتقدمين .. وقد شارك (الدليمي) فى هذا المعرض بثلاث لوحات ..

وأحس نتيجة لهذا أن رسومه لها قيمتها فى هذا المجتمع ، ودفعه هذا الاعتراف إلى مواصلة الطريق حيث كان قبول أعماله في هذا المعرض الكبير هو صك الاعتراف بكفاءته .. وتم تعيينه مشرفا على النشاط الفني فى أحد نوادي الشباب التي تفتح أبوابها مساء . وفي هذا العمل يقوم بتدريس أصول الرسم للهواة بينما يتفرغ لفنه صباحا .

الأمطار الحمضية

أما موضوعات فنه وتلك التي تدور حولها أعمال تلاميذه فهي موضوعات تعالج القضايا والمشاكل التي تشغل الناس في أوربا عامة وألمانيا خاصة ، وعلى رأسها موضوعات تلوث البيئة والخوف من الإشعاعات الذرية والتفجيرات النووية وما أشبه ..

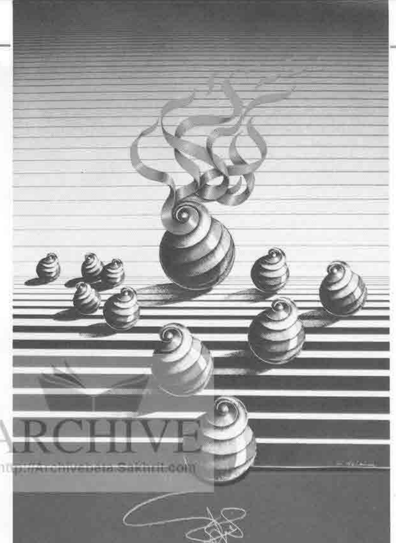
لقد انشغل الألمان منذ فترة وجيزة بقضية (الأمطار الحمضية) التي أدت إلى تدمير جانب كبير من الغابات في شمال ألمانيا .. وظاهرة موت وانقراض الأشجار الدائمة الخضرة في بعض المناطق نتيجة للأبخرة والفضلات الغازية التي تفرزها المصانع ثم تختلط بالسحب وتعود مع مياه الأمطار فتقتل نباتات وأشجار الغابات التي تسقط فوقها ، لامتصاصها هذه المواد السامة من التربة أو نتيجة لتراكمها على الأغصان فتعوق العمليات الحيوية كالتنفس والنتح والتمثيل الضوئي .. وهكذا لم تبق في مساحات شاسعة من غابات شمال ألمانيا سوى الأشجار التي تتجدد أوراقها كل عام ، أما تلك الدائمة الخضرة فقد ذبلت وماتت في تلك المناطق التي نكبت بالأمطار الحمضية الناتجة عن تلوث البيئة .

هذه المسألة شغلت معظم أفراد الشعب الألماني وترتب عليها قيام حزب قوى له عدد لا يستهان به من المقاعد في البرلمانات ومجالس المدن ، إلى الحد الذى جعل الأحزاب السياسية الكبرى تعمل على إرضاء هذا الحزب وكسب تأييده وإضافة جوانب من برنامجه إلى برامج تلك الأحزاب الكبرى .. هذا الحزب يطلق على نفسه اسم (حزب الخضر) اشارة إلى اهتمامه بالدفاع عن المناطق الخضراء من حقول وغابات في مواجهة الزيادة المستمرة في معدلات تلوث البيئة .

مثل هذه القضية التي لم تحتل بؤرة اهتمام كل شعوب الأرض بنفس القدر الذي نجده عند الشعب الألماني ، تعتبر من أهم الموضوعات التي يدور حولها فن (غازى الدليمي) .. وقد أطلق على أحد معارضه اسم (الجحيم) لأنه يجسد المخاطر التي تهدد الانسان من تلوث البيئة . وقد ساهم الأعضاء المتحمسون في حزب الخضر بشمال ألمانيا في الدعاية لهذا المعرض .

اعتراف رسمي وشعبي

ثم ما لبثت بلدية المدينة بعد الاهتمام الواسع بهذا المعرض أن اختارته عضوا بلجنة التحكيم في مسابقة لعمل الأشكال الفنية من تجميع أشياء مختلفة ملونة (فن الكولاج) .. وكانت هذه اللجنة تضم ناقدا فنيا وموظفا بوزارة الثقافة ومدير مجمع الفنون بشمال الراين ــ المنظم للمسابقة ــ بالإضافة



« لوحة » : من أعمال الفنان عام ١٩٨٢

مرسم على (الراين)

وعندما أعلنت بلدية مدينة دوسلدورف عن وجود مراسم للفنانين بإيجار رمزى في أجمل المناطق الهادئة المطلة على نهر الراين ، تقدم الفنان بطلبه مشفوعا بنماذج من أعماله ليتأكد المسئولون في بلدية دوسلدورف من جدية الطالب ومستواه الفني .. وبلغ عدد المتقدمين للمرسم الواحد ٢٥ فنانا معظمهم من الألمان،لكن اللجان المسئولة عن هذه المراسم اختارت الفنان العراقي ليشغل أحدها ، وهو عبارة عن طابق في قصر قديم من طابقين بني منذ مائة عام بالقرب من مدينة دوسلدورف .. وفي هذا المرسم أقام الفنان بعض معارضه كما عرض لزملائه من الفنانين ، فأصبح موقع جذب لعشاق فنه ومجموعة من الأصدقاء تتسع باستمرار .

وعندما شارك (الدليمي) في أحد المعارض الجماعية تصدرت صورة هذا القصر دليل المعرض .

أما الصحافة الألمانية وخاصة جريدة الراين المحلية فهي تتابع نشاطه من حين لآخر سواء المعارض التي يقيمها لتلاميذه من الهواة الملتحقين بنادى الشباب أو معارضه الخاصة .



اللون الأخضر والأمل في مستقبل الإنسان



لوحة للفنان من مرحلة الفن البصري (١٩٧٥) ونرى فيها التدرج والتجسيم في هذا الاتجاه لأول مرة



في هذه اللوحة التي تمثل ـ أيضاً ـ مرحلة الفن البصري في المشوار الفني للفنان (١٩٧٢) يحاول أن يبعث فينا الأمل في حياة جديدة ونبت جديد

إلى رسام ومثال ، وعرضت أعمال المتسابقين فى متحف (يوجر هوف) أكبر متاحف مقاطعة شمال غرب ألمانيا .

وفى مايو عام ١٩٨٤ أقام الفنان معرضا فى مدينة (مونستر) بالاشتراك مع الفنان التركي (إحسان أجا) وكان معرضا كبيرا عبر فيه الفنان عن مشاعر المغتربين المقيمين فى ألمانيا .. ويقول « الدليمي » إن بداية اعتراف أفراد الشعب الألماني بالفنانين الأجانب المقيمين بها بدأ من ذلك التاريخ .. فقد شاهد المعرض جمهور غفير وعبر الجميع عن دهشتهم للمستوى الذى حققه فنانان أجنبيان بحيث ينافس ويتفوق على مستوى نظرائهما الألمان .

خلال فترة المعرض دعا أكبر فناني مدينة (مونستر) الفنان العراقي لزيارته في بيته تعبيرا عن إعجابه بفنه وتكريما لموهبته ، وقام بشراء احدى لوحاته كما اشترت ابنته لوحة أخرى .

وهكذا ظهر اسم غازى الدليمي فى قاموس فنانى مدينة دوسلدورف السنوي حيث احتلت إحدى لوحاته المطبوعة بالألوان مع نبذة عن حياته وفنه إحدى صفحات القاموس . وقدمه واضعو هذا القاموس على أنه ينتمى إلى المذهب السريالى .

مميزات فنــه

وتتميز أعمال الفنان بالدقة فى الرسم مع تناسق الألوان ، كما أن المجموعة اللونية التي يستخدمها لها خصوصيتها ووقعها المتميز بصريا .. فقد أضاف التجسيم إلى (الفن البصري) الذي عرف بأنه يتلاعب بالألوان المتضاربة على سطح اللوحة دون الاهتمام بالتجسيم أو العمق . أما رسوم (الدليمي) فهي توحى بأن لها حجمها وبروزها .

ونلاحظ انه ليس هناك شيء واضح من الفن الشرقي فى أعماله ، وفى المرحلة الأولى من فنه كان يعتمد اعتمادا كليا على الأشكال الحادة الحواف مع استخدامه للألوان النقية الحمراء والزرقاء والصفراء .. لقد عاش خمسة عشر عاما فى ألمانيا وكان لهذه السنوات تأثيرها الشديد على انتاجه الفني ، بالطبع له وجهة نظر نقدية للمجتمع الذي يعيش فيه ولما يحدث حوله ، لكنه فنان يفكر من خلال الألوان والأصباغ ويعبر عن الأوضاع المحيطة به من خلال هذه الأدوات .

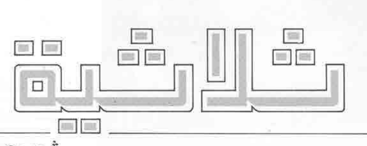
فى مرحلة أخرى كان اللون الأزرق غالبا على أعماله ويسيطر على المساحة الخلفية فى كل صوره ، ويتدرج من الأزرق القاتم إلى السماوى الفاتح ويمكن أن نرد هذا إلى سماء بلادنا الصافية التي يتشوق إلى استعادتها فى ذاكرته عوضا عن السماء الألمانية الداكنة والملبدة دائما بالغيوم .. وهو يرسم لوحاته بصبر شديد حتى أن بعضها يتكون من ملايين النقط الصغيرة المتجاورة ، وهو يحقق ذلك بأسلوب غاية فى الدقة والاتقان وبألوان ناصعة مبهجة .

إن موضوع تهديد العالم بالخراب نتيجة للمخترعات الحربية الحديثة . هذا الموضوع يشغل جانباً كبيراًمن لوحاته التى يختار لها أسماء تشير إلى هذا القلق والتوجس : (ولادة الحياة بعد دمار البشرية) . (ثقب فى الكرة الأرضية) . (الكرة الحائرة) (بعد الكارثة) ..

وتحت عنوان «ضوء وألوان» كتب أحد النقاد مقالا طويلا حول الإضاءة في أعمال (غازى الدليمي) وكيف أنها تتبع منطقا رياضيا نابعا من نوعية الألوان التي يستخدمها وطريقة تدرجها مع اتباع المنهج السريالى في ترتيب العناصر . سألته عن الهرم وإلى أى شيء يرمز فى لوحاته أجاب : الازدهار والارتفاع ..

أما أعماله فيتغير شكلها وتأثيرها تبعا لاختلاف زاوية النظر إليها . إنها ملفتة للنظر بشكل ملحوظ ، فرغم أنه يتناول موضوعات متشائمة تذكرنا بالتهديد بفناء البشرية إلا أنه يغلف هذا الموضوع التراجيدى بألوان مبهجة ورموز توحى بقوة هائلة ستأتي لتنقذ العالم ، فيبعث فينا الأمل في حياة جديدة ونبت جديد ونشء جديد مجددا الأمل والثقة فى أن الانسان لن يرتكب هذه الحماقة أبدا .

صبحى الشارونى



شعر: عيد صالح

ـ ١ ـ

أخرج للطرقات
مرتدياً ثوب الأرصاد
أسترجع أوراقي .. خطط اليوم ... لقاءاتي
آخر ما بثته الأخبار
والأقمار
أستجمع أسلحتي .. أقنعتي .. قواتي
« في الجمع الثرثار الهارب
أتمادى في تصريحاتي
والوّح بنفوذي وكنوزي
وفتوحاتي »
لكني حين أعود
تترنح خطواتي
أسقط مقهوراً
في ظلماتي
وفراغاتي

ـ ٢ ـ

لو أني كنت كغيري
منتفخاً مملوءاً باللاشيء
وركبت المدّ اليومي
أنساب خفيفاً ورشيقاً
أتداخل في الناس
يتداخل فيَّ الناس
أضحك من أعماقي
وأكشر عن أنياب الغضب الوحشي
حين يهاجمني الأوباش
أنفض عني
أتربة الطرقات
ودُخان الغرفات
ورذاذ المدّ اليومي
أعود كأني
لم يمسسني يومي
لو أني
لو أني

ـ ٣ ـ

أصحو من صحوي
منتفخ العينين
رأسي رأسين
جسدي النائم في أحضان الإجهاد
أسحبه عنوه
أطرحه في الماء البارد
أحقنه بالقهوة والسيجاره
أنخسه بمواعيد اليوم الضاري
لكن جوادي المتداعي
يصهل فجأة
يرفع خاصرته
يسقط في ميدان البيت
وخوار الموت المنقض
يطفح من شدقيه .



محمد مزالي ، مع رفيق العمر والفكر البشير بن سلامة

مهرجـــان أدبي بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على "مجـلة الفكـر"

حياة حافلة بأهمّ القضايا الفكرية

بقلم : رابـح لطـفي جمعــة

أسعدتني الظروف بحضور مهرجان أدبي رفيع أقيم في تونس خلال الفترة من ٧ إلى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٨٥ احتفالاً بمرور ثلاثين عاماً على صدور مجلة الفكر لصاحبها ومؤسسها الأستاذ الأديب والمفكر العربي محمد مزالي . وقد شاركت في هذا المهرجان الأدبي وفود من بعض الدول العربية منها مصر والعراق والأردن والمغرب وسوريا . كما حضره محمود درويش الشاعر الفلسطيني المعروف وجاك بيرك من فرنسا وغيرهم من رجال الفكر والأدب والصحافة في أوروبا وأمريكا فضلا عن أدباء تونس وشعرائها ونقادها .

لقد صدرت مجلة « الفكر » عام ١٩٥٥ مع تباشير فجر الاستقلال الوطني لتونس كمشروع قومي ورسالة وطنية ولكنها مع ذلك كانت وليدة إرادة ذاتية وجهد شخصي ولم تكن منذ صدورها وحتى الآن تابعة لأية جهة رسمية أو لسان أية مؤسسة حكومية ، فكان صدورها ـ كما قال محمد مزالي في كلمته في حفل افتتاح المهرجان :

« في المرحلة الفاصلة بين عهد الاستعمار وفجر الاستقلال بمثابة بواكير تونس الجديدة ، تونس الحرة والمستقلة ، تونس الأصالة والتفتح ، تونس المعتزة بعروبتها وإسلامها والمنطلقة إلى حضارة جديدة وفكر رائد وأدب ينبع من الذات ويعبر عن الواقع ويلتزم ـ بدون إلزام ـ بقضايا الشعب ويشارك باختيار حر في مسيرة التقدم ومعركة البناء » .

والحديث عن مجلة « الفكر » متشعب النواحي متعدد الاتجاهات ، فهي مجلة عربية رائدة في مجالات شتى وميادين مختلفة ، ولعل تأكيدها على إبراز الشخصية التونسية فيما تنشره من نتاج فكري وأدبي لن يكون من أهم ما يميزها ، تلك الشخصية التونسية التي يجد الانسان فيها ـ كما يقول رجاء النقاش ـ نموذجاً أصيلاً للجانب المتحضر الراقي من الشخصية العربية .

وفي هذه الصفحات لن أتحدث عن ظاهرة استمرارية صدور المجلة دون انقطاع أو تعثر طيلة ثلاثين عاماً ولا عن طول نفسها وصمودها وتجاوزها كل العقبات والصعوبات التي كانت تعترض الطباعة والنشر إبان صدورها ، ولا عن نضال مؤسسها طوال هذه الفترة ووقوفه بعزيمة وإصرار في وجه جميع المثبطات التي واجهها وثباته أمام جميع التحديات التي صادفته ومقاومته لعوامل التخذيل والاحباط ، تعاونه كوكبة من رفاق القلم المؤمنين برسالة الفكر في بناء الانسان العربي المعاصر وفي مقدمتهم رفيق الدرب الأستاذ الأديب البشير بن سلامة رئيس تحرير المجلة .

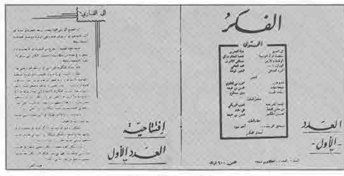
ولن أتحدث عن المعارك التي خاضتها المجلة في سنواتها العشر الأولى من عمرها في سبيل استقلال تونس الكامل وفرض السيادة التونسية وتجسيم إرادة الشعب وتحرير المرأة التونسية وترسيخ الشخصية التونسية وتكوين الانسان العربي تكويناً يحقق الهوية العربية الاسلامية ودعم اللغة العربية وتعريب التعليم تأكيداً لانتماء تونس إلى الحضارة العربية الاسلامية .

ولن أتحدث عن دور المجلة في تدعيم حرية الفكر وحرية الأدب وفتح أبوابها على مصاريعها بعد أن عانت تونس في ظل الاستعمار الفرنسي وتحت الحماية الأجنبية أشد صنوف الكبت والحرمان .

ولن أتحـدث عن دور المجلة الطليعي وإسهاماتها المتعددة في مجالات الفكر والأدب والثقافة والابداع الفني وتفتحها على كل التيارات والاتجاهات والمذاهب الأدبية والفكرية والثقافية المعاصرة ، وتجنبها القوالب الجاهزة والتقوقع في الأساليب المتحجرة أو اللجوء إلى البروج العاجية ، ولا عن رعايتها لكل المواهب الأصيلة والمحاولات الجادة الواعدة سواء في ميدان الشعر أو القصة أو الرواية أو المقال أو الدراسات النقدية أو الاجتماعية أو التاريخية ، ولا عن إتاحة الفرصة لأجيال الشباب المتعاقبة للكتابة على صفحاتها وإبراز صورة حية وصادقة للحياة الأدبية والفكرية المعاصرة في تونس .

ولن أتحدث عن أهم ما تتميز به المجلة من أصالة ومعاصرة وتفتح ، تلك الملامح الأساسية التي جعلت منها مجلة عربية رائدة في مجال الصحافة الأدبية والثقافية الرفيعة في العالم العربي ، بقدر ما جعلت منها منارة مشعة وعلامة بارزة على طريق النهضة الفكرية والأدبية التونسية المعاصرة .

ولن أتحدث عن معالجة المجلة لقضايا تونس المستقلة وقضية إثبات الذات العربية الاسلامية وقضية النمو والتطور وقضية التونسة والتعريب



العدد الأول من مجلة الفكر (١٩٥٥)

وقضية الحوار مع الثقافات والحضارات الأخرى، وجميعها أفكار ومبادىء نادى بها محمد مزالى فى كتاباته ومحاضراته وعمل على ترسيخها وتجسيدها فيما تنشره المجلة حتى أننا نستطيع أن نقول إن آراء مزالى ونظرياته تعد الأساس الفكرى والنظرى الذى يمكن أن نلمحه بقدر أو بآخر فى الاتجاهات الفكرية التى طبعت المجلة بميسمها خلال ثلاثين عاماً.

لن أتحدث فى هذه الصفحات عن شىء مما سبق، فهذا كله يحتاج إلى عشرات من المقالات والبحوث والدراسات، وإنما سوف أقصر حديثى على ناحية واحدة أعتقد أن أحداً من الذين كتبوا عن «الفكر» لم يتناولها بما تستحقه من الالتفات إليها والاهتمام بها بالرغم من أن مؤسس المجلة الأستاذ محمد مزالى قد نبه إليها فى أكثر من مناسبة، تلك هى دور المجلة فى مد الجسور الفكرية والأدبية والثقافية بين المغرب والمشرق العربيين، وبعبارة أخرى دورها فى التواصل والتلاقح الفكرى والأدبى والثقافى بين أقطار الوطن العربى الكبير.

لقد كانت «الفكر» منذ صدورها وحتى الآن ملتقى للأقلام الجادة فى تونس ومن مختلف البلدان العربية، فالتقى فى ساحتها المفكرون والأدباء العرب من المشرق والمغرب، ودرج فى رحابها جيل من الشيوخ والكهول والشباب على اختلاف اهتماماتهم ونزعاتهم وتباين مشاربهم ومذاهبهم وتعدد أساليبهم ومناهجهم وتفاوت أعمارهم وأجناسهم واختلاف أقطارهم وأمصارهم، فلم تكن مجلة شخص أو مجموعة من الأشخاص بعينها وإنما كانت كما قال بحق الاستاذ محمد مزالى فى السنوات الأولى من صدورها «ملتقى لأسرة الأدباء والمفكرين ومنبراً لكل الآراء الصادقة والأفكار البناءة ورائدة فى إبراز التراث الفكرى فى الوطن العربى».

لقد تمسكت «الفكر» منذ صدورها بحرية الفكر والذود عن حرية المفكر والأديب رائدها إبراز الشخصية الأدبية القومية وتعزيز مقومات الثقافة الوطنية، والاسهام فى إثراء التراث الفكرى فى الوطن العربى الكبير ومد الجسور والتواصل الفكرى والثقافى بين المغرب والمشرق إيماناً منها بأن النهضة الأدبية المنشودة ثمرة لجميع جهود الأدباء مهما كانت أساليبهم ومدارسهم وأعمارهم وأقطارهم.

وبقدر ما كانت الفكر «أحسن بطاقة تعريف للثقافة القومية والأدب التونسى الحديث» كما يقول الأستاذ الأديب رشيد الذوادى. بقدر ما جعلت من أهدافها الأساسية التى وضعتها نصب عينيها رعاية الأدب العربى فى المغرب العربى وخلق حركة أدبية ونقدية فعالة ومؤثرة وتشجيع الحوار الايجابى البناء بين مختلف الأفكار والتيارات وإقامة الجسور الفكرية والثقافية بين المغرب والمشرق العربيين.

لقد أسهمت «الفكر» فى تقريب الرؤية وتبادل الخبرات والتجارب بين المثقفين العرب على اختلاف أقطارهم وتمكنت من الانتشار فى الداخل والخارج بفضل ما ينشر فيها من نتاج يتميز بالأصالة والمعاصرة والابداع والابتكار والدسامة والثراء. فكانت بحق مجلة الأدباء والمفكرين العرب على الصعيد القومى وعلى الصعيد العربى.

هذا التفتح على جناحى العالم العربى مشرقه ومغربه، وهذا التواصل الفكرى والأدبى والثقافى بين المغرب والمشرق، أعطى لمجلة «الفكر» عند القراء طعماً خاصاً ومذاقاً متميزاً بين المجلات الأخرى فى العالم العربى. وهذا هو الذى جعلها تتبوأ مكانها بين المجلات الفكرية والأدبية والثقافية التى عرفها الوطن العربى فى العصر الحديث، وهيأ لها أن تكون رائدة فى مجالات شتى وميادين مختلفة ومنارة توجيه وشاهدة عصر ووثيقة تاريخية لحركة الفكر والأدب والثقافة ليس فى تونس فحسب بل فى العالم العربى أجمع.

وقد أكد الأستاذ محمد مزالى على أهداف «الفكر» فى مد الجسور الفكرية والثقافية والأدبية بين الأقطار العربية فقال «إن ما وصلت إليه المجلة إنما هو انطلاق محمود فى سبيل غايات أخرى أهمها الزيادة فى رواج المجلة فى الوطن العربى إحكاماً لمد الجسور بين الأقطار العربية وضمان التلاقح المجدى بين النخب العربية حتى تتكامل أو تصل إلى انتاج من شأنه أن يلفت أنظار العالم بخصائصنا وابداعنا ويجعلنا نساهم فى الثقافة الانسانية برصيد مرموق يعترف به القاصى والدانى».

هذا التواصل الفكرى والثقافى والأدبى بين المشرق والمغرب، جعل من مجلة «الفكر» نافذة نطل منها نحن المشارقة على إنتاج تونس بل على إنتاج المغرب العربى كله، فقد أسهمت المجلة فى إخراج الأدب التونسى من الطوق الذى أحكم حوله وجعله لا يتخطى حدود تونس، فأصبح بفضل هذه المجلة ــ كما يقول مزالى ــ معروفاً لدى الأوساط الأدبية والعربية والأجنبية. وإذا كان من أهداف المجلة أن تمكن الأدب التونسى من تكسير الطوق الذى ضرب حوله وتنشره بين الناس فى الوطن العربى ليكون مرجعاً للباحثين والدارسين، فقد حققت المجلة هذا الهدف.

فمنذ أن ظهرت «الفكر» وقطعت هذه الخطوات العديدة فى طريق الحياة الأدبية والفكرية فى تونس، استطعنا نحن المشارقة بكل وضوح فى الرؤية وبكل تذوق للفن والابداع أن نتعرف على الأدب التونسى وأن نقف على سمات هذا الأدب وخصائصه ومميزاته ومقوماته. فعرفنا أنه أدب غنى وعريق وأصيل ووفى لماضيه وتراثه الحضارى العربى والاسلامى، يحمل فى ثناياه الكثير من العناصر الجمالية والمقومات الفنية والتجديد والتطور، وتعرفنا من خلال المجلة على أسماء تونسية مبدعة فى الشعر والقصة والرواية والمقال والدراسات النقدية والاجتماعية والتاريخية. وقبل هذا كله وبعد هذا كله وقفنا على الذاتية التونسية أو الشخصية التونسية المتميزة فى هذا الأدب واستطعنا أن نتعرف على الروح التونسية الأصيلة العريقة فى النتاج الأدبى والفكرى وأن نلمس المقومات والعناصر العربية والاسلامية التى يستند إليها هذا النتاج والتى استوحاها واستلهمها كتاب المجلة وشعراؤها، كل هذا عرفناه ولمسناه ووقفنا عليه وتذوقناه بعد أن ظهرت مجلة «الفكر» منذ ثلاثين عاماً.

وهكذا كانت «الفكر» منبراً تعرف المشرق العربى من خلاله وبواسطته على الأدب التونسى المعاصر بخاصة والأدب المغربى بعامة، وهكذا كانت «الفكر» مشعلا فى طريق النهضة الأدبية فى تونس واصلت وتواصل مسيرتها لتؤدى رسالتها فى خدمة الأدب وتطويره ومد الجسور بين الأجيال المتعاقبة وتحقيق التلاقح بين التيارات الفكرية التى يزخر بها عصرنا الحديث.

وبعد.. فهذه تحية خالصة وتهنئة حارة أزجيها لمؤسس «الفكر» الأستاذ محمد مزالى ولرفيق الدرب والقلم الأستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير المجلة بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على صدورها متمنياً لها الازدهار ولمؤسسها ولجميع أعضاء هيئة التحرير دوام التوفيق والسداد.



أحمد بن ماجد
الملاح العربي المفترى عليه

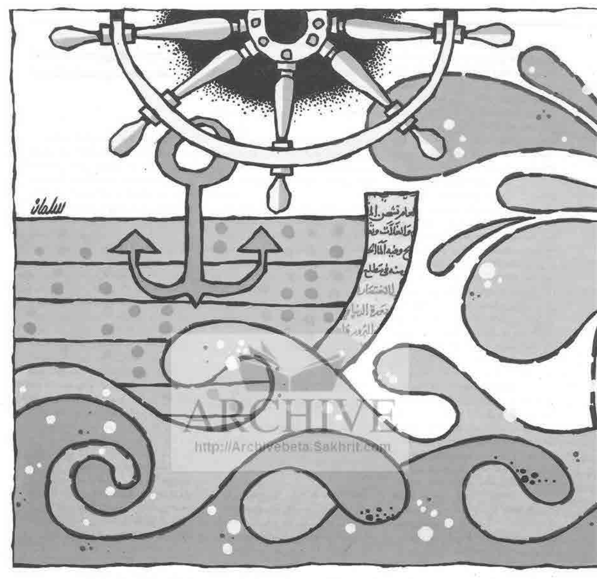
بقلم: الدكتور أنور عبد العليم

لست أدرى لماذا نصر على أن نفخر بما ليس مدعاة للفخر وننساق وراء خطأ وقع فيه مستشرق فرنسى منذ أكثر من نصف قرن ، فُتِنَّا به وصرنا نردده وراءه وكأنه قضية مسلمة دون أن نكلف أنفسنا حتى مجرد مناقشته .

إن مسألة ارشاد الملاح العُماني أحمد بن ماجد لسفينة فاسكودى جاما البرتغالى من ميناء ماليندى على ساحل كينيا إلى الهند أمر مشكوك فيه إلى حد كبير،وإليك البرهان .

البرتغال وتجارة الهند

خلال القرن الخامس عشر الميلادى كانت تجارة الهند فى أيدى العرب والطريق إليها عبر الثغور المصرية والشامية فالبحر الأحمر فى قبضة المسلمين . ولما كانت حاجة أوروبا إلى توابل الشرق ماسة للغاية فقد سعى الأسبان والبرتغال بصفة خاصة إلى البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى الهند اعتمادا على فكرة كروية الأرض واتصال بحر الظلمات بأرض الهند . أما كريستوفر كولمبس الإيطالى الجنسية فقد أبحر بأسطول جهزه له ملك أسبانيا فى ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ غرباً فى بحر الظلمات فاكتشف نصف الكرة الغربى التى ظن أنها



الهند فى أول الأمر وعادت مراكبه إلى أسبانيا فى ١٥ مارس سنة ١٤٩٣ دون أن يدرى أنه اكتشف الدنيا الجديدة !

وأما البرتغال فقد سلكوا سبيلا آخر ، إذ قاموا بعدة محاولات ملاحية منذ منتصف القرن الخامس عشر حول الساحل الغربى لأفريقيا بغية الوصول إلى الهند . واكتشف ربانهم المسمى برتليميو دياز رأس العواصف (التى سميت رأس الرجاء الصالح فيما بعد) فى عام ١٤٨٧ ـ ١٤٨٨ أى قبل أن يبحر فاسكو دى جاما إلى الهند بعشر سنوات . وفى نفس الوقت كانوا يرسلون الجواسيس لجمع معلومات عن الهند عن طريق السفر عبر البحر الأحمر متظاهرين بالتجارة . ومن هؤلاء بعثة ألفونسو دى بايفا وبيرو دى كوفيلهام وقد سافرا إلى مصر سرا قبل كولمبس بعشر سنوات أيضا متظاهرين بالاسلام وأخذا مركبا عربيا من القلزم إلى عدن ومن ثم إلى الهند حيث زار دى كوفيلهام ميناء قاليقوط على الساحل الغربى للهند وهى أول ميناء نزل بها دى جاما فيما بعد ثم عبر دى كوفيلهام المحيط الهندى على سفينة هندية من الشرق إلى الغرب ونزل بميناء سفالة على ساحل أفريقيا الشرقى على خط عرض ٢٠ درجة جنوب خط الاستواء . وعاد الى مصر عن طريق النيل ومعه ذخيرة من المعلومات عن تجارة التوابل والطريق إلى الهند . كل هذا قبل أن يبحر دى جاما من البرتغال لأول مرة بعشر سنوات تقريبا .

ومن ثم يمكن القول بأن بعثة دى جاما إلى الهند قد أحسن تخطيطها والإعداد لها وكان البرتغال على علم بما يجرى فى المحيط الهندى فى ذلك الوقت .

الابحار إلى الهند

أبحر دى جاما من ميناء صغير بالبرتغال فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٤٩٧ م على أسطول مكون من ثلاث سفن هى سان جبرائيل وهى سفينة القيادة وسان رافائيل بقيادة باولو شقيق دى جاما ، وسان ميجيل وتولى قيادتها الربان نيقولا كولخا وكان جملة بحارة الأسطول مائة وخمسون فردا .

أحمد بن ماجد

الملاح العربي المفترى عليه

احتضن فاسكو دى جاما الساحل الغربي لأفريقيا طول الوقت حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح في أقصى الجنوب من القارة الأفريقية فاجتازها في يوم ٢٢ نوفمبر من نفس السنة وواصل رحلته على الساحل الشرقي لأفريقيا فوصل اقليم ناتال في عيد الميلاد وسميت الأرض بهذا الاسم تيمنا بالمناسبة (وكلمة ناتال تعني الميلاد وهي مناسبة ميلاد المسيح).

وفي شهر يناير سنة ١٤٩٨ فقد دى جاما السفينة سان ميجل نتيجة العواصف وحمل بحارتها على السفينتين الباقيتين وواصل الملاحة شمالا على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى بلغ ثغر ماليندى في مملكة كامبيا (كينيا الآن) على خط عرض ٣ درجة جنوب خط الاستواء وذلك في شهر مارس سنة ١٤٩٨ . وهناك ألقى مراسيه لبضعة أسابيع للاستجمام والإعداد لرحلة عبور المحيط. كما عرف بأن الهند تبعد عن ماليندى بنحو ١٦٠٠ فرسخ . وفي تلك المدة تصادق الربان البرتغالي مع ملك ماليندى وطلب إليه أن يوفر له مرشدا يعينه على معرفة الطريق إلى الهند . فأرسل إليه الملك « ربانا مسلما من جوزرات » وأبحر دى جاما يوم ٢٤ أبريل سنة ١٤٩٨ بارشاد الربان المذكور شرقا إلى الهند فوصل ميناء قاليقوت بعد ٢٢ يوما دون عناء ، وتجمع المصادر البرتغالية ـ كما سنرى عما قليل ـ على أن اسم الربان المذكور هو المعلم « كانا » أو « كاناكا » . ومن المعلوم أن مقاطعة جوزرات كانت ولا تزال تابعة للهند وتقع في الركن الشمالي الغربي لشبه القارة الهندية على ساحل المحيط جنوب السند ومن موانيها المشهورة « ديو » و« سورات » ومن سكانها مسلمون منذ القرن الأول للهجرة .

الملاحة عبر المحيط الهندى

والواقع أن الملاحة عبر المحيط الهندى من الساحل الأفريقي إلى الساحل الهندى مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية صيفا (من شهر مارس أو أبريل إلى شهر سبتمبر) كانت معروفة لربابنة المحيط الهندى من العرب والعجم والهنود والزنوج من قبل عصر دى جاما وابن ماجد بقرون طويلة . وتعكس هذه الرياح اتجاهها في فصل الشتاء فتسير الملاحة في الطريق المضاد أى من الهند وجنوب الجزيرة العربية نحو ساحل الزنج . وفي ذلك يقول ابن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » الذي يرجع زمن تأليفه لعام ٨٤٦ ميلادية (القرن الثالث الهجرى) :

« وسئل اشتيامو البحر عن المد والجزر فذكروا أنه يكون في بحر (فارس) على مطالع القمر وأنه لا يكون في البحر الأعظم (المحيط الهندى) إلا مرتين في السنة مرة يمد البحر في شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر .. ومرة يمد في شهور الشتاء غربا بالجنوب ستة أشهر (يعنى التيار البحرى) » .

وفي كتاب « عجائب الهند » للربان بزرج بن شهريار الرامهرمزى (القرن الرابع الهجرى) يرد ذكر ربابنة هنود وعرب وعجم كانوا يسافرون بين موانيء الخليج العربي والهند وساحل الزنج باستمرار .

وفي عصر ابن ماجد كانت قوانين الملاحة مدونة ضمن قوانين الدول المطلة على المحيط الهندى مثلما في قوانين مملكة الملايو الصادرة بأمر الأمير محمود شاه وابن ماجد نفسه كانت له مساجلات في علم البحر مع ربابنة عجم وعرب وزنوج وهنود وقد قرأ مؤلفاتهم . وهو يقول في « حاوية الاختصار » (١) .

قد راح عمري في المطالعات
وكثرة التساؤل في الجهات

● كان ابن ماجد يهاجم البرتغاليين ، فكيف يقوم بإرشادهم في رحلاتهم البحرية؟

وكم رأيت من خطوط الشول
ونظمهم والنثر والفصول
وكم نظرت في الحساب العربي
وحسبة الهند مذ كنت صبي
وفي جنوبي جاوة والصين
والفال علما صادقا يقيني

كما يقول في أرجوزته المسماة « ميمية الابدال » في معرض انتصاره على قرنائه من الربابنة الآخرين :

وألقوا سلاح الجهل لما تحققوا
مقالى في عرب وعجم وديلم

مرشد السفينة في المصادر البرتغالية

تجمع المصادر البرتغالية ومنها يوميات الرحلة وأقوال المؤرخين البرتغال الذين أرخوا لحملات البرتغال في المحيط الهندى (٢) ولعصر الملك ما نويل الثانى الذى حكم البرتغال بين سنوات ١٤٩٥ ـ ١٥٢١ م وتمت الكشوف الجغرافية الكبرى في المحيطات على عهده (وتوافق هذه الفترة فترة حكم السلطان الغورى في مصر ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م) على أن مرشد فاسكو دي جاما في رحلته الأولى إلى الهند كان ربانا هنديا مسلما من جوزرات بالهند (وقد خلط البعض بين كلمة مسلم وكلمة بربرى أو Moor التي كانت تطلق على مسلمي الأندلس وقتئذ) كما أن كلمة معلم أو « معلمو » بالسواحلية تعنى الربان أو الحاذق في صناعته وهي كلمة كانت شائعة الاستعمال بين ربابنة المحيط الهندى في ذلك الوقت على اختلاف جنسياتهم .

يقول المؤرخ البرتغالي خوادى باروش (٣) Joao de Barros في هذا الصدد :

« في أثناء وجود فاسكو دي جاما في ماليندى تقابل مع جماعة من الهنود على ظهر سفينته وكان بينهم أحد « البربر » (يعنى مسلما) من الجوزرات يدعى معلمو « كانا » جرت بينه وبين مواطنينا (يقصد البرتغال) محادثات.ورغبة منه (من الربان المذكور) في ارضاء ملك ماليندى قبل أن يتوجه به إلى الهند . وبعد محادثات بينه وبين دي جاما رضي الأخير كل الرضا عن معلوماته (٤) ووجد فيه « كنزا » ثمينا وخشية أن يفقده أمر على الفور بالابحار إلى الهند في ٢٤ أبريل فوصل الى قاليقوت في ٢٠ مايو أي في أقل من شهر وأرسل الربان البرتغالي معلمو كانا إلى اليابسة ليبلغ ملك البلاد بوصول سفنه » .

ويقول المورخ البرتغالي لوبيز دي كاستنهيدا (٥) Castenheda de F. Lopez :

« وصل دي جاما إلى ماليندى في ١٥ مارس سنة ١٤٩٨ م وفي ٢٢ أبريل ارسل إليه ملك ماليندى ملاحا من الجوزرات يدعى المعلم « كاناكا » وفي ٢٤ أبريل أبحر دى جاما بارشاد هذا الملاح إلى كاليكوت متجها صوب الشرق فوصلها في ٢٠ مايو بسلام وهي على الضفة الغربية للهند (٦) .

وحتى شاعر البرتغال العظيم في القرن السادس عشر واسمه لويس كاموس L. Camoes لم يذكر مطلقا في ملحمته الشعرية Os Lusiados اسم ابن ماجد على الاطلاق .

ويقول المؤرخ البرتغالي داميو دي جويس الذي أرخ لعصر الملك مانويل الثانى ملك البرتغال عن ملاح فاسكو دي جاما في مذكراته ما نصه « أعطى ملك ماليندى فاسكو دي جاما ملاحا ماهرا هو « مسلم » (والنص الأصلي يعنى بربريا) من الجوزرات يعرف باسم معلمو « كانا » Cana .

ويتضح من هذه النصوص السابقة كلها والتي يؤيد اتفاقها وصحتها اتفاق التواريخ واسم الملاح المرشد وموطنه الأصلي على أنه ربان هندى مسلم من مقاطعة الجوزرات . ثم إن تواريخ هذه النصوص أقرب ما يكون لرحلة فاسكو دي جاما إلى الهند ، وما جاء من نصوص بعدها متعلقا بجنسية المرشد متأخر في الزمن عنها .

ويحق لنا أن نتساءل إذن عمن أقحم ملاحنا العربي القدير أحمد بن ماجد النجدى في هذه القضية وتحت أية ظروف ؟ وهل يعقل أن يحرف اسم المعلم « كانا » أو « كاناكا » إلى أحمد أو إلى ابن

ماجد ؟ وهل كانت مقاطعة جوزرات الهندية موطنا لملاحنا العربي بحال من الأحوال ؟

المستشرق الفرنسى وابن ماجد

جابرييل فران Gabriel Ferrond مستشرق فرنسى ألمعى أجاد اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية إجادة تامة ، كما ألم بلغات شرقية أخرى كالسواحلية والأردية والهندية ولغة الملايو وقد عمل فى السلك السياسى الفرنسى لفترة طويلة فى بلاد الشرق وأغلب انتاجه العلمي يتصل بالملاحة العربية ولا يمكن بحال من الأحوال إلا أن ندين له بالفضل فى هذا المجال . وليس معنى هذا أن نأخذ كل ما يقول قضية مسلمة لا تقبل المناقشة .

فى الثلث الأول من القرن العشرين عثر فران فى ارشيف المكتبة الأهلية بباريس على مخطوطين هامين عن الملاحة العربية الأول منهما تحت رقم ٢٢٩٢ والثانى تحت رقم ٢٥٥٩ ويتكون المخطوط الأول من ١٨١ ورقة تحتوى على تسع عشرة أرجوزة تصف الطرق البحرية وأصول الملاحة الفلكية فى البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندى للربان العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى بن أبى الركائب النجدى حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم العربى وناظم القبلتين (مكة وبيت المقدس) وبشهاب الدنيا والدين وبأسد البحر وليث الليوث . أما المخطوط الثانى فيتكون من ١٨٧ ورقة تحتوى على خمس أراجيز فى علم البحر اثنان منهـا لابن ماجد وتكرر تدوينهما فى المخطوط الأول . أما الثلاثة الاراجيز الباقية فلربان عربى ماهر آخر عاصر ابن ماجد وهو سليمان المهرى من عرب الشحر .

وهذه المصنفات الأخيرة تحمل عناوين : العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية والمنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر وتحفة الفحول فى تمهيد الأصول وهى مرشدات ملاحية لا تختلف كثيرا عما ورد فى مؤلفات ابن ماجد ، والمرجح أن سليمان المهرى توفى بعد ابن ماجد بسنوات وذلك فى حوالى عام ١٥١١ م .

درس فران المخطوات الملاحية آنفة الذكر ، كما اطلع على كتاب ملاحى هام كتبه باللغة التركية الاميرال التركى سيدى على حسين المعروف باسم كاتب رومى وسماه باسم « المحيط فى علم الأفلاك والأبحر » عام ١٥٥٧ م . وكان لهذا الملاح شرف قيادة حملة بحرية كبرى قامت من السويس فى عام ١٥٥٤ وقوامها عشرون سفينة لمحاربة البرتغال فى المحيط الهندى ، وتقابل فى بحر العرب مع ٣٤ سفينة برتغالية وجرت بين الأسطولين معركة حامية زاد من قوتها هبوب العواصف التى شتتت مراكب الفريقين فلجأ الاميرال التركى بما تبقى من أسطوله وقوامه تسع سفن إلى ميناءى ديو وسورات Diu & Sorat بالهند وقضى الاميرال قرابة سنتين فى الخليج العربى وقف فيهما على مؤلفات الشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهرى وضمنها كتابه آنف الذكر .

وقد ربط فران بين كتاب « المحيط » هذا وبين المصادر العربية لابن ماجد والمهرى ونقد المؤلف التركى نقدا مرا إذ ظن أنه ترجم ترجمة حرفية أعمال الشيخين (٨) وللانصاف نقول إن فران قد غالى فى نقده فقد أشار الاميرال التركى إلى أعمال الشيخين كما احتوى كتابه على معلومات وخرائط جديدة . ومما تجدر الاشارة إليه أن كتاب « المحيط » لا ترد فيه أية أشارة لقضية ارشاد ابن ماجد لفاسكو دى جاما إلى الهند علما بأن الربان التركى قد عاش قرابة سنتين فى الخليج العربى واختلط بربابنته واطلع على المؤلفات العربية وأشاد بأصحابها وبابن ماجد كمؤلف وربان قدير بصفة خاصة ، ولو أنه سمع من الربابنة العرب شيئا عن قصة الارشاد المزعومة لما تردد فى اثباتها . هذا وقد عاد الربان التركى إلى القسطنطينية عن طريق السند وخراسان وقوبل فى مدينة أحمد أباد عاصمة



« جوزرات » بترحاب كبير وكان كاتبا وشاعرا وأديبا له مكانته وتوفى هذا الربان فى عام ١٥٥٩ م ودفن فى ديار بكر .

وفى عام ١٩٢٢ م نشر جابرييل فران فى حوليات الجمعية الجغرافية بباريس عجالة بعنوان « الربان العربى لفاسكو دى جاما فى القرن الخامس عشر الميلادى » (٦) ذكر فيها ابن ماجد بالاسم على أنه الربان المعنى الذى أرشد سفينة البرتغال وقد اعتمد فران على نص عثر عليه فى مخطوط تاريخى لمؤرخ يمنى هو قطب الدين النهروالى . وقد ولد هذا المؤرخ فى سنة ٩١٧ هـ وتوفى في سنة ٩٩٠ هـ ويوافق هذا التاريخ سنوات ١٥١١ — ١٥٨٢ م . وبمعنى آخر لم يكن النهروالى قد ولد بعد يوم حضر فاسكو دى جاما إلى الهند ، كما أن تاريخ ميلاد النهروالى يوافق السنة التى توفى فيها سليمان المهرى وبالتالى يكون قد مضى على وفاة ابن ماجد سنوات . وقد لقى مخطوط النهروالى الذى يحمل عنوان « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » عناية فى القرن الماضى (١٨٩٤) من المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى كما أشرف على تحقيقه وطبعه مؤخرا المؤرخ السعودى حمد الجاسر بمدينة الرياض .

الحوادث الفوادح

يقول النهروالى تحت باب « فى ذكر انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة : « وقع فى أول القرن العاشر (الهجرى) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون زقاق سبتة (مضيق جبل طارق) فى البحر ويلجون فى الظلمات (أى فى بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسى) ويمرون خلف جبال القمر — بضم القاف وسكون الميم وجمع أقمر أي أبيض وهى مادة أصل بحر النيل — ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتتكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب (سفينة) إلى بحر الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنجة وكان يقال له الأملندى (يعنى الملندى أى الاميرال) وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا فى كوة — بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء اسم لموضع من ساحل الركن هو تحت الافرنج الآن (يقصد جوا) من بلاد الركن قلعة يسمونها كوتا (اسم القلعة بالبرتغالية) ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين ... » .

تعقيب على هذه الرواية

واضح أن قطب الدين النهروالى لم يكن قد ولد بعد يوم أن دخل فاسكو دي جاما إلى بحر الهند ولا فى السنوات التى تعاقبت فيها حملات البرتغال على المنطقة ، واستطاعوا فيها السيطرة على ساحل الهند الغربى ثم إن كتابه آنف الذكر يرجع تاريخ تأليفه لعام ١٥٧٧ أى بعد دخول البرتغال إلى المحيط الهندى بنحو ثمانين سنة فمن أين استقى معلوماته عن ابن ماجد وإرشاده لأسطول البرتغال وروايته تخلو من أى مصدر يمكن الاعتماد عليه . ولو كانت هذه الرواية صحيحة ومتداولة لكان الأجدر بالربان التركى مؤلف كتاب « محيط » أن يذكرها وهو الذى كان أقرب فى تسلسل الحوادث من النهروالى بنحو ربع قرن .

أحمد بن ماجد
الملاح العربي المفترى عليه

وأما الحملة التى يشير إليها النهروالى بقيادة الأمير حسين الكردى فكانت بحرية مصرية أرسلها السلطان قانصوه الغوري فى عام ١٥٠٥ م الموافق ٩١١ هـ أي قبل دخول الاتراك العثمانيين مصر وابحرت من السويس وبصحبتها جماعة كبيرة من البنائين والنجارين مع الجنود لتحصين ميناء جده وإنشاء الابراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما فكر البرتغال فى مداهمتها . وفى نفس الوقت كان أسطول البوكيرك البرتغالى قد غادر المياه الهندية واستولى على جزيرة سوقطرة وأغار على عدن وعبر باب المندب بقصد الاتصال بملك الحبشة للتحالف معه ضد المسلمين فتصدى له الأسطول المصرى وطارده وتمكن من انزال الهزيمة به على سواحل الهند فى موقعة شوال . وظل البحر الأحمر منيعا على الأسطول البرتغالى لا يستطيع دخوله . وواضح من رواية النهروالى أيضا أن ابن ماجد دل البرتغال على الطريق إلى الهند من رأس الرجاء الصالح وهى المنطقة التى تتطلب التوغل فى البحر أثناء الدوران حول الرأس وابن ماجد كما هو معلوم لم يكن له خبرة ولا علم بساحل أفريقيا إلى الجنوب من سفالة .

أما التهمة التى ألصقها هذا المؤرخ اليمنى بالربان العربى الورع الفاضل والتقى الأمين وهى أنه « عاشر الربان البرتغالى فى السكر ودله على الطريق فى حال سكره » ففرية كبرى تجافى الحق والمنطق وتتناق مع ما اتصف به هذا الربان من أخلاق فاضلة حميدة وما كان عليه من ديانة وورع وخشية لله وهو القائل :

خف من الله ولا تؤذ أحد
هذا طريق الحق لا تخش أحد

وهو الذى كان لا يخرج إلى البحر قبل أن يسجد شكراً لله وفى ذلك يقول فى قصيدته المكية

ركبت على اسم الله مجرى سفينتى
وعجلت فيها بالصلاة مبادرا

ولطالما كان يحض الربابنة الآخرين على دوام النظافة والطهارة فى البحر وفى ذلك يقول فى كتاب الفوائد :

« وينبغى أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك فى السفينة ضيف من أضياف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره »

أو قوله : كن حازما قويا فى كلامك وأقوالك وأفعالك . ولا تصحب من لا يطيعك فى ما يعنيك وكن شجاعا عازما ذا بأس ، قليل الغفلة كثير الهمة » .

« واترك مالا يعنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح فى البحر فما ينجم عنه إلا الشر والبغض والعداوات . ولا تركب سفينة الهداية والدلالة وأنت فيها غير مطاع » .

ثم تأمل قوله : « ولا تكن ذا غفلة فإن الخطأ (فى البحر) فعل داع لتلف الأرواح والأموال » فهل يتفق كل ذلك والتهمة الشنيعة التى ألصقها النهروالى بربابننا الحازم الورع ؟

ثم إن ابن ماجد وقت وصول دى جاما إلى المحيط الهندى كان قد جاوز السبعين من عمره وأغلب الظن أنها سن لا تسمح بعبور المحيط بمركب شراعى فى ذلك الوقت .

وأخيرا وليس آخرا فهل كان الربان البرتغالى من السذاجة ـ إذا صدقنا كلام النهروالى ـ بحيث يسلم قيادة سفينته لرجل لعبت الخمر برأسه .

وهل كان ابن ماجد وهو الربان المثقف الواعى الذى يعرف جيدا بأن تجارة التوابل كانت فى أيدى العرب ليسمح للبرتغال بانتزاع هذه السيادة منهم فيدلهم على الطريق إلى الهند بهذه البساطة ؟ اللهم فأشهد .

● لماذا حاول المستشرقون أن يُلصِقوا بابن ماجد تهمة مساعدة البرتغاليين؟!

● كان أحمد بن ماجد رجلاً صاحب عقيدة، وكان مسلماً مخلصاً، ولم يكن بالإمكان أن يخدم أعداء العرب والمسلمين

وماذا يقول علماء الاستشراق ؟

توجد فى مكتبة الاستشراق بمدينة لننجراد مخطوطة تحتوى على ثلاث أراجيز فى علم البحر لم تنشر من قبل ومصنفها هو الملاح العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد . وقد نوه بهذه المخطوطة المستشرق السوفيتى الشهير اغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابة المنشور عام ١٩٤٥ بعنوان « مع المخطوطات العربية » . هذا وقد كلف هذا العالم تلميذه تيودور شوموفسكى بتحقيق هذه المخطوطة والتعليق عليها فى رسالة قدمها الأخير للحصول على درجة الكانديدات (٧) . وقد قام شوموفسكى بتصوير الأراجيز فى رسالته ولم يقم بطبعها بحروف المطبعة ربما لصعوبة فك رموزها . واهتم بتقطيع الأوزان الشعرية ، وهو يعترف بصعوبة المادة التى احتوتها الأراجيز .

والغريب فى الأمر أنه لا توجد إشارة واحدة فى هذه الأراجيز توحى للقارىء بأن ابن ماجد أرشد أو قاد سفينة للبرتغال أو حتى جرت محادثة على أى شكل كائنا ما كان بين الربان العربي والبرتغال . بل على النقيض من ذلك تتضح فى أرجوزته ثورة عارمة على البرتغال المستعمرين المستبدين الذين كانوا يضمرون الشر والبغض للاسلام والمسلمين .

ومع ذلك فقد جرى كراتشكوفسكى ومن بعده شوموفسكى على سنة جابرييل فران فى نسبة قصة ارشاد ابن ماجد لسفينة فاسكو دي جاما . بل إن رسالة شوموفسكى تعتمد اعتمادا كبيرا على مؤلفات فران ومراجعه وتحاول هى الأخرى تطويع النصوص البرتغالية لخدمة نفس الغرض .

إن المرء ليعجب حقا إن كان شوموفسكى قد فهم الأبيات الآتية لابن ماجد التى وردت فى أرجوزته السفالية التى صورها فى رسالته ، فكيف تسول له نفسه أن يلصق بابن ماجد تهمة هو فيها برىء بل ويتشدق بمثل قوله :

« ولأول مرة فى التاريخ البشرى وبفضل استاذية الملاح العربى فى فنه يمهد الطريق البحرى من أوربا إلى ثروات الشرق الأوسط التى كان الغرب يتحرق شوقا إليها » والطريق إلى الهند من أفريقيا لم يكن يحتاج لأستاذية بل كان مطروقا لجميع الربابنة كما أشرنا من قبل .

أو قوله « إن الربان العربي قد قاد السفينة ثم ندم وأنبه ضميره وهبطت حالته المعنوية » . أو قوله ان ابن ماجد قبل أن يعمل مرشدا للبرتغال نظير أجر كبير يناله !

أما الأبيات المشار إليها فتتعلق بقدوم البرتغال من الغرب فى عام ٩٠٠ هـ واستغرقت رحلتهم سنتين ومالوا للهند على اليقين ثم رجعوا مرة أخرى لساحل الزنج . وبعد ذلك بست سنوات جاءوا الهند مرة أخرى واشتروا البيوت وصاحبوا السوامر حكام الساحل الغربى للهند وأعملوا القتل والنهب فى سفن التجار المسلمين فانقطعت رحلاتهم (المسلمين) عن هذا الساحل . يقول ابن ماجد فى الأرجوزة السفالية نسبة إلى ثغر سفالة على ساحل الزنج :

جاءتها فى عام تسعمائة
مراكب الأفرنج يا أخاية
فجروا عامين كاملين
فيها ومالوا الهند باليقين
ورجعوا من هندهم للزنج
فى هذه الطريق الأفرنج
وبعد ذا فى عام تسعمائة
وست جاءوا الهند يا أخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم أو سارق مجنونا

وفى موضع آخر من الأرجوزة يقول :

وجالكا ليكوت خذ ذى الفائدة
لعام تسعمائة وست زايدة

وبــــاع فيـهـــا واشـتـــرى وحـكـمـــا
والســـامـــرى بـــرطله وظلمـــا
وصار فيـهــــــا مبغض الاسلام
والنـــاس فى خـــوف واهـتمـــام
وانقطـــع المكى عن أرض الســامــرى
وشـــد جـــردفـــون للمســافــرى

هل توحي هذه الأبيات لأى إنسان بأن ابن ماجد قد سافر فوق سفينة برتغالية أو أرشد ربانها إلى الهند ؟

إن ابن ماجد رجل أمين وصادق وعلى وعى بنوايا البرتغال . ولو كان قد أرشد سفنهم فلن يتردد فى ذلك فهو لا يعرف المداراة والمداورة ولا يبيع ضميره نظير أجر مرتفع يناله كما يقول شوموفسكى . ولا يجب أن نستبعد وجود هدف سياسى من وراء تبنى المستشرقين لفكرة ارشاد ابن ماجد لسفن البرتغال لاظهاره بمظهر البطل المغوار القدير بقصد استمالة العرب لجانبهم . ويفصح عن ذلك قول شوموفسكي نفسه فى رسالته المطبوعة عام ١٩٥٧ .

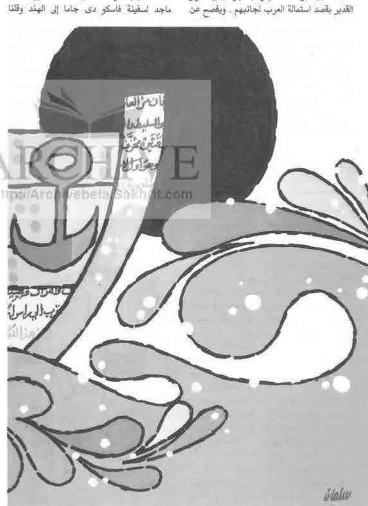
« وقد أخذ المبادرة منا (أى من السوفيت ويعنى بالمبادرة موضوع الملاحة العربية فى المحيط الهندى) فران وزملاؤه من العلماء الممثلين للامبراطورية الفرنسية والذين ساعدوا على تغلغل نفوذها إلى الشرق . وعلمنا يحركه غرض نبيل نحو شعوب الشرق ويجب أن نسمع صوته ونعلى كلمته فى مجال أدب الملاحة البحرية » .

كلمة أخيرة

بقيت كلمة أخيرة لابد من ذكرها وهى أنه عندما قمنا بتقديم ابن ماجد لقراء العربية لأول مرة فى كتابنا المنشور فى سلسلة « أعلام العرب(٨) سنة ١٩٦٧ كان يخامرنا الشك فى صحة قصة إرشاد ابن ماجد لسفينة فاسكو دى جاما إلى الهند وقلنا بالحرف الواحد (ص ٥٦) :

« وإذا كان ابن ماجد قد دون هذه الوقائع (عن البرتغال) فى أراجيزه فلا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال إلى الهند مما يجعلنا نتشكك فى صحة الرواية التى أوردها فران وأقرها معه علماء السوفيت . وعلى أى حال فإن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق وربما أفردنا له بحثا مستقلا » .

وبالفعل قطعنا الشك باليقين فى كتابنا بعنوان « الملاحة وعلوم البحار عند العرب » (٩) المنشور فى سلسلة عالم المعرفة عدد يناير ١٩٧٩ وفى بحث آخر قدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ علوم البحار الذى عقد فى وودز هول بالولايات المتحدة سنة ١٩٨٠ .



الهوامش

(١) فى هذه الأبيات يقصد ابن ماجد « بالشول » طائفة الشوليان من الهند ويسكنون ساحل كروماندل وجزر الفال هى جزر اللاديف واللكاديف .

(٢) توالت حملات البرتغال فى المحيط الهندى بعد رحلة فاسكو دى جاما الاستكشافية التى تمت فى سنوات ١٤٩٧ ـ ١٤٩٩ فخرجت حملة من البرتغال بقيادة ديجو دياز سنة ١٥٠٠ واكتشفت جزيرة مدغشقر وفى أواخر هذه السنة نفسها خرجت حملة أخرى فى ست مراكب بقيادة الفاريز كابرال وكان معه يهودى يدعى جاسبار للتفاوض مع ملك السامريين وهم سكان الساحل الجنوبى الغربى للهند ومقره ميناء قاليقوت فى احتكار تجارة التوابل . وتصدى له التجار العرب فضرب كابرال مراكبهم بالمدافع وأحرقها ثم وصلت حملة أخرى فى عام ١٥٠١ من البرتغال بقيادة جان دي نوفا وفى عام ١٥٠٢ عاد فاسكو دي جاما مرة ثانية إلى الهند حاكما عاما عليها بأمر الملك مانويل الثانى . وتوافق سنة ١٥٠١ م سنة ٩٠٦ هـ التى وردت فى أراجيز ابن ماجد متعلقة بعودة البرتغال إلى الهند واعمالهم القتل والحرق واحتلالهم قاليقوت وفى ذلك يقول ابن ماجد :

وجـــاء لكـــاليكـــوت خـــذ ذى القاعـــدة
لعام تسعمـــــائـــــة وست زائـــــدة
وبـــاع فيـهـــا واشـتـــرى وحـكـمـــا
والســـامـــرى بـــرطله وظلمـــا
وصار فيـهــــــا مبغض الاسلام
والنـــاس فى خـــوف واهـتمـــام

(٣) Joao de Barros (1553)—Decada da Asia. Lisbon

(٤) Fernando Lopez da Castanheda (1554)—Historia. Lisbon

(٥) Damiao de Goes (1566)—Chronica do rei D. Manuel. Lisbon

(٦) G. Ferrand (1922) Le pilote Arabe de Vasco da Gama Ann. Geog.—31 : 289 - 307

(٧) تيودور شوموفسكى (١٩٥٧) ـ ثلاث راهمنجات المجهولة لأحمد بن ماجد ربان فاسكو دى جاما ـ منشورة باللغة الروسية فى لننجراد . ترجمها إلى اللغة العربية وعلق عليها الدكتور محمد منير مرسى ـ طبع القاهرة سنة ١٩٦٩ .

(٨) أنور عبد العليم (١٩٦٧) ـ ابن ماجد الملاح ـ الكتاب رقم ٦٣ فى سلسلة أعلام العرب . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة .

(٩) أنور عبد العليم (١٩٧٩) ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب ـ الكتاب رقم ١٣ فى سلسلة عالم المعرفة الناشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت .

أنور عبد العليم

فارس العصر

بقلم: سـليـمان فيــاض

وجه «أ . ن»

كنا صحبة . ريفيون حالمون . قراء أدب كسوس الخشب . مشاريع كتاب نبحث عن حظوظنا في العاصمة ، والجامعات . كلنا كنا ندرس العلوم النظرية والانسانية نشترى الكتب بقروشنا القليلة لنقرأها ، ونجد أكثر ما نقرأ في مكتبات الأحياء العامة ، والكليات . ونتردد على مقاهي الأدب وندواته :
إيزافيتش ، وريش ، والعجمي ، وعبدالله . في كل مقهي كانت صحبة ومجموعة ، شلة أو جماعة أدبية . لا يجمع بين أفرادها سوى المعرفة والصداقة والصحبة .

صحبني الصديق ، القصصي الشاب آنذاك ، «أ . أ» . إلى صديقه الناقد اللامع «أ . م» . إذ كنا أنا ، و «أ . أ» طلاباً بالمنصورة ، تصادقنا ، وجئنا معاً إلى القاهرة . وكان «أ . أ» يكتب قصصاً تنشر بآخر صفحة أو صفحتين بمجلة «ر» الثقافية الأدبية الأسبوعية ، وكان : «أ . م» نجم الحركة النقدية بالمجلة . صاحب أسلوب أدبي فريد ، ونظرة نقدية خاصة . لما يعرضه من أعمال الأدب التي تنشر آنذاك وفيما يخوضه من معارك أدبية ساخنة . كان «أ أ» فارس المجلة «ر» والحركة الأدبية على اتساعها في أواخر الأربعينيات ، وأوائل الخمسينيات . وكان «أ . أ» قد حرص على لقائه والتعرف به ، وتوطدت بينهما صداقة الأستاذ بالتلميذ ، وقدمني «أ . أ» إليه ، بمقهى عبدالله بالجيزة .

كنا نجلس على هامش المجلس على رصيف المقهى ، بميدان الجيزة ، في الصيف ، وبداخله في الشتاء . وكان مجلساً يومياً . نسمع ، ونرى ، ونحتفظ بآرائنا في داخلنا فيما نسمع . في ندوة «أ . م» الأسبوعية هذه ، وكانت مجلة «ر» قد احتجبت . رأينا شعراء كباراً وأساتذة جامعيين ، وتعرفنا إلى شباب مثلنا ، ريفيين حالمين ، مشاريع كتاب ، ونمت بيننا الصحبة : «ر» ، «و» ، و«ص» ، و«ع» ، و«غ» ، وكثيرون ، بعضهم شق طريقاً ، وبعضهم توارى عن الدنيا ، أو تخلى عن حلمه .

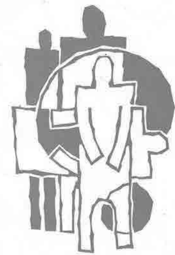
بدا لي الكاتب «أ . م» مثلما تخيلته في تعقيباته النقدية ، فارساً حقيقياً في حديثه ، ومرحه ، واعتزازه بنفسه ، وتعاليه على آلامه الخاصة ، لا أعرفها ، ولا أظن أنه باح بها كثيراً إلا لقلة قليلة . لم أنفذ قط إلى قلبه عدة سنين . مثل صديقي : «أ . أ» ، و «ر . ن» . وكنت أعلم أن بين كل منهما ، و «أ . م» مودة القلب ، والسر ، والنجوى . لكن «أ . م» كان قادراً أبداً على أن يوزع حبه ، وحفاوته ، على الجميع ، في مجلسه ، فلا يشعر أحد من ناشئي الكتاب خاصة بغبن ما . وأحياناً كنا نجد «أ . م» يلعب الشطرنج ، أو النرد ، فنجلس نتفرج . كانت له ضحكة حلوة ، ما أرقها ، وأعذبها ، وأقربها إلى النفوس ، وهو صامت ، وهو يدخن ، وهو يتسلى باللعب . وكان من عادته أن يحيي أي وافد جديد من ناشئة الأدب ، « بشاي ، أو قهوة ، مرة واحدة ، بعدها يشرب الوافد على حسابه . فقد أصبح تلقائيا عضواً في الندوة ، من حقه أن يتكلم إذا شاء ، ويصمت إذا شاء ، وينكت إذا أحب . النبل كان يشع من وجهه ، وروحه ، وابتسامته الندية أبداً . وكان بوسع أي أحد أن يقرأ له شعراً ، أو يعطيه قصة يقرأها في بيته ، ودائماً كان «أ . م» يقول رأيه فيما قرأه ، لصاحب الشعر أو القصة منفرداً ، خاصة حين تكون له ملاحظات غير طيبة عما سمعه من شعر ، أو قرأه من قصة . وكنا جميعاً نجل قوله ، مثلما نجله . ونعتبر رأيه فيما كتبناه درساً ، ينبغي أن نفكر فيه ، قبلنا رأيه أو رفضناه .

كان يحدثنا أحياناً عن صديقه الشاعر الراحل : «ع . م . ط» ، فروسيته ، ونبله ، وحبه لترف الروح ، والجسد ، والطعام ، والبيت ، الذي لم نره نحن ، العامر بالتحف والتماثيل ، وكنا نشعر من حديثه عنه ، أنه قد فقد بفقده نصف روحه ، ونصف حياته .

قرأ لي قصتين ، لم يرض عنهما ، فأعادهما لي ، وقال :

ـ استمر . ما كتبته محاولة .

ولزم الصمت . وشعرت بالحرج . فلم يقل أي تعليق آخر .



الصمت

نشـــر صديقـــي «أ . أ» مجمـــوعته القصصية الأولى . وتصدرت قصص مجمـــوعتـــه مقـــدمـة ضـافيـة ، مليئة بالتحليل والرضى ، كتبها «أ . م» ، عن قصص : «أ . أ» . وكنت قد بدأت أنشر قصصاً في مجلة «أ» البيروتية ، وأذيعها هي نفسها في البرنامج الثاني بإذاعة القاهرة . اخترت من بينها ثماني قصص لنشرها في كتاب ، وقدمتها إلى : «أ . م» ليقرأها ، ويقدم لها ، إن رضي عنها ، وشاء ذلك . هكذا قلت له . أخذ ملف القصص وحملها معه إلى بيته . سألته بعد شهر ، بعد شهرين ، وكان يقول لي :

ـ لم أقرأها بعد .

ويلوذ بصمت عميق . لم أشفق على نفسي من الحرج ، بقدر إشفاقي على حرجه معي . حدثتني نفسي أنه غير راض عما صنعت . ولمته في نفسي لأنه لا يقول ذلك ، ودون أي حاجة مني إلى اعتذار منه فأنا أحبه ، بقدر ثقتي بما كتبته .

كانت قد حدثت جفوة ، بسبب سوء تفاهم ، بيني وبين الصديق «ر . ن» وقيل لي إنه قد شكاني إلى «أ . م» ، وإنه لذلك يلزم الصمت ، وكأنه قد

عزف عن التقديم لقصصك. تركت هذا الأمر في نفسي مفتوحاً لاحتمالات المصارحة يوماً، وكانت في النفس مرارة، يطويها في القلب ذلك الحب للصديقين. وسافرت للعمل بالسعودية.

عدت بعد أشهر تسعة. سألت «أ. م» عن المجموعة. طلبتها لأنشرها فأعادها إلي، ولم أعاتبه. ولم يعتب علي في أمر. لكنني كنت أرى في عينيه حزناً لا أعرف سببه. قلت لنفسي: هذا الرجل لا يكتب إلا إذا أحب الكتابة والكاتب معاً وكان علي أن أتعلم من نبله، وصمته، وترفعه درساً. فطبعت من مجموعتي الأولى، على قدر مالي، ألف نسخة. وأهديت أول نسخة إليه، قال لي:

ـ مبروك.

ولزم الصمت. وحياني بقهوة بعد غيبة. وغادرت القاهرة إلى السعودية بعد يومين، عائداً إلى عملي. مدرساً بالطائف هذه المرة.

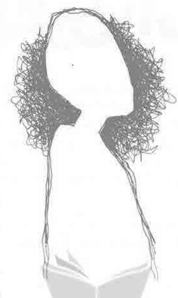
بداية النهاية

إذ عدت إلى القاهرة، دهشت للحفاوة التي استقبلت بها مجموعتي القصصية الأولى من الأدباء الشبان، والنقاد الشبان، خاصة. كتبوا عنها خمسة عشر مقالاً.

ولم ألتق بالصديق «أ. م»، فقد كان على الرحيل إلى مركز البداري، الذي عينت به مدرساً بمدرسة الاعدادية الثانوية. وحزنت أشد الحزن، إذ علمت أن صديقنا «أ. م» قد نقل من عمله، كعضو بالادارة الثقافية العليا بوزارة التربية والتعليم. كان رئيس الادارة عندئذ هو «س. ح». وكان يعمل بها الناقد «س. ق»، والقصاص «ع. ج. س» فيما أذكر. وقيل لي إن كليهما: «أ. م» و «س. ح»، لم يهضم الآخر، وإن الخلاف قد كبر بينهما وغذي، فنقل «س. ح» صديقنا الفارس مدرساً بمدرسة ثانوية بحدائق القبة. وصار الحزن عميقاً في القلب حين عدت في زورة إلى القاهرة، وكنت قد نقلت إلى الأسكندرية، وجلست مع «أ. م» في ندوته اليومية. كانت ضحكته العذبة قد صارت ممرورة، وحزينة، وبدا لي أنه كعادته، يترفع، ويتصالب. حدثنا فيما حدث، قال:

ـ هل تتصورون أن ناظر المدرسة خصص لي يوماً للاشراف على حوش المدرسة. مهمتي فيه أن أحمل عصا، وأمنع التلاميذ من التزويغ، ونط السور؟ لم أكترث بشيء مما قاله، وتركت التلاميذ يفعلون ما يشاؤون، فغضب، وأظن أنه سيتخذ إجراء ما.

ساد بيننا الصمت في المجلس. وبدا هو كأنه لا يبالي بهذا الأمر. عاد إلى الحديث، والنقاش.



وكأنه قد لام نفسه على بوحه وشكواه. وجاء صديق شاب، كان بلا عمل، فقال له «أ. م»، إنه قد حدث صديقه رئيس التحرير «فلان». فوافق على عمله بمجلته. وطلب منه الذهاب إليها. وعاد يؤكد له أنه سيذهب معه إليه غداً.

وحدثت الواقعة. قدم «أ. م» استقالته من عمله كمدرس. وبقي بلا عمل. ينام ويقرأ نهاره، ويسهر ليله بندوته مع الكتاب والأدباء، من كل الأجيال. عجبت لأمر صاحبنا «أ. م»، يقدم خدماته، ويستثمر علاقاته لغيره، ويأبى أن يطلب ذلك لنفسه. وربما لأننا كنا نهابه، ونعرف ترفعه، فيما يخصه، لم نحدثه في هذا الأمر.

المأساة

علمت وأنا بالاسكندرية أن صديقنا الفارس قد صار نائباً لرئيس تحرير مجلة «م»، التي يرأس تحريرها «ي. ح»، مع «ف. د»، ويأجر مضحك هو خمسة وعشرون جنيهاً. زرته في المجلة، فرحب بي ضاحك الثغر، وقدمني إلى «س. ح». وعدت إلى الأسكندرية.

فوجئت، ذات صباح، بمقال كتبه «غ. ش» بصحيفة «أ»، يروي فيها مأساة صديقنا الفارس «أ. م». انسلخ من الوسط كله بالقاهرة. ومن المدينة بأسرها. وحمل «غ. ش» الحياة الثقافية ووزارة الثقافة المسؤولية. وطالب له بكذا وكذا.

عدت إلى القاهرة مفزعاً. علمت أن صديقنا «أ. م» قد غطس في الأسكندرية عند أقارب له، وأنه شوهد يسير شارداً، ساهماً في الليالي الباردة بالبيجاما والشبشب.

أخذت العنوان. وذهبت أبحث عن الحي، وعن البيت، نهاراً، فلم أجده. قيل لي إنه خرج، ولا يعرف أحد متى يعود. تركت له خطاباً حاراً مخضباً بالدموع، أطلب لقاءه، وأدعوه للإقامة في بيتي إلى أن يهدأ نفساً.

وعاد «أ. م» إلى القاهرة، ولم ألقه بالأسكندرية، بعد أيام لا أذكر عددها. لكنني على يقين أن حب الصحبة له هو الذي أعاده.

عاد يجلس على المقهى، وجئت للقائه. وجدته في أطيب حال. يؤكد أنه سوف يعود للكتابة، وأنه سيكتب عن، وعن، ويقهر ضغط الدم الذي يعاني منه بالقلم وحده. وسعدنا به، ورجونا. وتساءلت في نفسي: هل سيستطيع، هو الفارس، أن يعيش من قلمه، وهو يأبى في روحه المجاملة، ووضع أي حسابات في اعتباره؟!

العشاء الأخير

سهرنا معه بالمقهى، ذات ليلة. كان يتحدث ويضحك، ويعد بالمثنى نفسه، ويعدنا بها معه. وأخذ يلعب «الطاولة» مع صديقه الناقد «ع. ق»، وغادرناه، ثم ذهب هو إلى مطعم كازينو بالهرم، فيما أذكر، مع صديقه الأثير «ع. ق» ليسهرا، ويتعشيا معاً.

في اليوم التالي، حمل إلينا نعيه. بهت. ولم أبك. حتى اليوم لم أبكه قط. لكنه ظل حياً في القلب.

علمنا أنه أكل سمكاً، ورفه عن نفسه في مجلسه مع صاحبه، وعاد إلى بيته. قيل لنا إنه وجد نفسه مرهقاً، وإنه قد وضع رأسه في حجر أمه، ليغفو، وربما تقلبت عليه مواجع النفس مع مواجع الجسد. كان يعيش طول حياته أعزب، وحيداً في بيت صغير بالدقي. ولفظ نفسه الأخير بين يدي أمه. قيل لنا إن أمه، بحثت ليلاً عمن تتصل به، أو تخبره، بما حدث لفارسها. فلم تجد سوى بطاقة عليها اسم «ن. ع»، ورقم تليفونه، فحدثته في قلب الليل، تخبره، وتدعوه.. لنجدتها.

عيون ترى "ما لا عين رأت"!

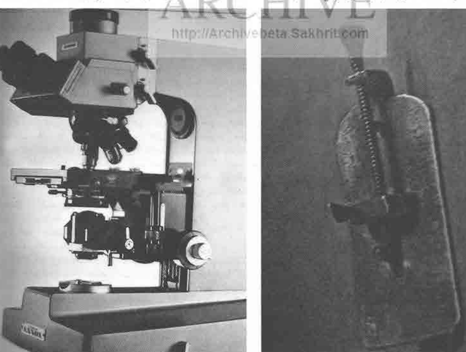
العيون نوعان : عيون من صنع البشر ، وعيون من صنع خالق مقتدر ، وهذه الأخيرة لا يقدر على محاكاتها أحد ، فهي بلا شك آية رائعة من آيات الخلق ، وبها نرى عالمنا بكل ما فيه من أشكال وألوان وأحجام وأنواع وقبح وجمال ، لكن عيوننا ذات الخلق المتقن ، والتكوين المذهل ، لها حدود ضيقة فيما ترى وترقب ، ولكنها تستطيع أن تكشف الضئيل جداً ، والبعيد جداً ، إذا أرادت ألا يغيب عنا وعنها عوالم كثيرة تزخر بها الأرض والسماوات !

وهذه الدراسة محاولة مختصرة وسريعة لرؤية عوالم تخفى عن عيوننا ، لكنها ليست كذلك بالنسبة لعيون العلم التي ترى « ما لا عين رأت » .

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

شكل (١) أحد ميكروسكوبات ليفنهوك البدائية جداً ، لكنه رغم بساطته وبدائيته ، فقد كان بمثابة أول عيون توضح عالماً آخر لأقرانه

شكل (٢) الميكروسكوب الضوئي المركب الأنيق ، لكنه لايستطيع أن يتعدى حدوده في الكشف عن أكوان أصغر (قوة تكبيره لاتزيد عن ألفي مرة) .



ولا شك أن عيون العلم كثيرة ومتنوعة . فالذي نرى به البعيد جدا يعرف باسم المناظير الفلكية أو التليسكوبات . والذي نرقب به الصغير جدا يسمى المجاهر أو الميكروسكوبات ، وحتى لا يتشعب بنا الموضوع ، ويؤدى إلى متاهات ، كان من الأوفق أن نقصر حديثنا هذا على الميكروسكوبات . فرغم أنواعها الكثيرة ، وطرزها الوفيرة ، وتعقيداتها الكبيرة ــ خاصة فيما يتعلق بالميكروسكوبات الاليكترونية والأيونية والتجسيدية وما شابه ذلك ، إلا أن بداياتها كانت جد متواضعة ، إذ لم تكن إلا بمثابة لعبة بدائية لا تقارن على الاطلاق بما وصلت إليه الميكروسكوبات الأنيقة فى أيامنا الحاضرة .

والغريب أن الذى صنع أول ميكروسكوب بدائى لم يكن عالما ، ولا كان ينتمي إلى زمرة العلماء ، بل كان حاجب بلدية مدينة « دلفت » بهولاندا ، لكنه شغل وقت فراغه بصقل العدسات من الزجاج ، وزاد شغفه بتلك الصنعة ، كلما اكتشف أن بعضها يريه الأشياء بصورة أوضح وأغرب وأعجب مما يراه بعينيه المجردتين ، ولقد ظل هذا الرجل البسيط الذي يدعى أنطون فان ليفنهوك (١٦٣٢ ــ ١٧٢٣) يفحص كل ما تقع عليه عيناه بميكروسكوباته البدائية التى صنع منها المئات .. ظل على هذا الحال أكثر من ربع قرن من الزمان ، ورغم أن الرجل ظل مغمورا ، وبين قومه مغبونا ، وظنه البعض مجنونا .. رغم ذلك ، فلقد كان أول إنسان يكتشف عالم الميكروبات الذي ظل خافيا عن كل الأجيال السابقة ، نظرا لعيون البشر القاصرة ، وقدم للعلم وللبشرية نواة فكرة « عين » علمية تكشف ما خفى عن عيوننا وبعدها تطورت الميكروسكوبات ــ بفضل سعى العقول الباحثة عن المعرفة ــ إلى آفاق واسعة ، لتفتح لنا نافذة هائلة ، لننظر من خلالها إلى عوالم خافية ، تنطوى على كل ما هو متقن ومنسق ومنظم وأصيل (شكل ١ ، ٢ ، ٣) .

رحلة من عالم محسوس إلى آخـــر مجهـــول

وطبيعى إننا لن نتحدث عن الميكروسكوبات ، ولا طبيعتها وتركيبها ، ولا كيف ترى الأشياء .. الخ ، لكننا سنتعرض للوجه المثير الذي تكشفه لعيوننا إذا سلطت على أى شيء نراه ظاهرا ، ولا نتطلع إليه باطنا ، لأن الباطن أصغر وأدق من أن نراه بأبصارنا .. لهذا تخير أي شيء منظور أو ملموس مما تعودت عليه عيوننا ، وليكن ذلك سطح ورقة ، أو جزءاً من زهرة ملونة ، أو جناح بعوضة أو فراشة ، أو قطعة خشب ، أو ملح طعام ، أو قطرة ماء من مستنقع .. إلى آخر هذه التكوينات الكثيرة جدا والتى لا نستطيع لها عدا ، وضعها بطريقة خاصة (وهى غالبا ما تكون على هيئة شرائح رقيقة غاية الرقة) تحت عدسات المجهر ، وسلط عليها قوى تكبيرية فأكبر فأكبر ، لتراها مكبرة عشرات ومئات وآلاف المرات ، وعندئذ ستتجلى الحقيقة ــ فى كل مرة ــ بصور لم تكن لتطرأ لأحد على بال !

ولكي نترجم هذا الكلام إلى واقع ملموس ، دعنا نقوم ــ نيابة عنك ــ بهذه المهمة الصعبة ولنأخذ تكوينا واحدا مما تقع عليه عيوننا ليل نهار ، وليكن ذلك بشرة ظهر أيدينا أو باطنها ، ولنتفحصها بالعين المجردة ، فهذا أمر ميسور ، أو سلط عليها عدسة مكبرة تكبرها عدة مرات ، وعندئذ سترى خطوطا متداخلة ، لكن بوضوح أكثر ، وتفاصيل أحسن مما نراه بعيوننا المجردة .. ثم تتسع بعد ذلك آفاق الرؤية عندما يصل التكبير إلى عشر أو عشرات المرات (شكل ٤) .. لكن الأمر قد يغم على العقل ، إذا رأت العين جزءا من التكوين ذاته مكبرا مئات المرات ، فالصورة التى يحتفظ بها العقل فى ذاكرتنا لما تقع عليه عيوننا المجردة من تكوينات حية وجامدة ، تختلف كثيرا عما تفضحه عدسات الميكروسكوب مكبرا لذات التكوين (شكل ٥) .

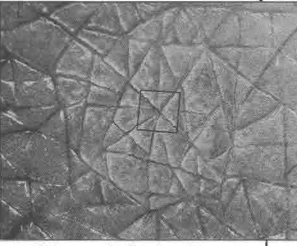
لكن كبر أكثر ، تر أعجب .. خاصة عند الذين لم يمارسوا عيونا غير عيونهم ، لرؤية دقائق عالمهم .. فماذا لو عرضت مثلا الصورة السابقة والصورة التى تراها بعدها (شكل ٦) وهى مكبرة آلاف المرت على زيد من الناس ، وطلبت منه أن يرجع هذه الصورة أو تلك إلى أصولها ؟ .. تأكيدا لن يستطيع أن يصل إلى السر ، أو يعرف أن ما يراه ليس إلا مساحة جد ضئيلة من بشرة ظهر اليد ، ولا شك أن الظنون ستذهب به كل مذهب ، وقد يعيد الصور إلى تصدعات أرضية ، أو أخاديد غائرة التقطتها طائرة محلقة ، أو ربما كانت مسارات لحمم بركانية ، أو أية تضاريس أخرى غير « التضاريس » الغريبة التى ترتسم على بشرتنا ، ولا نكاد نعرفها إلا خطوطا دقيقة لتعطيها شيئا من طبيعتها المرنة المطاطة كلما جابهتها عوامل الشد والارتخاء ، فتتسع هذه « الأخاديد » وتنفرج عند شدها ، وتضيق وتزيد عمقا عند ارتخائها .. أي أنها لم تخلق هكذا عبثا !



شكل (٣) الميكرسكوب الاليكتروني الحديث الذي يصور العوالم الدقيقة بتكبيرات تصل إلى عشرات الألــوف مــن المرات ، ومــع ذلك فلا زلنــا نحتــاج لعيــن أقــوى ، لتكشــف لنــا عــوالــم أدق وأدق

● الرجـــل الذي صنـــع أول ميكرســـكوب في العــــالم لم يكـن من زمـــرة العلمــاء ، وظنّــه البعض مجنونــًا !

"ما لا عين رأت"!



شكل(٤) بشرة ظهر اليد وقد ظهرت بهذا التكوين الجديد ، لأننا كبرناها بعدسة عدة مرات قليلة .



شكل (٥) جزء صغير من التكوين السابق في شكل (٤) والمحدد بمربع ، وهو مكبر مائة مرة .. ولهذا فمن الصعب أن يتصور أحد أن ذلك لبشرة اليد .

بين الظاهر والباطن

لقد كان الهدف من هذه الرحلة السريعة التى عرضناها فى ثلاث تكبيرات متتالية ، أن نوضح حقيقة هامة لاشك أنها كانت تجول بخاطرنا ، كما جالت قبل ذلك بخاطر العلماء ، هذه الحقيقة تشير إلى أن كل شيء نراه بعيوننا ، ليس حتما أن يظهر لنا مكبرا بنفس الصورة التى ترتسم له فى عقولنا ، بل إن الشيء – مهما اختلفت طبيعته – يتراكب من وحدات أصغر ، لتتألف فى وحدات أكبر وأكبر ، ومن هذا المنطلق ، كانت أهمية عيون العلم فى توضيح الأسس أو اللبنات الدقيقة التى قامت على أساسها المخلوقات أيا كانت طبيعتها ونوعها وشكلها وحجمها .. الخ .

ودائما ما تلح على العقول المفكرة أسئلة متلاحقة ، علها تجد لها الأجوبة المقنعة التى توصلها إلى لب الحقيقة فى خلق الأشياء ، من ذلك مثلا – وفيما يختص بموضوعنا الذى نعرضه هنا – هذا السؤال : وماذا قد تحوى صورة البشرة المكبرة حوالى ألف مرة من تكوينات جديدة ، لو أننا عرضناها للتكبير عشرة آلاف أو مائة ألف مرة ؟ .. وما نهاية المطاف فى مثل هذه الرحلات المثيرة التى نطلع فيها على أكوان أخرى أعمق وأغزر وأدق من أكواننا التى نراها بعيوننا المحدودة ؟

الواقع أننا سنرى تفاصيل أكثر ، لكنها فى النهاية تنطوى على متاهات أكبر ، وألغاز أعظم ، ثم هى ستباعد بين حقيقة ما انطبع فى عقولنا لمفردات عالمنا المنظور ، وبين مفردات مثيرة لعالم غير منظور ، ولدرجة يصعب معها أن نصدق أن هذا التكوين من صنف ذاك .

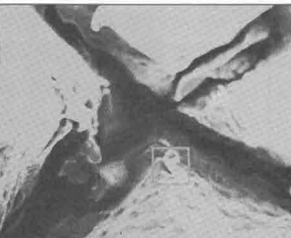
خذ على سبيل المثال شعرة من شعور رؤوسنا ، وتمعن فيها بعينيك المجردتين ، وطبيعى أن يطرأ هنا تساؤل ، وماذا يمكن أن يكون فى الشعرة التى لا يزيد سمكها عن عشر ملليمتر (٠,١ مم) من تكوينات تستحق النظر أو الدراسة ؟

وهو تساؤل وجيه ، طالما لا نمتلك وسيلة أخرى غير عيوننا لننظر بها إلى الشعرة ، لكن الشعرة شيء ضخم جدا بالنسبة لعيون العلم الحديثة التى استطاعت أن تصل فى تكبيرها للأشياء إلى أكثر من ٥٠٠ ألف مرة ، ومع هذا التكبير الفائق ، فلا تزال المكونات الدقيقة لأى شيء فى عالمنا المنظور لا تفصح عن بعض تفاصيلها الدقيقة ، فهى – أى الميكروسكوبات ذات التكبير الفائق – لا تستطيع أن ترينا كيف تنتظم الذرات فى جزيئات صغيرة ، ولا الجزيئات الصغيرة فى جزيئات كبيرة ، فعلى هذه أو تلك تتأسس النظم فى شعرة أو خلية أو ما دون ذلك ، أو ما أكبر من ذلك !

● المتاهات والألغاز التى ستواجهنا عندما نرى مفردات مثيرة لعالم غير منظور!

ولتقريب صورة تكبير الشيء لنصف مليون مرة فى الأذهان ، دعنا نتعرض لمعنى هذا التكبير على مستوى الشعرة ، عندئذ سيصبح قطرها خمسين مترا ، أو أن محيطها سيصل إلى ٣١٤ مترا ، أى أنها تحتاج إلى مائتى رجل ليحيطوا بها وهم متشابكو الأيدى ، وممدودو الأذرع .. وطبيعى أننا لن نضع الشعرة كلها فى مجال هذه التكبيرات الهائلة ، فليس لذلك معنى ، لكن يمكن تجهيز شرائح خاصة تحمل مكونات أو أجزاء ضئيلة جدا من الشعرة ، وبهذا يمكن رؤيتها ، أو رؤية بعض تفاصيلها الدقيقة جدا (وهو ما سنتعرض له فى دراسة قادمة عن طبيعة الشعر وتكوينه وأهميته) .

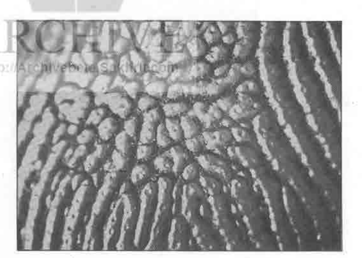
لقد ضربنا هذا المثل من قبيل تقريب الصورة للأذهان ، لكن العلماء – مع ذلك – يتعاملون مع تكوينات فى الخلايا الحية أو غيرها أضأل من سمك الشعرة بآلاف وعشرات الآلاف من المرات ، لكن تكبيرها عدة مئات الآلاف من المرات يظهرها كصور يمكن استيعابها .. من ذلك مثلا أنهم استطاعوا رؤية الأشرطة الوراثية التى تسجل



شكل (٦) جزء من جزء الجزء السابق وهو مكبر حوالي ألف مرة ، فتبدو البشرة كتضاريس غريبة ، أو مسارات غائرة لحمم بركانية



شكل (٧) شريطان وراثيان حلقيان مكبران حوالي ٣٠٠ ألف مرة ، ورغم هذا التكبير الفائق ، فلم توضح الصورة تفاصيل الشريط . فهو لاشك يتكون من جزيئات أصغر فأصغر عجز الميكروسكوب الاليكتروني عن ايضاحها .



شكل (٨) تكوين بصمة أحد الأصابع مكبرة عدة مرات ، ولهذا توضح تفاصيل لا يمكن أن تتجلى لعيوننا ، ومن هذه التفاصيل فجوات أو ثقوب دقيقة منتشرة على الخطوط المتعرجة .. لكن ما هي طبيعة هذه الفجوات ؟

عليها صفات كل المخلوقات (شكل ٧) ، هذا ويبلغ سمك الشريط الواحد جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر .. أى أقل سمكا من شعرة الرأس بحوالى ٥٠ ألف مرة !

من البصمات إلى ما دونها

لكن دعنا نعود مرة أخرى إلى التكوينات التي تعودت عليها عيوننا ، فهذا أيسر من الولوج فى متاهات ليس مجالها هنا ، ولنلق نظرة فاحصة على الخطوط المتعرجة فى أطراف أصابعنا ، والتي نعرفها باسم البصمات .. إنك بالكاد تستطيع أن تراها بصورة عامة دون التفاصيل ، لكن التكبير يوضح لنا كثيرا من التفاصيل .. ودائما تكبير أعظم ، يكشف لنا عن تفاصيل أضخم (شكل ٨) .

حاول بعد ذلك أن تتعرف على المنظر الذي يلى ذلك (شكل ٩) .. عندئذ قد يعتقد الكثيرون أنهم أمام صورة لفوهة بئر ، أو فتحة كهف تنمو على حوافها بعض نباتات بدائية ، لكن الصورة ـ فى الواقع ـ هى جزء جد صغير من الصور السابقة ، فلو أنك تمعنت فيها ، لوجدت بضع ثقوب صغيرة تنتشر هنا وهناك على البصمات ، لكنها ليست ثقوبا بالمعنى التقليدى ، بل هى فتحات تؤدى إلى الداخل ، حيث توجد الغدد العرقية ، لكن التكبير الفائق قد أوضح لنا واحدة على هيئة فتحة كهف غريب ، أما الذى ينتشر عليها كنبات بدائى ، فنوع من البكتيريا العنقودية التى تتحين

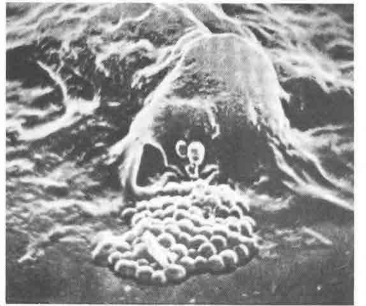
● لولا هذا السور العظيم من بلايين الصفائح التي تصنعها خلايا البشرة قبل موتها لما كان هناك من يكتب أو يقرأ !

«ما لا عين رأت»!



شكل (٩) هذا الكهف الغريب ليس إلا فتحة الغدة العرقية مكبرة مئات المرات .. لاحظ البشرة وقد ظهرت بدورها كتضاريس متموجة .

شكل (١٠) صورة نادرة ومكبرة عدة آلاف من المرات بالميكروسكوب الاليكتروني المجسد للقاء المحتوم بين كرة دم بيضاء ومجموعة من البكتيريا التي نفذت إلى الداخل من خلال فتحة الغدة العرقية .. لاحظ ضخامة الكرة الدموية المدافعة وهي تمد أذرعها لتلتهم بها الميكروبات ، وكأنما هي ديناصور أو أخطبوط ضخم في عالم دقيق لا تراه عيوننا .

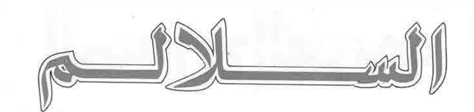


الفرص المناسبة لغزو الجسم عن طريق فتحة الغدة العرقية ، فإذا نجحت ــ وقلما تنجح نظرا لوجود موانع تحول بينها وبين غزو ميسر ــ تكاثرت وغزت ودارت معركة بينها وبين كرات الدم البيضاء ، ونتج عن ذلك دمل أو خراج ، أما الصديد فهو علامة على المعركة التي مات فيها البلايين من الجانبين (شكل ١٠) .. لاحظ أيضا حجم فوهة الغدة العرقية مع حجم الخلايا البكتيرية ، وكأنما هذه بالنسبة لتلك كباب واسع بالنسبة لقط أو كلب ، كما أن البشرة ذاتها ، تبدو متراكبة من كسف أو صفائح رقيقة نراها بوضوح أكثر في مدخل فتحة الغدة العرقية ، وهي ــ أي

الصفائح ــ ليست إلا خلايا ميتة تحولت إلى كسف من «الكيراتين» وهو نوع من البروتينات الذي تصنعه خلايا البشرة قبل موتها ، حتى إذا حل بها الضعف والموت ، ووجدت نفسها مدفوعة إلى قدرها ، فقدت حياتها ، وتحولت مادتها إلى قشور صغيرة رقيقة لتحمي برفاتها الخلايا الرقيقة الحية التي تكون أجسام الكائنات ، إذ لولا هذا السور العظيم من بلايين الأموات ، لما كان هناك من يكتب ، ولا كان من يقرأ !

الموضوع ــ بلا شك ــ طويل ومتشعب ومثير ، ونحن لا نريد أن نقدم كلاما يقرأ ، بل علينا أن نفسح المجال لصور لم تتعود عليها العين البشرية ، ولا طافت بالذهن ، لكن المجاهر الحديثة قد فتحت لنا نافذة واسعة لننظر من خلالها إلى كون الله العظيم في أنفسنا ، وفي كل ما حولنا ، فربما نقدره حق قدره ، «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» .. ولنا مع هذا الموضوع عودة ، لنرى أكثر ، ونتبين أعمق ، ونعلم ما لم نكن نعلم من بديع الخلق في الكون والحياة .

عبد المحسن صالح



بقلم : إبراهـيم أصـلان

عندما انتهيت من طلوع السلم العريض العالى ، وخطوت إلى الصالة الطويلة المضاءة ، فى الليل ، رأيته هناك أمام ساعة الميقات المعلقة ، بخشبها الأصفر المصقول .

كان يجذب ذراع الساعة الجانبى على فترات متباعدة ، وبين المرة والأخرى ، كان يشب ويميل ، كمن يقرأ شيئاً فى شريط التوقيع . وكنت ، وأنا واقف هنا فى حلق الباب ، أستريح وأسمع صوت الأسطوانة الداخلية وهى تدور ، وأقول ، إنه محمود زميل الدفعة القديم . لم يكن ممكنا أن أخطئه بهذه القامة التى لا تزيد على المتر إلا قليلا . غير أننى لم أكن واثقا ، بسبب من تلك السنوات الطويلة التى مضت ، وذلك القميص الخفيف الواسع ، وهذه الوفرة من لمبات النيون التى توهت ملامح الوجه البعيد ، ثم إننى لم ألبث أن سمعته وهو يسعل فى صوت نسائى نحيل ، ويجذب الشريط الورقى من قلب الساعة حتى خفت أن يقطعه . تراجع به حيث الجدار المدهون ، ورفعه هكذا بين يديه ، واستغرق فى الاطلاع على عشرات الأسماء المكتوبة ، وظل يفعل ذلك حتى مال بجسده ورآنى .

وقف ينظر ناحيتى ويداه عاليتان كما هما ثم ترك الشريط الورقى يتهدل مزدوجاً على البلاط الخشن المغسول ، وبدأ يخطو متردداً بنظارته الطبية حتى تأكد لى أنه محمود : «محمود القزعة» . ونظرت فى الوجه القريب : «أهلاً يا محمود» .

«أهلاً أهلاً . إزيك؟»

«أزيك إنت ؟ إنت انتقلت هنا والا إيه ؟»

«لا أبداً» .

«أمال إيه ؟»

هز رأسه كمن ينفى شيئاً . وشبك ذراعيه على صدره ، وتراجع بلحيته النابتة البيضاء ، ونظر جيداً إلى وجهى . وتوقفت عيناه عند شعرى ، وشاربى :

«لازم عندك ليل النهارده ؟»

ابتسمت وقلت : «أنا عندى ليل على طول» .

«كويس . ومضيت حضور والا لسه ؟»

«لأ لسه» .

«بتمضي فى الكشف والا فى الساعة ؟»

«فى الاثنين . زى زمان» .

«كلكم ؟» .

«كلنـــا» .

«رجاله وبنات ؟»

«رجاله وبنات . لكن للأسف مفيش بنات فى وردية الليل» .

شاركنى الابتسام فتباعدت ملامح وجهه قليلاً ، وقال إنه يعرف . فكرت أن ماجده لن تصدق عندما أخبرها بذلك اللقاء . محمود مراد زغلول . كنا نسميه القزعة لأنه اعتاد أن يعتلى أسطح المكاتب لكى يطول خانات الحفظ التى كانت تطولها البنات وهى واقفة فى مكانها . كان يقفز من مكتب إلى آخر دون حذاء ، بالجسد الدقيق ، والوجه الأسمر الضاحك . وخطر لى أنه الوحيد الذى يعادل مرتبه مرتبى بالمليم ، وقدمت له سيجارة ، ولكنه اعتدل فجأة وقال : «طيب سلام» .

«سلام ازاى ؟ أنا لازم أشوفك» .

«إن شاء الله» .

«قبل ما تسافر» .

«ضرورى طبعا» . وتوقف قليلاً ، وضيق ما بين حاجبيه وقال : «هو إنت كنت بتقول إيه ؟» .

«باقول لازم أشوفك» .

«لا الأول» .

«الأول امتى ؟» .

«الأول خالص ، قبل ما تسلم على» .

شعرت بالحيرة ، وابتسمت .

«طيب سلام» وهز رأسه مودعاً .

بدأ ينزل الدرجات العريضة بقميصه الخفيف الواسع . أخرجت قلمى من جيبى ، ولمحت يده الصغيرة على السياج الخشبى الناعم ، بينما هو يميل عند انحناءة السلم ، ويختفى .



أزمة المسرح العربي

• شهادات حيّة أوّلها: شهادة نعمان عاشور

رسالة القاهرة تكتبها: سارة



مشهد من مسرحية «أحرف وأبطال» اخراج أحمد ماهر



مشهد من مسرحية عبدالرحمن الشرقاوي «عرابي زعيم الفلاحين»

● ضعف الإمكانيات لايحول دون تقديم عمل مسرحي باهر

● عندما صرخت فلاحة بين الجمهور: «هايلين يا أولاد»..!

● تأجّل عرض مسرحية «كيف تتسلّق دون أن تتزحلق» بسبب سوء حالة دورة المياه..!

● ممثل في مسرح السامر يؤدي دوره بنجاح وحماس أمام جمهور من خمسة أفراد

انصرفت في الشهور الأخيرة لدراسة ومحاولة فهم واستيعاب التجربة الأدبية الثرية لجيل الستينيات في مصر من روائيين وقصاصين ، هذا الجيل الذي آمنت بتميزه وتفرده وعطائه الثري ، جيل من المبدعين اكتنفهم الضباب . وإن أردت الدقة جيل تكاثفت ضده ظروف « تحريني » أجهضت حقهم المشروع في الصدارة . وبانغماس في عالمهم المشحون بالغضب المترف بدلالات الخلق الوضئ المسكون بالخوف وبارتعاشات الرجاء ، لم أعد أصغي لتلك الضجة الزاعقة التي تنعي حال الأدب في مصر وما آل إليه .

و .. فجأة قررت التوقف إلى حين ، وأقول إلى حين .. وقررت أيضاً الكتابة عن ما سمي « بأزمة » المسرح العربي .

.. حاولت أن أجمع شتات ذاكرتي لأحدد متى وكيف كانت بداية تفكيري واهتمامي بموضوع هذه « الأزمة » ..

البداية . أو البدايات تحمل في طياتها الكثير من التناقضات و .. الدهشة أيضاً ، الغضب والتساؤلات أيضاً ، والكثير مما يدفع للتقدير والفرح أيضاً .. و .. الفرح ــ في اعتقادي ــ بشارة بالآتي ، والآتي هم جيل من شباب المسرح المصري عاشقون له حتى الثمالة .

البداية كانت ..

إعلان صارخ يتكرر في التليفزيون لإحدى فرق مسرح القطاع الخاص ، أغرى صغيري بإجباري على حضور هذا العرض ، وكان أن انصعت لرغبته . وذهبت لأفاجأ بإسفاف جعلني أشعر بالخزي لوجودي في هذا المكان ، وما أثار دهشتي أن الجمهور كان في حالة « انبساط » وكان يحتل كل المقاعد . ! !

و .. للعلم فإن قيمة التذكرة خمسة عشر جنيهاً ، ومن يرغبون ــ وما أكثرهم ــ بالتقاط صور « تذكارية » مع « نجوم » المسرحية يدفعون عشرة جنيهات لكل صورة . هذا عدا الأسعار الملتهبة للمأكولات والمشروبات . وبنظرة فاحصة لنوعية الجمهور تكتشف أن ما يشاع من أن جمهور هذا النوع من المسرحيات هم فئة « الصنايعية » الجديدة أكذوبة ، أقول هذا بعد جولات متكررة لمثل هذه العروض وفي مواسم مختلفة .

ملحوظة اعتراضية : اتفق معي الناقد سامي خشبة في حوار دار بيننا على الرأي الذي يرفض الربط بين المسرح الهابط وفئة « الصنايعية » .

البداية كانت ..

خبر صغير في إحدى الصحف المصرية يقول إن أبطال مسرحية نعمان عاشور « مولد وصاحبه غايب » طالبوا بإيقاف العرض لانخفاض عدد الجمهور إلى عشرة أفراد فقط . وعندما استفسرت عن حقيقة الخبر نفاه لي نعمان عاشور نفياً قاطعاً واعتبر ذلك خطة مقصودة لمحاولة إيقاف المسرحية ، وقد ذهبت لمشاهدة المسرحية التي أخرجها سعد أردش . وأستطيع أن أقرر مطمئنة أن عدد رواد هذه المسرحية الجيدة والجادة بالقياس لرواد المسرح التجاري يعد مؤشراً خطيراً لتحديد ملامح هذه الأزمة وعمقها . و .. للعلم فإن قيمة التذكرة تتراوح بين جنيهين وخمسة جنيهات .

البداية كانت ..

تجربة جادة وثرية عايشتها عن قرب في مركز شباب الساحل ، مجموعة من الشباب انغمسوا في عشق المسرح بعيداً عن الضجيج والأضواء .

« أحرف وأبطال » مسرحيتهم التي وصلوا بها إلى دور التصفيات على مستوى المحافظات لمراكز الشباب ، من إعداد وإخراج الفنان القدير أحمد ماهر ، الذي دفعه انتماؤه للمكان أن يبذل ساعات طويلة من يومه تمتد حتى إشراقة الفجر لتدريبهم رغم أعبائه التي تلتهم مساحات عريضة من يومه .

و .. شهدت يوم الافتتاح ، وشهدت إستقبال الجمهور الحار للمسرحية إعداداً وإخراجاً وأداء ، لقد أثبتت هذه المجموعة أنهم نجوم جديرون بالاهتمام والتقدير ، وأثبتوا أن ضعف الإمكانات لا يحول دون تقديم عمل باهر ، لأن المسرح ــ في اعتقادي ــ يمنحك بقدر ما تمنحه من حب وتفان ، ولعل أبلغ تعليق ما قالته سيدة ريفية كانت تجلس بجواري ، وأنا واثقة أنها لا تعرف من هو سبارتاكوس ، محمد كريم ، الأفغاني ، وطفاء ، ابن الحكم ، وغيرها من شخصيات المسرحية ، ولكن بهرها صدق الأداء ، وروعة الإخراج ، فقالت وهي تصفق : « هايلين يا ولاد » .

مشهد من مسرحية « مآذن المحروسة » تأليف أبو العلا السلاموني

شهادة نعمان عاشور

● القول بأن العرب القدماء عرفوا المسرح هو نوع من المكابرة

● أزمة المسرح بدأت مع نكسة ١٩٦٧





هل أبدو لكم شديدة الحماس . ربما لأنني شديدة الثقة بجيل الشباب المصري على اختلاف مواقعه واهتماماته وثقافته وعطائه ؟

البداية كانت ..

تأجيل عرض مسرحية « كيف تتسلق دون أن تتزحلق » بمسرح الطليعة أسبوعاً كاملاً ، وعندما استفسرت عن السبب علمت أن المبلغ المخصص لاصلاح دورات المياه في المسرح قد تأخر صرفه لإجراءات إدارية روتينية ، وبالتالي تأجل عرض المسرحية ! !

البداية كانت ..

دراسة للناقد سامي خشبة بعنوان « المسرح المصري ، الأزمة ، والانفراج ، والحقيقة » جاء فيها « وكان نفي نوعية معينة من النصوص إلى مسرح المثقفين « مسرح الطليعة » الذي لا يرتاده « الجمهور » والغالبية العظمى من رواده طلاب معهد المسرح أو ضيوفهم ، وضيوف الفرق وعائلاتهم الفرحانة بأولادها على مشارف النجومية وما يتلوها . هكذا تظن العائلات على الأقل » و .. قررت الذهاب إلى هذا المنفى الذي لا يرتاده « الجمهور » لاستطلاع الحقيقة ، وواظبت على ذلك ليال متعددة . لأكتشف أن مسرح المثقفين لا يرتاده حتى أشباه المثقفين إلا نادرا . وأن غالبية جمهوره هم بسطاء الناس الذين ارتبطوا به عبر تاريخه الطويل . والذين لا علاقة لهم بالفرق وضيوفها أو معهد المسرح وضيوفه ، ولعلني لا أبالغ إذا قلت بأن تمسك مسرح الطليعة والمسرح المتجول بقضايا المسرح الجاد والتزامهما الرصين وسط هذا السيل العارم من الإسفاف والابتذال نوع من البطولة التي تستحق التكريم . للعلم .. فإن قيمة التذكرة خمسون قرشاً !

البداية كانت ..

ساعات قضيتها مع عامل البوفيه وعامل الكهرباء وآخرين في مسرح السامر ، حدثوني فيها عن تاريخهم الطويل مع هذا المسرح وأدانوا الجمهور على عدم اهتمامه بالعروض الجادة ، وأخبروني أن عدد المتفرجين يكاد لا يزيد عن أصابع اليد أحياناً . وأحياناً أخرى يجدون أنفسهم مضطرين لأن يقوموا هم أنفسهم بدور الجمهور ، والمدهش أثناء حضوري لعروض تلك الليلة وقد كان مونودراما « أضرار التبغ » لتشيكوف أن الممثل الشاب مجدي عبيد كان يؤدي دوره بحماس كما لو أن المقاعد أمامه مكتظة بالجمهور . وحقيقة الأمر بأننا فعلاً لم نتجاوز أصابع اليد !

وللعلم أيضا .. فإن دخول مسرح السامر مجاناً ! !

البداية كانت ..

حضوري بروفات مسرحية « الكلاب وصلت المطار » تأليف وإخراج علي سالم ، المدهش في هذه المسرحية أنها مغامرة حقيقية لأنها ضد كل قواعد وحسابات السوق ، فهي مسرحية بلا نجم ولا حتى أنصاف نجوم ، ومع ذلك فكاتبها على ثقة بأنها ستكون انقلاباً في تاريخ الكوميديا المصرية لأنها ثورة فنية على كل المقاييس ، و .. أعترف أنني لم أستطع أن أخفي قلقي وشكي أمام هذا الرجل الذي بلغ الخمسين وما زال قادراً على أن يحلم كطفل لم تدجنه خيبات الزمن . قال لي : « لا تقلقي هذه حسابات لا يعرفها إلا العاشق ، فأنا على موعد حب مع متفرجي الذي أحبه وينتظرني » .

و .. في محاولة « متواضعة » لفهم تناقضات هذه البدايات ، وفي محاولة « متواضعة » أيضاً لحل ما اختار سامي خشبه أن يسميه « بلغز » أزمة المسرح المصري كان لقائي مع أبرز كتاب المسرح المصري ونجومه ومخرجيه ونقاده ، وإن غابت أسماء فهذا ذنب الصيف والاجازات .

نعمان عاشور (٢٣ مسرحية)

« نحن لم نعرف المسرح الحديث كما هو معروف في الدول الأوربية ، فتاريخنا الأدبي عرف الشعر ولم يعرف المسرح ، وأنا ضد كل الآراء التي تدعي أن العرب عرفوا المسرح ، فإذا كان قد ورد في الشعر أو في مقامات الحريري أو غيرها العنصر الدرامي ، فهذا لا يعني وجود مسرح ، لأن العنصر الدرامي موجود في كل الأشكال الأدبية » أما المسرح بشكله المعروف وهو وجود مجموعة تشخيص وجمهور يتلقى ونص مكتوب فهو أمر لم يكن معروفاً في البيئة العربية ، وأي محاولات تبذل لاثبات عكس ذلك أعتبرها نوعاً من المكابرة . ولكن التراث العربي ملئ بالقصص كألف ليلة وليلة ، مقامات الحريري ، والأغاني والتي تصلح أن تكون ركائز موضوعات للمعالجة المسرحية .

« ومصر عرفت المسرح في بداية القرن التاسع عشر وقد كانت مظاهره تتمثل في الأراجوز وفي خيال الظل . ومع نهاية الحملة الفرنسية ونهاية عهد محمد علي كان هناك ميل للأخذ بمظاهر الحضارة الأوربية ، البعض يقول إن الذي أوجد المسرح في العالم العربي هو مارون النقاش في سوريا وهو تاجر وشاعر أجاد اللغة الفرنسية فتأثر بموليير وعاد إلى دمشق ليؤلف فرقته المسرحية ومن ثم انتقل بها إلى بيروت ، وأنا لا أعتقد أن هذه هي البداية الحقيقية ، ولا أوافق على هذا الرأي ، فهناك بداية أخرى لازمتها وربما سبقتها وهي بداية وجود المسرح على يد يعقوب صنوع في عهد إسماعيل .

« ولأن السلطة العثمانية كانت تعتبر التمثيل والتشخيص إحدى المحرمات فقد طاردت مارون النقاش . وجاء بعده ابن أخيه سليم النقاش الذي واجه نفس العقبات فقرر الهجرة إلى مصر حيث كانت التربة ممهدة على يد يعقوب بن صنوع ، وهو مثقف يهودي كان مدرساً للرقص والغناء في بلاط الخديوي واستطاع أن يتقرب من اسماعيل ، وأسس فرقة كانت تعرض داخل السراي مسرحيات تقليدية إقتبسها من المسرحيات الفرنسية . وكان يمجد من خلالها الخديوى إسماعيل . بعدها أنشأ مسرحه الخاص فى الأزبكية واتصل بالحركة السياسية التى كان يقودها الافغانى ومحمد عبده ، وتحول مسرحه من مسرح إجتماعى إلى مسرح سياسي هاجم فيه سياسة إسماعيل فحكم عليه بالنفي خارج البلاد .

« إذن نفي يعقوب بعد أن وضع بذرة المسرح الأولى التي مجدها الأفغاني في أقواله وكان قد سبقه في الاهتمام والدعوة لقيام المسرح رفاعة الطهطاوى الذي دعا إلى كتابة مسرحيات بالعامية على شرط أن تكون مطعمة بالفصحى ، ولازالت كلمته تلك كلمة أساسية في قضية اللغة التي هي من أعسر القضايا التي يواجهها المسرح .

« بعد نفي يعقوب انشأ سليم النقاش مسرحه في الاسكندرية وهي العاصمة الحقيقية للمسرح ، واستدعى من بيروت أديب اسحق وأسسا « مسرح الاسكندرية » وقاما بتقديم مترجمات راسين وموليير ، واستعانا أيضاً بالأعمال التي أعدها مارون النقاش عن ألف ليلة وليلة مثل مسرحية أبو حسن المغفل . لكن قيام الثورة العرابية أطفأ جذوة هذا المسرح .

« وعلى نقيض ذلك فقد ساعد قيام الثورة العرابية على قيام مسرح عبدالله النديم الذي دعا إلى مقاومة الاستبداد وإلى القومية العربية وهي الدعوة التي ارتبطت بعد ذلك بعبدالناصر والحقيقة أنها دعوة قديمة ممتدة في التاريخ العربي ومرتبطة بكل الفنون ، ولكن مسرح النديم فشل لأن السلطات لم تكن تسمح إلا بالمسرح التعليمي الساذج ولأن البيئة المصرية لم تكن بعد قد تدربت على تذوق فن المسرح .

« في ظل الاحتلال وبعد فشل الثورة العرابية برزت حركة مسرحية تمثلت في الفرق التي هربت من اضطهاد مندوب الولاية العثمانية في الشام ، وهاجر إلى مصر مجموعة من المسرحيين منهم أبو خليل القباني . وألفوا فرقاً مسرحية في الاسكندرية كان يحميها تجار المدينة والذين كان أغلبهم أيضاً من الشام ، وكان مسرحهم يعتمد على الغناء والنكت والتهريج . وكان بعيداً تماماً عن القضايا الاجتماعية والسياسية .

« ظل هذا حال المسرح حتى بروز شخصية الزعيم مصطفى كامل الذي كان يؤلف المسرحيات ويمثلها وهو تلميذ ، فاحتضن المسرح ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح المسرح جزءاً لا ينفصل عن مظاهر الحياة الفنية الأخرى . وقد أدت الحركة السياسية الكبرى التي سبقت ثورة ١٩١٩ إلى ظهور مجموعة من المسرحيين منهم جورج أبيض وإنشاء جمعية أنصار التمثيل والسينما . وكان من أعضائها محمد



- اشترى مني التليفزيون مسرحياتي ولم يعرضها
- قدمت مشروعاً كاملاً لحل أزمة المسرح ولم يأخذ به أحد
- الممثلون أصبحوا مليونيرات هذا العصر
- ثلاثة من كُتاب المسرح ماتوا من القهر
- لماذا رفض يوسف السباعي حضور مسرحيتي عن رفاعة الطهطاوي ؟

تيمور ، وقدم الشيخ سلامة حجازي ومنيرة المهدية المسرح الغنائي ، وحاول عزيز عيد ونجيب الريحاني خلق شكل جديد للمسرح ، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وأصيبت الحركة المسرحية بانتكاسة جديدة .

• مع قيام ثورة ١٩١٩ تألق المسرح من جديد ، حيث ظهر مسرح محمد تيمور الوطني وخرج الريحاني من نطاق الصالات ليؤسس فرقته وكذلك يوسف وهبي وعزيز عيد وفاطمة رشدي والكسار ، واستمر المسرح في تألقه حتى عام ١٩٣٢ عندما داهمت الأزمة العالمية الجميع ، فعجزت هذه الفرق عن الاستمرار . وتبعثر شملهم .

• عام ١٩٣٥ قامت الحكومة بخطوة رائدة حيث قررت احتضان المسرح فأنشأت الفرق القومية المصرية . وهي أول فرق حكومية جمعت فيها شتات الممثلين الذين تفرقوا بعد انهيار فرقهم . وكان أول عرض لهم مسرحية « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم .

في تلك المرحلة كتب عزيز أباظه وباكثير العديد من المسرحيات وكتب شوقي مجنون ليلى ومصرع كليوباترا . لكني أستطيع أن أقول إن تلك النهضة المسرحية كانت نهضة محدودة لأنهم كانوا يقدمون مسرحياتهم بالفصحى وفي نطاق الاقتباس وكانوا يفتقدون النصوص المسرحية المحلية التي تعالج قضايا المجتمع وهمومه .

• في تلك المرحلة أيضاً انتعش المسرح على يد الريحاني بفرقته الخاصة لأنه قام بتقديم مسرحيات اجتماعية كوميدية تمس حياة الناس الذين عزفوا عن الفرق الحكومية وأقبلوا بحماس على مسرح الريحاني حتى قامت الحرب العالمية الثانية . وفرض نظام التعتيم الكساد على الحياة المسرحية وانتعشت صناعة السينما .

• بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان الريحاني الوحيد الذي استطاع أن يعيد تكوين فرقته وظل حتى عام وفاته ١٩٤٩ يقدم كل شهر تقريباً مسرحية أو يعيد بعض المسرحيات ، وكانت سنواته تلك من أثرى السنوات ، ولاقى نجاحاً منقطع النظير في حين كانت الفرق القومية تتعثر لعدم وجود مؤلفات ولاعتمادها على المترجمات والاقتباسات ، وكان الريحاني أيضاً يعتمد في مسرحياته على الاقتباسات ، ولكنه كان من الذكاء بحيث طعمها بشخصيات ومواقف محلية ومنحها مضموناً اجتماعياً محلياً .

• في تلك المرحلة نجح زكي طليمات بإقناع المسئولين بافتتاح معهد للفنون المسرحية وبذلك اتخذ المسرح صبغة علمية ، وهذا المعهد هو الذي قام بتخريج دفعات من الممثلين والمخرجين والنقاد الذين تعتمد عليهم حياتنا المسرحية اليوم .

• أصبحت الأرض إذن ممهدة لقيام مسرح ثابت الأركان . ولكنه كان يفتقد أهم أركانه ، وهو المؤلف المسرحي ، حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو والتي كانت سبباً رئيسياً لظهور حركة الستينيات المسرحية وبروزها لأن قادة الثورة لم يكونوا خطباء ، ولأن الثورات تحتاج عادة إلى منابر للتعبير عنها فقد كان المسرح هو أفضل منبر اختارته الثورة . بالإضافة لذلك وجود حركة ثقافية ضخمة سبقت الثورة ، فحملة راية المسرح في الستينيات هم أنفسهم مثقفو الأربعينيات ، وهكذا كان المسرح مواكباً للثورة في سنواتها الأولى ، وقام لأول مرة بتقديم مؤلفات مسرحية حميمة من واقع الحياة المصرية .

• ولذلك أستطيع أن أقرر مطمئناً أن مسرح الستينيات هو البداية الحقيقية للمسرح المصري المحلي المتكامل اجتماعياً لأنه كان قائماً على نصوص نابعة من البيئة ، وقد يعترض البعض ويقول بأن مسرح يوسف وهبي عرف المسرحيات الاجتماعية ؛ ولكن – في رأيي – أغلبها مسرحيات مفتعلة أو مقتبسة ، والوحيد الذي كان في مسرحه رنة اجتماعية سليمة هو الريحاني ولكن في بعض الموضوعات ، وما يميز كتاب هذه المرحلة أنهم كانوا يكتبون للمسرح مباشرة ، يعني مسرحيات جاهزة للعرض ، وأنا مثلاً كنت أطبع مسرحياتي بعد عرضها بثلاث أو أربع سنوات ، قبل ذلك كان توفيق الحكيم يكتب مسرحياته لتظهر في كتاب ، وهذا منح المسرحية قيمة أدبية ، ولكن عندما يراد تقديمها على المسرح فلابد من إجراء تغييرات وتعديلات حتى تصبح صالحة للعرض المسرحي ، وأعتقد أن موهبة كتابة مسرحيات جاهزة للعرض توفرت لكتاب الستينات فقط بفعل ظروف الثورة التي ولدت الحاجة لوجود مسرح ، والظروف أيضاً ، اقتضت أن يقوم هذا المسرح على أساس التأليف المباشر .

• أزمة المسرح المصري بدأت بالتحديد مع نكسة ٦٧ فالعناصر المضادة للثورة والتي أسماها عبدالناصر بالحزب السياسي غير المعلن كانت تقاوم المسرح باعتباره منبراً لتأكيد هذه التغييرات ، فكان لابد من محاولة هدمه ، لقد كان المسرح القومي يقدم ٢٤ مسرحية في الموسم الواحد كلها تتضمن دعوات اجتماعية جديدة . ولذلك بدأت محاولة إضعاف مسرح القطاع العام بالترويج للمسرح التجاري ومازال مسرح الستينيات يتعرض للحرب بواسطة العناصر المناهضة لأفكار ومبادئ ثورة ٢٣ يوليو . هذه العناصر التي حاربتها الثورة وساندها مسرح الستينيات في محاربتهم بما حمله من أفكار مناهضة للأوضاع القائمة ، لقد كان مسرحنا مسرحاً رافضاً .

• ودليلي على ذلك أن التلفزيون في بداياته كان حريصاً على تسجيل مسرحياتنا وإذاعتها أما الآن فإنه يتجاهلنا ويحرص على تقديم مسرحيات القطاع التجاري ، مسرحيات فؤاد المهندس وسعيد صالح والهنيدي ، وأحاط هؤلاء الذين لا يقدمون مسرحاً بالمعنى الحقيقي ، أحاطهم بهالة ضخمة من الدعاية وذلك لمحاربة المسرح الجاد ، بل زاد على ذلك بتأسيس ما سمي بمسرح التلفزيون والذي تكون من عشر فرق لإغراق الحركة المسرحية ، وهذه الفرق هي التي أفرخت المسرح التجاري ، فعندما أغلق مسرح التلفزيون تفرق ممثلوه وأنشأوا مسارحهم الخاصة « والله أعلم كانت بتمول من فين » وأغرقوا الحياة المسرحية بالتفاهات وطمسوا معالم المسرح الجاد .

• منذ ثلاث سنوات اشترى التلفزيون مني ثلاث مسرحيات ، المغناطيس ، والناس اللى فوق ، وصنف الحريم ، ودفع لي أجراً مساوياً لأجر توفيق الحكيم وهو أعلى الأجور ، وحتى اليوم لم يتصرف في أي مسرحية منها ، وقد كتبت لهم عارضاً عليهم إعادة المبلغ لاسترجاع المسرحيات لأن هناك شركات تريد تقديمها ، لكني لم أتلق رداً ، بعد عامين سيسقط حق التلفزيون وسأستعيد مسرحياتي المجمدة ، وأنا أعتقد أن هذا التصرف سياسة مرسومة ومخططة لمحاربتنا .

• إذن فأزمة المسرح ليست أزمة كاتب أو ممثل أو مخرج ولكنها أزمة سياسية واجتماعية واقتصادية اقتضت تكميم المسرح الجاد وانعاش المسرح التجاري لينحدر بالتالي ذوق الجمهور .

ومما ضاعف المحنة مرحلة الانفتاح في السبعينيات التي أوجدت طبقة طفيلية لا يعنيها الفكر أو الثقافة .

• وفي مرحلة الثمانينيات مازال المسرح التجاري هو السائد . ولكن الفارق في هذه المرحلة أن المناخ السياسي يساعد على إعادة المسرح الجاد وإحيائه . وأنا واحد من الذين يدعون لعودة مسرح الستينيات من جديد . وأن نبتدئ من حيث انتهى ونضيف إليه . ولكن المشكلة تبقى كيف نستعيد الجمهور الذي فقدناه بتأثير المسرح الهابط . لقد قدمت مشروعاً منذ عامين لحل هذه الأزمة . ووافق عليه وزير الثقافة . ولكن لم يتم تنفيذه حتى اليوم . ويتلخص هذا المشروع في حصر كل المسرحيات الجادة ذات القيمة الفنية والتي قدمت منذ عام ١٩٣٥ حتى اليوم ؛ واستخراج الأجود منها . وحسب تقديري الخاص فإننا نستطيع استخراج مائتي نص . وهنا يبدأ دور التليفزيون في تقديم هذه المسرحيات واستغلال جموع الممثلين العاطلين في القطاع العام . وبذلك يستطيع التليفزيون أن يغطي نفسه لمدة أربعة أعوام بتقديم خمسين مسرحية جادة كل عام . وذلك سوف يساعد بصورة مؤكدة وحاسمة في الارتفاع بذوق الجمهور الذي انحدر بفعل الظروف التي ذكرتها طوال الأعوام السابقة . وهذه مهمة صعبة . أعترف بذلك . ولكن علينا أن نحاول ؛ وأن نستمر في الكتابة . لأنها طريقنا الوحيد لمقاومة هذا الوضع السائد والمتردي . ولكننا جميعاً لا نستطيع النجاح إلا بواسطة أجهزة الدولة ، وبالذات التليفزيون ــ الذي مازال مصراً على تجاهل المسرحيات الجادة ــ لأنه الغول الذي يبتلع كل وسائل التعبير الأخرى .

• المشكلة الثانية التي نواجهها هي عدم قدرة نجوم المسرح المصري على الصمود أمام إغراءات التليفزيون والسينما . وعدم قدرة مسرح القطاع العام على تقديم إغراءات لجذبهم لأن ذلك فوق طاقته . لقد وجدت أنا شخصياً صعوبة في إقناع ممثلين لتقديم مسرحيتي الجديدة . وعلى الرغم من أن كل واحد منهم تقاضى ٥٠٠٠ جنيه . وهم لا يعدون من ممثلي الدرجة الأولى . إلا أنهم كانوا غير راضين بهذا المبلغ . إن الممثلين ــ في اعتقادي ــ أصبحوا مليونيرات هذا العصر .

• النقد تابع لاستمرارية وجودة الإنتاج . فإذا كان هناك انتاج مسرحي جيد يكون هناك بالتالي نقد جيد . ولكن هذا لا يمنع من أن للنقد دوره خارج نطاق وجودالعمل الفني . لقد انقلب النقد المسرحي الآن إلى مجرد انطباعات خاطفة من كثرة عدد الصحفيين الذين منحوا حق الكتابة في الأعمدة . سوف تجدين أن في كل جريدة خمسة أو ستة أعمدة يكتب فيها من ليس لهم علاقة بالنقد أو غيره . أما النقاد الدارسون فهم قلة : وأغلبهم أكاديميون . أما النقاد المشتغلون بالقضايا العامة مثل د . الراعي و د . لويس عوض . فقد توقفوا عن ممارسة النقد لأنه ليس هناك ما يثير فعلاً حماسهم للكتابة . أما النقاد الجدد فلا يهمهم رعاية الحركة المسرحية ، بمعنى دراسة أحوال المسرح وأزماته وأسباب ، انهياره بقدر ما يهمهم تسجيل انطباعاتهم الخاطفة . وهذه إحدى أزمات المسرح .

• أنا من أنصار وجود الرقابة في حدود معينة . ولقد كنت مديراً للرقابة على المصنفات الفنية عام ١٩٥٤ وشاركت مع المجموعة الادارية في وضع القانون الذي يطبق حتى اليوم والذي يرتكز على نقطتين أساسيتين هما منع العبث بالأخلاقيات العامة المتعارف عليها وحظر الهجوم على النظام السياسي هجوماً مباشراً . والقضية ليست قضية إلغاء الرقابة بقدر الدعوة إلى تقويمها والمطالبة برقابة رشيدة . واعية وقوية ، وقد أدى ضعف سلطة الرقابة إلى انتشار هذا الاسفاف الذي نعاني منه . فهل من المعقول إذاً أن أطالب بالغائها أمام هذا الوضع المزري وسيطرة القطاع التجاري؟ أنا أفضل الابقاء عليها « كشبح » مهما كانت ضعيفة على أن أطالب بالغائها . وقد أجريت مؤخراً بعض التعديلات على نظام الرقابة كلجنة التظلمات والهيئة العامة للرقابة .

• من الصعب الحكم على الجيل المسرحي الجديد لأن عنصر الاستمرار والثبات شرط أساسي لابداء الرأي . ولكني أستطيع أن أحدد اسمين لأبرز كتاب المسرح الجدد وهما يسري الجندي وأبو العلا السلاموني ، وقد قدم كل منهما سبع مسرحيات وهذا نوع من الثبات والإخلاص للمسرح . وبالنسبة للممثلين فهناك أحمد ماهر ومحمود مسعود ولكن من يضمن استمرارهما وعدم رضوخهما لإغراءات التليفزيون . وأعتقد أن مسرح الطليعة مصدر هام لتزويد الحركة المسرحية بالممثلين والمخرجين الممتازين . وله جهوده التي لا تنكر للحفاظ على تقاليد المسرح الجاد وكذلك المسرح المتجول .

• من المسرحيات الجيدة التي قدمت مؤخراً مسرحية « منين أجيب ناس » لنجيب سرور وبطولة محسنة توفيق و « عرابي زعيم الفلاحين » للشرقاوي وبطولة أحمد ماهر . و « الوزير العاشق » وإن كان نجاحها . اعتمد على نجمين بارزين هما سميحة أيوب وعبدالله غيث .

• أغزر سنوات انتاجي كانت في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٥ ــ ١٩٦٦ ، فقد كنت أكتب مسرحية كل عام . أما بعد ذلك التاريخ فكنت أكتب مسرحية كل عامين وربما كل ثلاث سنوات أو أربع .

• لقد تعودت أن تصاحب مسرحياتي حملات معادية أو مؤيدة . فبعد وفاة عبدالناصر وانهيار مسرح الستينيات . التزم بعض كتاب المسرح الصمت . والبعض اضطر للهجرة كالفريد فرج ومن النقاد محمود أمين العالم ، ومن المخرجين سعد أردش وكرم مطاوع . والبعض الآخر أصابته كوارث . مات نجيب سرور وميخائيل رومان ومحمود دياب . وهؤلاء الثلاثة كانوا يعانون من مقاومة حادة لما يكتبون حتى أن البعض قال إنهم ماتوا قهراً . وهكذا انفرط عقد المجموعة التي كانت تشكل أساس الحركة المسرحية . وكنت أنا الوحيد تقريباً الذي ظللت أقاوم بالكتابة مستفيداً من وضعي الخاص ككاتب أديب لا يمكن إلغاؤه ، ومكتسباً الشرعية بحكم مكانتي وبحكم تاريخي . ولأنه لا يمكن تجاهلي فقد بذلت محاولات عديدة لتحجيمي و « تطويحي » ومن ذلك ما حدث عام ٧٤ لمسرحيتي « ياحلم يا مصر » والتي كان من المفروض أن يتم افتتاح المسرح القومي بها . لكني فوجئت بأنه تم تحويلها لمسرح الجمهورية . وبالرغم من ذلك فقد نجحت المسرحية وكانت الجماهير تخرج في شبه مظاهرة وهي تردد كلمات رفاعه الطهطاوي ، الأخيرة وهو يحتضر « لا مصر بدون الحرية » مما اضطر قسم الأزبكية إلى إرسال عساكر ليمنعوا الناس من الخروج في شبه مظاهرة . ومع ذلك فقد رفض يوسف السباعي وكان وزيراً للثقافة مشاهدتها مع أنه حضر كل العروض الأخرى متعللاً بأنها مسرحية مليئة بالصخب والضجيج . وهذا ما حدث أيضاً لمسرحية « برج المدابغ » والتي كان من المفروض أن يتم افتتاح المسرح القومي بها وتم تحويلها للمسرح الحديث وبذلت محاولات لتعطيلها منها مثلاً منح أربعة ممثلين اجازات دون علمي وعلم المخرج سعد أردش ومحاولات أخرى كثيرة أيضاً مع مسرحيتي « لعبة الزمن » . أما بالنسبة لمسرحيتي الجديدة « مولد وصاحبه غايب » فقد ظهر من يريد محاربتها من الانفتاحيين ومن يسير في ركابهم والمستفيدون منهم . أما النقاد « المحترمين » فقد كانوا راضين عن النص . وأستطيع أن أقول إن المسرحية لم تنجح جماهيرياً كما كنت أطمع كما أنها لم تفشل أيضاً . وأسباب عدم نجاحها أن المسرح كان مكشوفاً . والمسرحية كانت تحتاج إلى مسرح مغلق لأنها أكثر جدية من الكوميديا العادية . كما أن المسرح غير مطروق . بالاضافة إلى ذلك فقد صادف عرض المسرحية أسوأ ظروف جوية لم تشهد القاهرة مثلها من قبل . بالاضافة إلى ضعف الاعلانات .

سارة

في العدد القادم :

شهادات فنية أخرى حول أزمة المسرح يقدمها يوسف ادريس ــ سعد الدين وهبة ــ على سالم ــ يسرى الجندى

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد جمالاً مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

• العرب أمة المستقبل • • أحمد الله إليك

العرب أمة المستقبل



بقلم: عبد الرحمن عزام

يتلقى الساسة في المغرب ، وبعض أشباه الساسة في المشرق ، الدعوة إلى الوحدة العربية بقليل أو كثير من السخرية والاستهتار ، على قدر جهلهم بالحقيقة ، وانخداعهم بالمظاهر . وقد كان أمثال هؤلاء الساسة في القرن الماضي يسخرون من الوحدة الطليانية والوحدة الجرمانية بمثل ما يسخرون منها اليوم .

في إيطاليا كان وجه الشبه مفقوداً بين « الصقلي » أسمر الأديم أسود العينين نحيف الجسم حاد المزاج وبين « البيومنتي » ناصع البياض أزرق العينين ، ضخم الهيكل ، شمالي المزاج ، كان وجه الشبه بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال مفقودا ، وكان تباين اللهجة على نسبة البعد ، وكان الزعماء والقواد والكهنة قد جعلوا من ايطاليا جسما محطما متناكراً يستعصي على السابك والناصح ، فلا يجمعه صهر ولا يؤلفه لين . كانت ايطاليا على هذا الحال قبل تمام وحدتها بعشر أو عشرين سنة ، فكان ساسة أوروبا يسخرون من « مازيني » وأضرابه ، ممن دعوا إلى الوحدة الطليانية عن إيمان والهام ونفاذ بصيرة .



كذلك كان الشأن في ألمانيا ، تلك البلاد التي كانت مسرحاً لحرب دينية أهلية دامت أجيالا . وخلقت في جنوبها قلعة الكثلكة وفي شمالها عاصمة المنشقين على الكنيسة ، الخوارج على السلطة الربانية الممثلة في مقام البابوية . كانت المانيا بين الكثلكة والبرتستانتية . وما بين هاتين من شيع فريسة الفرقة الدينية ، ثم الفرقة السياسية فكان في كل ناحية تاج وعرش وفي كل تاج معضلة . وكان في كل اقليم بيت وفي كل بيت مشكلة والأمة الالمانية بين التيجان والبيوت تحيا حياة الفتنة فلا ينتظم لها عقد .

كانت ألمانيا على هذا التخاذل ، وكان الداعون للوحدة الألمانية في نظر الساسة الأوروبين قوما حالمين خياليين ، فلما تهيأت بروسيا لزعامة التيجان المتحدة وجاءت حرب ١٨٧٠ ظهر أن الحالمين الخياليين أبعد نظراً وأهدى سبيلا .

منذئذ لم تستطع أكبر قوى العالم أن ترد ألمانيا للفرقة وقد ذاقت الجاه والغنى والأمن . فتألب عليها العالم . تألبت ٢٨ دولة في الحرب العامة فلم تستطع أن تحيي ماقضت عليه الوحدة من السخائم المحلية أو السخافات الطائفية . لم تستطع بريطانيا ، ووراءها خمس الدنيا ولا الولايات المتحدة ووراءها قارة ولا فرنسا ولها من القوة والملك مالها ، ولا روسيا تعبيء في زحف واحد ١٢ مليوناً من الجنود ، ولا العنصر الأصفر ممثلا ربع البشر . لم يستطع هؤلاء جميعاً أن يمزقوا المانيا بعد أربعين سنة من اتحاد شعوبها .

وقد كان هذا الاتحاد قبل وقوعه حلما وخيالا عند الساسة الأوروبيين .

هذان مثلان في التاريخ الحديث يجب أن يعيهما العرب . ويجب على دعاة الوحدة العربية أن يضعوهما نصب أعينهم وأن يتخذوا منهما القدوة والعبرة . وليس العرب في العالم أقل شأنا من الجرمان ولا بالطبيعة من الطليان ، ولا من جهة العدد ، ولا المميزات الأخرى .

فقد اختص العرب بنصف دائرة البحر المتوسط ، ويطلون على المحيط الهندي من ناحية والأطلسي من الناحية الأخرى . والعنصر العربي في أقاليم معظمها معتدل . وأرض غنية بالنبات والحيوان والمعادن ، فيها ثلاثة أنهار من أعظم أنهار الدنيا ومنابع للغاز من أغناها ، ومناجم للمعادن على اختلاف أنواعها ، وهو عنصر أهل لاستثمار ثروات أرضه ، وكفؤ لاخراج حضارة مادية بجانب المعنوية التي امتاز بها من قبل .

والعنصر العربي فوق ثراء أرضه وكثرة عدده ، له على العموم عدة العزيمة والنشاط والجلد والمغامرة .

ووحداته المكونة له ، سواء في آسيا أم في افريقيا ، لا تزال فتية لم تمسها الشيخوخة ، فجميع شعوبه في عنفوان الصبا . غير منهوكة بترف ولا مصابة في أبدانها أو عقولها بشيء من أمراض الأمم القديمة . فإن العنصر العربي مع أنه من العناصر القديمة التي مدت العالم بحضارات عظيمة ، قد انتفع بانتشاره وتجوله فهيأ له ذاك الامتزاج بشعوب سوداء وأخرى تغلب عليها ودمجها في ذاته ثم هضمها واستوى إلى أصله ، فأمدته بفتوة وحيوية لا يتمتع بها شعب من الشعوب القديمة . ولا شك أن الوحدة العربية تحت الظروف الحديثة ستبرز العنصر العربي متهيئا بقوى جديدة ومميزات مضافة إلى تلك التي كانت له في ظهوره الأول على الرومان والفرس وأمم المشرق والمغرب منذ ثلاثة عشر قرنا .

وسيجد دعاة الوحدة كلما ساروا بدعوتهم إلى الأمام ، وكلما تغلبوا على الأقطار العربية المرتابة ، أو المترددة . أن أمرهم ظاهر . وأنهم على بينة منه . سيجدون أنهم يستندون في دعوتهم على حقائق ثابتة ، وأنهم يحسبون حسابهم على قواعد رياضية لن تخطيء . سيجدون أولا سيادة اللغة العربية كاملة في العرب والأمم المستعربة كسيادة اللغة الالمانية أو الايطالية أو الانجليزية ، وسيجدون اللهجات مهما اختلفت لا تختلف إلا في استعمال المترادفات العربية . وأن الجميع تربطهم لغة القرآن ، لغة الكتابة والأدب .

ثم سيجدون عرفا شاملا وأدبا متحداً ومزاجاً منسجماً واحداً يرجع إلى دين العرب . أو أدب العرب ، أو عادات العرب ، فانتشار العنصر العربي من هذه الناحية لم يباعد بين أجزائه ، ولم تتلون هذه الأجزاء بصيغات الأمم التي حلت محلها ، بل صبغت الجميع بصيغتها وبقي الطابع العربي على اللسان والسيماء والمزاج ، وانك لتسير في البلاد العربية من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي فلا تستطيع أن تقول هنا يبتدىء قوم ، ومن هنا يختلف الناس . نعم لو أنك قابلت بين أطراف العنصر العربي على حدود فارس وحدود فاس لوجدت رجلين على تباين ، ولكن ما بين هذين الرجلين من التباين يتلاشى شرقاً وغرباً ، وإنما العبرة بالمزاج الوسط الذي هو الأمة العربية . وهذا الفارق بين الأطراف موجودة في كل عنصر وكل أمة . وقد أشرنا إلى وجوده في ايطاليا . وهو كذلك في روسيا من الشرق إلى الغرب ، من الشمال إلى الجنوب ، من البريتون إلى أهل البرينيه . وظاهر كذلك في انتشار العنصر البريطاني .

فالوحدة العربية حقيقة واقعة ، وحقيقة تاريخية ، ودعاتها أبعد الناس عن الخيال وأمسهم بالعلم .

وتمزيق الأمة العربية إلى شعوب ليس دليلا على انحلالها ولا على فقدان حيويتها ، وانما هو أثر من آثار الجهل ، ومظهر من مظاهر الغلبة الافرنجية في الشرق ، ولكنه لا يحول بين ظهور الأمة العربية بالمكانة التي يستحقها ظهور عنصر ممتاز بالذكاء والشجاعة والنشاط والجلد والصبر ، وممتاز فوق ذلك بالذوق السليم .

ذلك فضلا عن ثراء أرضه ، واعتدال اقليمه ، فلا يحول بين هذه الأمة وبين رسالتها في العالم إلا الجهل ، وقوة المستعمرين ، فعلى أبناء العربية أن يقاوموا الجهل وأن يستبسلوا في مقاومة المستعمرين ، وهم ان فعلوا لا يخدمون أمتهم فحسب ، بل ينقذون العالم بانقاذ الغرب ، ذلك العالم الذي شاخت حضاراته ، وتكاد تفلس مدنيته ، ذلك العالم الذى بسطت المادية عليه جناحها منذ أن غربت الحضارة العربية ، ثم ها هي حرب الطبقات تقرب قيامته ، وليس في العالم عنصر يدين بالمساواة ويعلو على المادة كالعنصر العربى ، فإذا ساد ، سادت معه المساواة التامة وهبطت الحياة المادية لتصعد الحياة النفسية وإذا وهب العرب المساواة والحياة للعالم فقد أنقذوه مما هو فيه وخلقوه خلقاً جديداً .

فحاجة العرب إلى الوحدة لا شك فيها ، وحاجة العالم إلى العرب لا ريب فيها ، وإذا وجدت الحاجة فترقب ظاهرة — ترقب أمة المستقبل ، أمة العرب .

عبد الرحمن عزام

١٩٣٢

• تمزيق الأمة العربية إلى شعوب ليس دليلا على انحلالها ، ولا على فقدان حيويتها

معركة طريفة مع طه حسين

أحمد الله إليك

بقلم: الدكتور زكي مبارك

في شهر يولية سنة ١٩٢٨ تلقيت وأنا في باريس خطاباً من الأستاذ الدكتور طه حسين بك جاءت فيه عبارة: «أحمد الله إليك». فالتفت ذهني إلى هذه العبارة، لأنها لم تكن من العبارات المألوفة إلي، وقلت لنفسي: من أين وصل هذا التعبير إلى الدكتور طه حسين وهو في هذه الأيام يعيش في جيرار بير؟

وصح عندي بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولاً بمراجعات متصلة بالسيرة النبوية، لأن عبارة «أحمد الله إليك» تكثر في الرسائل المأثورة عن عصر النبوة وعصر الخلفاء.

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه «على هامش السيرة» وتفضل فأهداني نسخة ممهورة بعبارة كريمة من عبارات الإهداء، وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ، فرأيت أن أتحدث عنه إلى قرائي بعناية تحملهم على اقتناء ذلك الكتاب تحقيقاً للتضامن بين المؤلفين.

فماذا قلت؟ قلت: إن الدكتور طه يجيد أعظم الإجادة حين يتروى في التأليف، وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة في ترويه. فهو مشغول بموضوعه منذ سنة ١٩٢٨، وإن لم يقل ذلك، فقد كتب إلي خطاباً في شهر يولية من تلك السنة يقول فيه: «أحمد الله إليك». وقد فهمت من هذه العبارة أنه كان مشغولاً بدراسات متصلة بالسيرة النبوية، وكذلك عرفت أن الظن قد يبلغ درجة اليقين، وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الاحساس.

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقريظ الطريف؟

مضى يقول: هذا اختراع جديد من اختراعات زكي مبارك في الأسمار والأحاديث، فليس من المعقول أن أكتب إليه خطاباً أقول فيه «أحمد الله إليك»، وهي ليست من عبارات هذا الجيل!

ولقيني بعد ذلك، فجدد استغرابه من العبارة التي نسبتها إليه، فقلت: إنها حق، فقال: إنها من المستحيلات!

ومضيت أبحث عن ذلك الخطاب، فلم أهتد إليه، لأن الدنيا كانت أسرفت في اللجاجة واللدد، فنقلتني من أحوال إلى أحوال وبعثرت ما كنت أحرص عليه من رسائل الأهل والأصدقاء، وعدت على مكتبتي بالقلب والإعلال، فلم يبق أمل في الوصول إلى نص الخطاب المنشود.

ثم أخذت أتحدث في مقالاتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بيني وبين الدكتور طه حسين، فكان إذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من نوع «أحمد الله إليك»!!

ومنذ أيام مضيت لمقابلة سعادة الأستاذ الجليل الدكتور السنهوري بك وفي يدي نسخة مهداة إليه من كتاب «الأسمار والأحاديث» فوجدت الدكتور طه بك هناك، وسألني السنهوري بك عن بعض أغراض الكتاب، فقلت: فيه أقوال فاه بها الدكتور طه ولم ينشرها، فنشرتها بالنيابة عنه على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط!

واللطف الملحوظ في هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول: لابد أن تكون اختراعات على طراز «أحمد الله اليك».

وسألني السنهوري بك عن القصة فأجملتها في كلمات قصار فراراً من الدخول في جدل جديد مع الدكتور طه حسين، فقال وهو يبتسم: يجب أن يكون الخطاب صحيحاً ما دمت تحدثت عنه في البلاغ!

فقلت: وإن وجدت أصل الخطاب؟

فقال الدكتور طه: إن وجدته فسيكون بخطك؟

فقلت: وإن كان بخط «توفيق»؟.

فقال: هذا مستحيل!

فقلت: وهل عندك مانع من أن تحمد الله إلي؟

فقال: أنا أحمد الله في كل وقت، ولكني لا أذكر أني حمدته إليك!

ثم انصرفت وقد اطمأن من حضروا هذا الحوار إلى أني أتزيد على الناس حين أشاء.

أين ذلك الخطاب؟ وأين أنا من سنة ١٩٢٨ وقد شرقت وغربت، وانتقلت من دار إلى دار، وبعثرت أوراقي مئات المرات؟

أما تسمح المقادير بأن أصل إلى ذلك الخطاب ليعرف الدكتور طه حسن أني لم أتزيد عليه؟

إلي ياأوراقي، إلي، إلي، فقد طال عهدك بالحجاب، واشتقت إليك أشد الاشتياق!

ورجعت إلى تلك الأوراق، الأوراق التي سبقت هجرتي إلى بغداد، رجعت إليها في حذر وخوف، لأنها تذكرني بعهود يطول عليها بكائي إن فكرت في أيامها الطيبات.

فماذا رأيت؟

رأيت ألوفاً من أطياف الشباب الذي أبليته في الدرس بلا ترفق ولا استبقاء.

ورأيت قصائد منسية كنت نظمتها أيام كنت أومن بأن الدنيا أهل لأن يعيش فيها الرجل وهو مرهف الحس خفاق الفؤاد.

ورأيت رسائل مهجورة أملتها قلوب خوافق لا أعرف مصيرها اليوم، ولا أدري مكانها بين الحياة أو الموت.

ورأيت مواعيد وفيت منها بما وفيت، وأخلفت منها ما أخلفت، يوم كانت الدنيا تسمح بأن أتخير من المواعيد ما أشاء. ومن أخصب تخير. فيا زمن الخصب أين أنت؟ وكيف ألقاك؟

ورأيت صوراً غالية كادت تبليها الأنفاس والمدامع، لطول ما عانت من لوعتي وأساي، قبل أن يروضني الدهر على اصطناع الصبر الجميل:

وإن أك عن ليلى سلوت فإنما
تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر

ورأيت خطابات لا تستحق الحفظ، لأن أصحابها ضيعوا العهد، وأخلفوا الميعاد.

أحمد الله اليك

وقد مزقت تلك الخطابات شر ممزق ، ثم رجعت فجمعت أوصالها بترفق وتلطف ، لأني تخيلتها جثثاً هوامد لأرواح قتلها الغدر والجحود ، ولا يباح التمثيل بجثث الأموات .

ورأيت رسائل من هند ، فعرفت أن بلائي بها قديم العهد ، وكنت أحسب هواها ابن أمس !

ورأيت ما دلني على أن فلاناً كان ينزعج حين تخلو حياته من وجهي يوماً أو بعض يوم ، وقد صار إلى ما صار إليه ، فلا ألقاه إلا بعد استئذان .

فيا فلان ، كيف حالك . فلست أنت الذي أراه حين أستأذن في الدخول عليك ، وانما هو خيالك ، خيال الصديق العزيز الذي كنت أعهد ، وما هو خيالك ؟إنما هو الهيكل الذي احتل روحك اللطيف بغير حق ، فأين أنت يا صديقي لأقدم إليك تحية الوجد والشوق ؟ أين أنت ، فما تخيلت فجيعتي فيك إلا طار صوابي ؟!

ورأيت عناوين محفوظة لأحباب أوفياء ، فأين أولئك الأحباب لأكتب لأحدهم خطاباً أقول فيه : « أحمد الله إليك » ؟

ومن يضمن بقاء تلك العناوين ، وخرائط البلاد تغير من يوم إلى يوم ؟ وهل تسمح الدنيا مرة ثانية بأن نأخذ المواعيد في القطارات لعام أو عامين ثم نفي بتلك المواعيد كما كنا نصنع ؟

هـــي دنيـــا قـــد تـــولت
فعلى الـــدنيـــا الســـلام

إلي يا أوراقي ، إلي ، فقد بقيت مآرب يعز علي أن تضيع وما هذه الأشياء ؟ ما هذه الأشياء ؟ وبأي حق حفظتها في أصونة الأوراق ؟

هذه كسرات من آنية مصدوعة ، فما تاريخ تلك الآنية ؟

أسندت رأسي بيدي وفكرت عساني أذكر ذلك التاريخ .

ثم تذكرت بعد لأي أني كنت ذهبت إلى الهافر لأشهد الاحتفال بعيد « العنصرة » هنالك في سنة ١٩٢٧ ونفدت نقودي فرجعت إلى باريس بدون أن أشتري شيئاً من طرائف ذلك الثغر الجميل .

وسألتني ربة البيت الذي كنت أقيم فيه عن رحلتي إلى الهافر فذكرت أني متوجع لأن النقود خانتني فلم أشتر شيئاً من طرائف تلك المدينة ، فنظرت إلى ابنتها بطرف غضيض وهي تقول : سأعوض عليك ما ضاع منك ، ثم أتحفتني بزهرية جميلة كانت اشترتها من هناك .

وانصدعت الزهرية بعد أحايين فجمعت كسراتها وضممتها إلى ما أحفظ من رسائل ذلك العهد ، فهي اليوم روح من أرواح تلك الذكريات .

فما أخبار صاحبة الزهرية ؟ وكيف حال طرفها الغضيض ؟

أفي الحق أن باريس عانت مخاوف الحرب وإطفاء الأنوار بالليل ، ثم انتهت بها الخطوب إلى الاشتمال بأثواب الحداد ؟

متى نلتقي وفي جيبي كسرات تلك الزهرية التي عاشت بين أوراقي وهي مصونة في مدة زادت على أربعة عشر عاماً ؟

متى نلتقي لتحدثني وأحدثها عما صنع الزمان بأحلامها وأحلامي ؟ وهل أعرفها حين أراها أو تعرفني حين تراني بلا بشير بالتلاقي ؟

عندي صورتها وعندها صورتي ، ولكن أين نحن مما كنا عليه سنة ١٩٢٧ وقد تبدلنا بأحوال ؟ ومن ذا الذي لا يتغير ، يا ربة الطرف الغضيض ؟!

أنا بخير وعافية ، وإن صنع الدهر ما صنع ، فكيف أنت ؟ومتى تعود ليالينا بمطالع الأقمار في باريس ؟ومتى تعود سيرتنا الأولى ، سيرة الأطفال الذين يرضون ويغضبون في اللحظة الواحدة عشر مرات ؟

حدثيني متى أرد إليك أصداع الزهرية ومعها أصداع قلبي ، القلب الذي أخذ عنك درس الثقة بالقلوب ، فلم يعرف بعدك غير الأسف على حسن الثقة بالقلوب ؟!

كنت نسيت أني أخذت الدرس عن طفلة ، وكذلك يندم من أخذ الدروس عن الأطفال !

ولكن أين خطاب الدكتور طه حسين ؟ وأين عبارة « أحمد الله اليك » ؟

إن أسفاري في البحث عن هذا الخطاب ستطول ، وقد لا أصل إليه أبداً ، وما قيمة التعلق بتاريخ قديم تنكر له عارفوه ؟ وما الفائدة في رجع هذا الدكتور إلى حساب تمت تصفيته منذ أعوام طوال ؟ وهل أقدر على بعث الأموات من الذكريات ؟ تلك معجزة صحت لبعض الأنبياء ولن تعود ، فليقل الدكتور طه إني افتريت عليه وليسرف في اتهامي كيف شاء ، فحسبي من الطمأنينة أن أعرف أني كنت من الصادقين .

ولكن ما هذه الخريطة ؟ ولأي سبب حفظتها في أوراقي ؟

هي خريطة لمقبرة بيرلاشيز في باريس .

فكيف عرفت تلك المقبرة وكيف احتفظت بالخريطة فنقلتها من باريس إلى مصر الجديدة بلطف ورفق لأرجع إلى درس معالمها حين أريد ؟

كنت في درس المسيو « تونلا » أستاذ الأدب الألماني بالسوربون ، وكانت دروس هذا الرجل تستهويني كل الاستهواء ، فقد كانت تنقلني إلى آفاق من الفكر لا أصل إلى مثلها في صحبة رجل سواه ، وفي دروس هذا الرجل عرفت سيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق ، وكانت فيما حدثتني من شواعر برلين ، وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل . ويظهر أن الزوجية قيد لا يستريح إليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف .

ولم يكن للشاعرة بد من رجل تشكو إليه جهالة زوجها الغبي البليد ، فهدتها الفراسة إلى أن أذني أصلح الآذان للترحيب باغتياب الأغبياء والبلداء ، وكذلك أخذت تصب في أذني شكايات هي أعذب وأخطر من صهباء الرضاب .

كنت أعرف أن الغيبة من الكبائر ، وأن السامع شريك القائل في الإثم . ولكني نسيت الأدب مع الشرع ، لأن تلك الكبيرة كانت تساق إلى أذني في لغة فرنسية ملحونة ، وأنا أعبد اللحن في اللغة الفرنسية إذا صدر عن الألمانيات الملاح ، وهل في الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبية من برلين ؟

واتفق في تلك الأيام أني كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف من الشعراء العشاق منهم ألفريد دي ميسيه ، وقد كتب في تاريخ هواه عشرات من المؤلفات الجياد ، فحدثتني النفس بأن أحج إلى قبر ميسيه مع تلك الألمانية الحسناء ، لأذوق حلاوة النجوى في رحاب ذلك « الشهيد » .

وكذلك مضينا إلى مقبرة بير لا شيز في صباح يوم مطير لا يدفع غيومه الثقال غير ما في قلوبنا من صفاء .

وأسرع البواب فقدم إلينا خريطة المقبرة بثلاثة فرنكات ، ولم يكن بد من الاهتداء بالخريطة ، لأن تلك المقبرة فيها ألوف من المقابر ، ولن نصل إلى قبر ميسيه بغير دليل .

وماذا تقول الخريطة ؟

إنها لا تعين غير أسماء العلماء والشعراء والكتاب والمجاهدين ، وهي أسماء معدودات ، فأين أسماء المجهولين والمنسيين بتلك المقبرة الفيحاء ؟

أولئك أقوام دفنوا همومهم في صدورهم فلم يتحدث عنهم شاعر ولا كاتب ولا خطيب .

أولئك أقوام كانوا أحجاراً في بناء الوطنية الفرنسية ، ولو كانوا من أصغر الطبقات ، فكيف نسيهم الناس فلم يحفظ لهم في الخريطة مكان ؟

تلك حظوظ من يعملون وهم صامتون ، وقد يكون فيهم من أدى لوطنه خدمة منسية ، وقد يكون فيهم من حفظ العهد لأخوانه الناسين ، وقد يكون فيهم من شرب من رحيق الوجود أكثر مما شرب كبار الشعراء .

وما هي إلا لحظات حتى التفتت رفيقتي فرأت عيني مغرورقتين بالدمع ، ورأتني لا أطيق الجواب من فرط الحزن والذهول .

وصوبت الرفيقة بصرها إلى ما صوبت إليه بصري فرأتني أحدق في لوحة رقمت فوقها هذه العبارة الصارخة :

فرنسا ! تذكري !

وهي عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد في الدفاع عن الألزاس أيام حرب السبعين .

فقالت : وماذا يهمك من هذه العبارة ؟

فأجبت : أشتهي أن أوجه مثل هذه العبارة إلى وطني .

وكنت في صبيحة ذلك اليوم تلقيت من مصر خطاباً يشهد بأن وطني لا يحفظ الجميل . فما هو ذلك الخطاب ؟

هو خطاب له تاريخ يضيق عنه هذا الحديث .

وفي طريقنا إلى قبر ميسيه مررنا بقبر حوله أحواض من الأزهار . فأخذت رفيقتي تجمع الزهر الذي تساقط على الأرض .ونظرت فرأيت أحد الحراس يراقبها من بعد ، ثم انقض كالصاعقة يسألها عما جنت يداها ، فأجابت . هذه أزهار ذوابل أسقطتها العواصف . فانصرف الحارس وهو مجلل بالخجل والكسوف !

ثم وصلنا بعد لأي إلى ميسيه وبجانبه تمثال الشاعر وهو كهل لا تنطق معارف وجهه بأنه كان حلم الغانيات في باريس أما شجرة الصفصاف التي أوصى الشاعر بأن تغرس بجانب قبره فقد رأيتها في صفرة الموت .

ثم قضينا بقية اليوم في تدوين ما كتب فوق القبور لأقارنه حين تسنح الفرص بما يكتب فوق المقابر المصرية ، وهو مقال لم أكتبه بعد . وقد كان في بالي حين زرت مقابر الكرخ ومقابر بغداد .

والكاتب قد يجيل فكره في الموضوع الواحد عدداً من السنين .

* * *

أين خطاب الدكتور طه ؟ أين ؟ أين ؟

ولكن ما الموجب للحرص على خطاب صديق لم تصح لي صداقته غير عشرة أعوام كانت أقصر من عشر دقائق ؟

وماذا يهمني من أن يعرف أني لم أتحدث عنه بغير الصدق ولم تبق لذكراه في قلبي غير أطلال ؟

هذا الصديق يهمني جداً ، لأنني خلقت منه عدواً عظيماً ، وأنا أتخير أعدائي كما أتخير أصدقائي .ولكن أين الخطاب ؟

هذه أوراق وأوراق وأوراق . هذه مئات من الرسائل التي تشهد بأني كنت على صلات مع أرواح جاذبتها زمناً أطراف المحبة والعتاب .

رباه ! متى تعود أيامي ؟ متى تعود ؟!

ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المنشود ، وبخط « توفيق » (١) الذي صار من أيام دكتوراً في الحقوق من الجامعة المصرية .

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول :

« أحمد الله إليك على ما أنت فيه من رضا بالاقامة في باريس ، وأتمنى لك المزيد من هذا الرضا ، كما أتمنى أن تنتفع بأيامك في فرنسا إلى أبعد حد ممكن ، وتقبل من السيدة ومني تحية خالصاً وشكراً جميلاً » وتاريخ الخطاب ٢٦ يولية سنة ١٩٢٨

وقد ابتسمت حين وجدت « تحية خالصاً » فهي غلط من « توفيق » (٢) لا من الدكتور ، إلا أن يكون لها وجه ضعيف !

ثم ماذا ؟

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطاباً للدكتور طه كتبه إلي من الإسكندرية ، وفيه يقول :

صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك

أنا مدين لك بشكر كثير ، فقد قرأت كتابيك وتسلمت السفرين اللذين تفضلت بإرسالهما إلي . ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك بفلسفة ابن خلدون ، وأنا مقتنع فيما بيني وبين نفسي بأنها لا تستحق هذه العناية . ومع ذلك فسأشتري « المقطم » منذ اليوم لأقرأ ما تكتب لأنك أنت الذي سيكتبه لا لأني أنا موضوعه . وكل ما أرجوه لك أن تصدر فيما تكتبه عن الحرية الصادقة القاسية ، لا عن الإخاء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الأحيان إلى شيء من الرفق لا يخلو من إثم .وأنا أعيذ أصدقائي من أن يتورطوا من أجلي في إثم الاسراف في البر ، كما أكره أن يتورطوا في إثم العقوق . وقد كنت أحب أن يقف كتابي عند هذا الحد ، ولكن الله يأبى إلا أن يضاعف ديني لك حتى يتجاوز قدرتي على الأداء ، فأنا أريد أن تتكلف السعي إلى إدارة السياسة حيث تلقى صديقنا المرصفي وتطلب منه أصول الجزء الثاني من حديث الأربعاء فقد كلفته أن يجمعها لك ، وأشكرك إن دفعتها إلى مصطفى أفندي محمد ليبدأ في طبعها . وأنا أرجو أن تكون بخير مطمئن النفس ، وأن تكتب إلي في شيء من الإطالة والحرية ، فإن كتبك وأحاديثك تقع من نفسي دائماً موقعاً حسناً. . وليس لدي الآن ما يشغلني عن قراءة كتبك ، فأنا أقضي من بقى من أيام الراحة في قراءة متفرقة لا نظام ولا نفع فيها ، وأرجو أن أراك بخير حين أعود إلى القاهرة في الاسبوع الأول من الشهر المقبل ، إن شاء الله ، وتقبل تحيتي الخالصة » .

طه حسين

وتاريخ هذا الخطاب (٣ أغسطس سنة ١٩٢٥)

وفيه غلطة نحوية وقعت من « توفيق » (٣) لأنه أساء النقل عن الدكتور ، كما كان يتفق له في بعض الأحيان .

فإن قيل : وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق أن تفسد العلائق بيني وبين الدكتور طه حسين ، فإني أجيب بأن لله حكمة فيما وقع بيني وبين هذا الصديق .

لم يكن لي بد من خصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه الجمهور إلى الحقائق الأدبية ، وكذلك خاصمت عدداً من رجال الأدب كان أظهرهم الدكتور طه حسين .

وأنا اليوم في حياد ، أو غير محارب ، وهما حالتان متقاربتان ، فمتى أخلق خصومات جديدة أذكي بها نار الأدب من جديد ؟

أنا حاضر للخصومة ، على شرط أن أجد خصماً في مثل مواهب الدكتور طه حسين ، فما أرضى بمنازلة الشادين في الأدب من الذين لم يأخذوا زادهم إلا من قراءة الهوامش بالجرائد والمجلات .

* * *

يا دكتور طه

إن كنت أنكرت أن تحمد الله إلي فخطابك تحت يدي أقدمه إليك حين تشاء . فإن لم تحمد الله إلي فأنا أحمده إليك.

وإن أذن الله بانقشاع ظلمات الحرب فستراني حيث تحب أو حيث تكره بأبحاث طوال عراض تعود على الأدب بأجزل النفع ، وتملأ مسامع الزمان .

والله يحفظك للخصم الذي يتمنى لك دوام العافية والتوفيق..

زكي مبارك

١٩٤٠

هامش

١، ٢، ٣ : المقصود هو الدكتور توفيق شحاتة سكرتير الدكتور طه حسين

أنشودة الوزير العاشق



عبدالله غيث - الوزير العاشق

صفحة من الملحمة الأندلسية الكبيرة

بقلم : الدكتور صلاح فضل

يقول : « بريخت » إن الطابع التاريخي للمسرح يؤدي إلى تأمل نظام اجتماعي محدد من وجهة نظر نظام آخر . وإن تطور المجتمع هو الذي يصنع وجهات النظر . وتتجلى تاريخية المسرح في الكف عن تقديم الإنسان كفرد عادي لا معنى له ، ومحاولة الكشف عن البنية الاجتماعية التاريخية العميقة التي تتراءى دائماً خلف مظاهر الصراع الفردي .

وإذا كان هذا القدر من التاريخية ضرورياً وحتمياً في جميع أشكال المسرح لدى الواقعيين فإنه يمثل الحد الأدنى الذي لا يمكن تجاهله في المسرح التاريخي عند جميع الاتجاهات النقدية إذ لا محيد له في بعثه لبعض ملامح العصور السابقة أن يتمثل القوى التاريخية الفاعلة في تشكيلها ، ويرصد طرفاً من حركتها . ولا مفر للبطل التاريخي أن لا يكون مجرد تجسيد لشخصية فردية محصورة في ذاتها ، بل بؤرة مشعة تتركز فيها عناصر رؤية متماسكة ومنطقية ، تشف عن الوعي بالأحداث ، والقدرة على إدراك دلالتها . وما زال المسرح الشعري في أدبنا العربي بحاجة إلى استقطاب جهود المبدعين والنقاد ، مما يجعل مسرحية « الوزير العاشق » للشاعر فاروق جويدة تكتسب بريقاً متألقاً في هذا الموسم ، تسهم فيه حملة إعلامية متقنة ، ونخبة تمثيلية من أقدر نجوم المسرح المصري العريق ، تعرضها في عدة عواصم عربية ، من القاهرة إلى الجزائر وتونس وعمان ، وإن كان على القراءة النقدية أن تتخفف من تأثير هذه العوامل الخارجية ، لتواجه النص فحسب ، بتنسك علمي موحش ومؤنس معاً .

سجناء الهوى

وتقدم المسرحية شخصية الشاعر الأندلسي المتفرد أبي الوليد ابن زيدون ، وهو يلهو بلعبتي العشق والوزارة . فيطارح ولادة بنت المستكفي المرأة المتحررة غراماً لاعجاً ، ويساومها على خطة لاسترجاع عرش أبيها وتوحيد الإمارات الأندلسية تحت تاجها . فتأبى خوض غمار الفتنة ، وتعرض عليه أن يقنع بالحب والشعر ويكفكف من طموحه الجموح ، فيرد عليها :

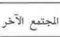
إني أحب الشعر حبي للحياة ..
والشعر سيف ليس في يده قرار ..
وأنا أريد الملك
إني أريد السيف والسلطان ..
فالحلم أكبر من حكايا الشعر ..
أكبر من أقاويل اللسان .
..
السيف للسلطان
والقلب للفنان

لكن تدبيره لا يلبث أن يفتضح ، إذ يتولى غريمه في السياسة والهوى ، الوزير « ربيع » إبلاغ الملك وتأليبه عليه ، فيلقى به في قاع السجن ، وتحاول ولادة أن تستنقذه استعطافاً عزيزاً فتبوء بالخيبة ، ويمعن ربيع في كيده ، فيسعى إلى ولادة يراودها كي يشغل المكان الشاغر في بيتها ، فإذا تأبت عليه لوح لها بالسجن حتى تلين ، وتستعصي على التهديد فيجرب معها سلاحاً آخر كي يرغمها على القبول ، فيخيرها بين حياة ابن زيدون أو الرضوخ لما يبتغيه ، فتؤثر الإبقاء على الشاعر وتخضع لحماية ونزق غريمه بعد أن تدرك أنه قد حاصرها وجند حراسها . ويعلم ابن زيدون بخيانتها فيشتد عليه عذاب السجن وألم الحرمان ومواجده . ويذهب إليه خادمه زياد الذي كانت تربطه بزهراء وصيفة ولادة قصة حب موازية فيعرف منه أنهما قد اقترنا . وأنجبا طفلين أطلقا عليهما اسمي سادتهما « وليد » و « ولادة » ، وعندما ينصرف زياد ويخلو الشاعر إلى نفسه يفيض بشعر رائق عذب ، يحسن فيه فاروق جويدة استلهام ابن زيدون وترجيع أصدائه ، ويطعمه بفقرات من الجمل الشعرية العاجية المأثورة فيقول :

مـن يـرحـم القلب مـن شـوق يكـابـده
الله يعلم أن الشـــوق أضنـــانـــي
« مـا كنت أحسبنـي أحيـا إلى زمـن »
أنســاك فيــه .. ولا بــالبعد تنســانـي
آه مـــن الـــدهـــر لا يبقـي على أمل
إنـــي كفرت بحب كـــان إيمـــانـــي
« يـــا روضة طـالما » أسكنتـهـا قلبـي
بـالله كـيـف تـوارت فيك ألحـانـي

ويتولى المؤرخ الراوية في المسرحية « أبو حيان » سرد الأحداث كما قدم لها ، فيزور ابن زيدون في سجنه ، ونعرف من حوارهما الكوارث التي تحيق بإمارة قرطبة ، وبقية بقاع الأندلس ، فربيع الذي يقود الجيش ليس سوى عميل لأخواله من الفرنجة ،فنستشعر فداحة المصير ونشم رائحة المأساة القادمة وتذهب ولادة أكثر من مرة لزيارة السجين ، فإذا بثها شكواه وأحزانه باحت له بسر ما تعرضت له من خوف وهوان . وعندئذ يتعالى الضجيج خلف المسرح ، فليس العمر هو الذي ضاع فحسب ، وإنما الأرض أيضاً . وسارق الحب هو سارق الأرض وتصل الحرب إلى شوارع المدينة . ولا أحد ينقذ الوطن الممزق الذي باعه السماسرة وخانه الحكام . ويدخل جيش الفرنجة قرطبة ، وبسقوطها تسقط الأندلس في المسرحية ويتعالى صوت أبي حيان الذي يمثل الجوقة والمؤرخ والضمير الحي للجماعة مستغيثاً برسول الله ومناشداً له كي لا تغيب كلمته بينما تقرع أجراس الكنائس ويتلاشى صوت المؤذن بالتدريج بينما يهبط الستار .

وتتوزع هذه الأحداث على قسمين ، أو فصلين . يتضمن الأول ثمانية مشاهد والثاني سبعة : في توازن دقيق ، وتنقل رشيق بين قصور ابن زيدون وولادة والملك وبيت زياد المتواضع ، ثم قاعات السجن وردهاته حيث تنمو الوقائع وتتوالى في انسياب عفوي وإيقاع مسرحي مضبوط . فمؤلفها الشاعر يمتلك إذن قدرة على البناء ، وخلق الشخصيات وتنسيق الأدوار ، وقيادة الأوركسترا الدرامية حتى تصل إلى نهاية اللحن المسرحي الهادر . ومن ثم يتعين علينا أن نأخذ عمله بجدية بالغة ، بقدر ما تعلق عليه من أهمية في المسرح الشعري في أدبنا العربي المعاصر .



المجتمع الآخر

بيد أن أول ما نفتقده في هذه المسرحية هو يقظة الحس التاريخي وعمق الوعي بمتطلبات الموقعة



سميحة أيوب

فاروق جويدة

أنشودة الوزير العاشق

الزمانية للأحداث ، أسطورة الحب المدوي بينه وبين هذه المرأة اللعوب التي كانت تتوشح ، فيما تروي كتب الأدب ، بغلالة رقيقة قد طرز عليها :

أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها

وقد كانت لديه فرصة ذهبية لاستثمار هذه الطبيعة الفتانة لولادة ليجعل تحولها عن ابن زيدون ، بعد أن تبينت أنه لا يعشقها هي وإنما يعشق الملك ، ولم يكن ذلك ناجماً عن رعبها الذليل من مكيدة ربيع وتمسكها الساذج بحياة ابن زيدون على حساب عرضها ، مما لا ترضى به جارية وضيعة ، ناهيك بامرأة نبيلة ، وإنما استطابة للذة الجديد في الغرام ، واستمراء لنزق الشعر والتحرر والهوى المتنقل كما ترسم لنا كتب التراث شخصيتها الجسورة المعقدة . على أن فقدان الحس التاريخي يتمثل جلياً بالاضافة إلى ذلك في ظاهرتين بارزتين إحداهما : إطلاق مجموعة من التسميات الحديثة على الوظائف والمواقف التي كان ينبغي توثيق مصطلحاتها القديمة . فلم يكن هناك من يسمي بوزير الأمن وإنما صاحب الشرطة ولا يطلق على المكوس والجبايات كلمة الضرائب . وقد أطلق على إحدى شخصياتها « عبدون » رجل مباحث ، وبالطبع لابد أن يسمى عيناً أو من العسس ، وأيسر معرفة بالتاريخ العربي الإسلامي تجعلنا نستبعد أن تكون هناك صورة ضخمة للملك على جدران القصر ، ولا نتوقع على الإطلاق أن تعزف الموسيقى من خلف الكواليس السلام الملكي في فترة ملوك الطوائف الأندلسية !

أما الظاهرة الثانية اللافتة للنظر في هذا الصدد فهي الاتكاء الشديد على مقولة « الشعب » وتكرارها المسرف المخالف لمبدأ الاحتمال في السياق التاريخي للمسرحية .فقد استخدم شوقي مثلاً في « مصرع كليوباترا » كلمة الشعب بالرغم من عدم احتمالها قائلاً :

انظر الشعب « زيون »
كيف يوحون إليه
يا له من ببغاء
عقله في أذنيه

فاستطاع أن يدفع ـ بمنظور رجل القصر المتمرس ـ فكرة الجماهير ويبرز غوغائيته بصورة شعرية فذة تقرن الكتلة البشرية المجتمعة بالطائر الناطق الآلي الذي ليس له من عقل سوى أذنيه ، ولا تتعدى قدراته تكرار ما يلقى عليه . أما فاروق جويدة فيردد مقولة الشعب ، ويتغنى بها عشرات المرات بشكل يخالف معطيات العصر الذي تدور فيه المسرحية ويناقض منطقه . ولا يقف الأمر عند حد التعبير اللغوي المستحدث فحسب ، والذي كان يؤدى حينئذ بكلمات أخرى مثل الناس أو المسلمون أو العامة أو غير ذلك ، وإنما يتجاوز هذا إلى الدور المنوط بهم . فليس صحيحاً أن الشعب كان هو الذي يولي الوزير كما يقول ابن سالم لابن زيدون « الشعب قد ولاك خيرة أمره » ولا يحتمل أن تقول ولادة له :

وتركت شعبك
للضياع .. وللفساد .. وللهوان
الشعر سيفك يا وليد
والشعب جيشك :

ولايمكن أن تقول له « اذهب لشعبك » فيرد عليها « من قال إن الشعب في يده القرار » ونفس كلمة « القرار » هذه التي تتردد كثيرا في المسرحية ليست سوى صدى موجع للغة السياسة المعاصرة عندما تمارس شبق الحكم وتنتصب في يدها آلته في لحظة الانفراد بلذة السلطان المطلق . وإبراز دور الشعب في صياغة مصيره لا يتأتى بكثرة الإشارة المباشرة إليه وتسميته ، وإنما بالتركيز على وضع القوى الشعبية الفاعلة موضع التأثير الحاسم في مجريات الأمور حضوراً وغيبة ، استجابة لمنطق الأحداث . لا أن تكون الدسائس والمؤامرات من جانب الخبثاء ، والأسر والاستسلام ، ثم النواح والعويل قصارى جهد الأبطال الايجابيين هي محركات الموقف العام ، فيحاول المؤلف تغطية هذا التصور المثالي للأشرار والأخيار بدعوى الخيانة ، متغنياً بالشعب ، دون أن يحرك أحد منه ساكناً للدفاع عما يملك أولا يملك .فإسقاط هذه الكلمات المعاصرة ، وما تحمله من تصورات لطبيعة المجتمع ونظمه في سياق موقف زمني محدد على فترة أخرى يؤدي إلى الخلط بين العصور ، وشحوب الفوارق الجوهرية فيما بينها ، مما قد يضعف من وعينا بمحصلة التطور ، ويجعل وجهة نظرنا قاصرة عاجزة عن فهم ما حدث . ويصبح النداء الأخير مجرد متنفس سهل يفثأ به المحبطون غضبهم ، دون أن يكون سلوكهم الماثل في المسرحية ، ولا قيمهم المحركة لأحداثها نموذجاً للشعور الديني الحقيقي ، ولكنه حيلة ماهرة يستغلها المؤلف ليثير في القراء والمشاهدين رعشة ختامية تهتز لها قلوبهم وأيديهم بالانفعال والتصفيق .

الرخصة والعزيمة

منذ أرسطو ونحن نعرف أن الشعر أعمق فلسفة من التاريخ ، إذ يعبر عما هو عام ، بينما يقتصر التاريخ على الوقائع الخاصة المحددة ، ولما كان من المستحيل على أي عمل أدبي أن يقدم جميع التفاصيل الثرية للوقائع التاريخية . فلا مناص له من اختيار بعضها طبقاً لمبادئ جمالية وفكرية هي التي تكون رؤية الشاعر وتوجه انتقاءه . بينما لا يتعين على كاتب التاريخ أن يقوم بهذا الاختيار الفني ، وأقصى ما يضطر إليه هو أن يروي ويحكي . فتصطبغ كتاباته بطابع ملحمي واضح . ولعل هذا هو السبب في أن المسرح التاريخي يعتمد عادة على التكنيك الملحمي الذي ينجح بقدر ما يعدد المؤلف من موضوعات موصوفة ويتدخل في تنظيمها ، إذ أن من العسير ـ إن لم يكن من المستحيل ـ عرض التاريخ وهو يقع ويحدث بشكل درامي ، ومن هنا فإن وسيلة الراوي الذي يحكي ويعلق تصبح الحبل السري الذي يربط المسرح بالتاريخ .

ولقد أدرك فاروق جويدة هذه العلاقة الحميمة بين المسرح التاريخي والملحمة ، وأقام بناءه على تصور صائب لدور الراوي في تكثيف الوقائع وتقطيرها ، وأباح لنفسه جملة من الرخص لا يستطيع أحد أن يماري في مشروعيتها ، فذكر في مقدمته المكتوبة بعض الجوانب التي خالف فيها التاريخ ، مثل طبيعة شخصية ولادة وابن زيدون وأسباب الخلاف بينهما ، ونصوص شعر ابن زيدون وموقفه من الملك ، والرجل الذي أحبته ولادة فيما بعد وعاشت معه بقية حياتها ، وهي عناصر لابد للشاعر المبدع أن يتصرف فيها حتى يخلق مواقفه وشخصياته كما يتراءى له ، مهما كان مقيداً بما يحاكيه .

غير أن هناك مجموعة أخرى من الرخص تخالف الشاعر في اتخاذها ، ونعتقد أنها من قبيل العزائم التي لا ينبغي تجاوزها فهو يقول مثلاً عند تقديمه لشخصياته « تدور أحداث هذه المسرحية خلال الفترة الأخيرة من حكم المسلمين للأندلس ، وهي الفترة التي يطلق عليها المؤرخون فترة ملوك الطوائف » . وإذا راجعنا كتب التاريخ تذكرنا أن المسلمين قد فتحوا الأندلس عام ٧١١ م وبدأت بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً فترة ملوك الطوائف في منتصف القرن الحادي عشر ثم تلتها عصور المرابطين والموحدين ، ودولة بني نصر في غرناطة التي استمرت وحدها ترفع أعلام الاسلام الأندلسي ما يربو على قرنين ونصف قرن . ومعنى هذا أن الحكم العربي للأندلس قد دام قرابة ثمانية قرون ، وليس ٧٠٠ عام كما يذكر الشاعر في نفس هذه السطور ، وأن مدينة قرطبة ـ عاصمة الخلافة ـ لم تكن هي التي « شهدت نهاية المسلمين في الأندلس » ،بل إن غرناطة ظلت بعدها قلعة محصنة من ١٢٣٦ حتى ١٤٩٢ ، وفي تقديري أن هذه ليست تفصيلات صغيرة تخضع لاعتبارات مسرحية فنية ، بل إنها حقائق كبرى أولية مستقرة في وجدان المتلقي المثقف ، أو ينبغي لها أن تستقر ، مما يجعله يشعر بكثير من الحرج عندما يخرج عنها المؤلف دون ضرورة ، فإنهاء الحكم الأندلسي بسقوط قرطبة إلغاء للجزء الأكبر المزدهر



مدحت مرسي يخرج من بين جماهير مهرجان جرش في بداية عرض مسرحية الوزير العاشق

حضاريا من هذا التاريخ . وإذا كان من حق المؤلف أن يودع ابن زيدون في السجن طيلة حياته تقريباً ، بينما لم يقض فيه في الواقع سوى عامين ، وأن يغير أسماء ملوك الطوائف وولاة الأندلس فيصبح « ابن زيري » « ابن بيت الزر » في المسرحية ، ويبتدع اسماء « ابن عابد » و« الخليل » ، فإنه في تحمسه الملتهب لأمجاد الأندلس وتغنيه الجميل بعظمتها كان عليه أن يتريث في هذه الخاتمة التي أراد بها أن يقرن مصير البطل بمصير الوطن وضياع الحب بضياع الأرض ، فتعجل هذا الضياع قبل أوانه بقرون مما لايتسق مع هدف المسرحية ولا يطابق حقائق التاريخ الأساسية .

اللغة الثالثة

لقد استقر في النقد الأدبي ، منذ أن أبرز الشكليون الفروق الجوهرية بين لغتي النثر والشعر ، أن هذه اللغة الثانية تتشكل على السطح الأملس المحايد للغة النثر ، وتمارس فوقه تنظيم نسيجها ورسومها وخواصها التعبيرية والتصويرية المتميزة . وجسد المحدثون هذا الفرق بمصطلح الانحراف ، ويعني أن شعرية اللغة تقتضي خروجها الفاضح على العرف النثري المعتاد ، وكسر قواعد الأداء المألوفة لابتداع وسائلها الخاصة في التعبير عما لا يستطيع النثر تحقيقه من قيم جمالية . ويبدو أننا بحاجة لإنماء هذه الأفكار النقدية وترسيخها في مجالنا العربي ، ومد مظلتها على بقية الأجناس الأدبية الأخرى . وأحسب أن لغة المسرح الشعري ينبغي أن تتمكن من الرقي إلى مستوى ثالث تلتقي فيه القدرة الشعرية الخالقة للغة بقدرات أخرى على تكوين الشخصيات وتصوير حركتها الداخلية والخارجية في تفاعلها الدرامي الحي المتوهج .

هذه اللغة الثالثة لابد لها أن تزاوج بين الوظائف الشعرية والدرامية ، أن ترينا اللغة وهي تتخلق ، والحياة وهي تحدث ، أن تجعلنا نحضر مولد الكلمات ونشهد انبثاق الأحداث . ومن ثم فإنها تحتاج إلى عبقرية حقيقية لمبدع متعدد المواهب . فإذا أضيف إلى ذلك عامل آخر ، وهو أن الشخصية المحورية في مسرحيتنا شاعر وصل إلى ذروة التفوق الغنائي بألحانه المعتقة الأصيلة . إذا استحضرنا كل ذلك ، تبين لنا أن فاروق جويدة شاعر متعدد المواهب بالفعل ، اتقن اختيار مساحته الدرامية ، وصنع نماذجه ، واستطاع عبر لحظات مرهفة أن يلتقط روح الشعر الذي كان يسبح في رياض الأندلس ، ويضمخ الحياة فيها بعبير غنائي شفيف . وأقصى ما يمكن أن نلاحظه في بعض المشاهد هو تفاقم جرعات الصحافة اليومية بلغوها وغثائها ، مما ينبغي لشاعر رقيق مثل فاروق جويدة أن يترفع عنه ، ويغسل لغته منه . فنقرأ في القسم الأول مثلاً حواراً غزلياً بين ابن زيدون وولادة يقول فيه :

إذا كنت يوماً عرفت النساء

وجربت في الحب دون ارتواء

فإني رأيتك صبحاً جميلاً

فليس من الأرض هذا الضياء

فترد عليه ولادة بعد قليل مشيرة إلى توليه للوزارة :

أحببت فيك القلب قبل المنصب

وأنا أخاف من المناصب

يوماً تجيء ... غداً تضيع ..

ونعيش نحلم بالذي قد كان ..

ونظن أن الناس تصنعها الكراسي والرتب

فنشعر أننا أمام لغة نثرية ـ وإن كانت منظومة ـ طغت عليها العبارات المتناثرة من زبد الصحافة اليومية مثل عرفت النساء وجربت الحب وأخاف المناصب ونعيش نحلم ، وهي عبارات هينة مفرغة بالاستعمال اليومي المكرور ، تنزلق على سطح مسرحي نتوقع فيه تركيزاً مجازياً وتفننا استعارياً وفلذات تصويرية مبتدعة ساخنة يحترق بلهيبها رماد الإهمال ويعبق عطر الشعر ، خاصة ونحن بحضرة ابن زيدون ، يجيش في أعماقنا هدير روائعه ، مثل « ودع الصبر محب ودعك » ، ومثل هذه الأبيات التي لا أجد مفراً من إثباتها ليتذكر القارئ طبقة هذا الشعر القوي والتي يقول فيها :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ، ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما شققت عن اللبات أطواقا

ونقرأ مشهداً آخر في القسم الثاني من المسرحية ، على لسان ولادة تبرر فيه استجابتها الذميمة لابتزاز ربيع ومعاشرتها إياه ، بالرغم من استمرار حبها لابن زيدون ، خوفاً وطلباً للأمن ، فتقدم عذراً أقبح من الذنب إذ تقول :

كلاب الصيد تحمينا

ولم تخلق لنعشقها

أتيت به ليحرسني

وأعرف أنه كلب ..

تراني أعشق الكلبا ..

ولأن الموقف ضعيف ، والاختيار سيء ، فإن العبارة المؤدية له مهما توشحت بلون من التصوير تظل متدنية عامية ، لا تليق بامرأة نبيلة مترفة ، ولا تمثل هجاء لربيع ، بقدر ما هي إدانة تصم قائلتها وتهبط بمستواها عندما ترتد إليها .

وإذا كانت المسرحية لا تقوى ـ كما أشرنا ـ على استيعاب قدر وفير من البيانات التاريخية الوثيقة ، وتنتظمها في كتلة غنية بالأحداث والتفاصيل ، مما يمكن أن يخلع عليها صيغة ملحمية كاملة متعددة الأصوات عالية الإيقاع ، ولا تقع على مفصل دقيق تنشطر لديه الحياة الباطنية للبطل وتتكلس ممزقة بين طرفي صراع يتجاذبانه ، بل وتنزلق فوق هذه اللحظة الحرجة عندما تعاني مخاضها ولادة دون أن تتعمقها وتحسن تأملها والانفلات منها ، فتظل الشخصيات مصمتة لم تنقسم في قلبها هذه الشعرة الدرامية التي لابد وأن تنشطر نصفين كي تتولد من شررها طاقة متفجرة تضيء المسرح بوهجها الساطع .

وإذا كان التعبير الشعري في المسرحية قد تراوح بين القوة والضعف ، والغنائية والنثرية ، فإن المحصلة الأخيرة لهذه التجربة تجعلها في أحسن حالاتها أنشودة عذبة ، لابد أن يجتهد الشاعر في متابعتها بأناشيد أخرى مسرحية ، تندرج في نسق الملحمة الأندلسية الكبيرة .

صلاح فضل

المخابرات في عهد الدولة الأيوبية

بقلم: محمد سيد كيلاني

كثيراً ما يهمل التاريخ ذكر أناس لعبوا في حياة أممهم أدواراً خطيرة . ومن هؤلاء رجال المخابرات في عهد الدولة الأيوبية .

فحينما ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية وتولى هو ملك مصر كانت القاهرة تموج بجماعات كثيرة من أنصار تلك الخلافة ، وممن كانوا ينعمون بخيراتها . يذكر صلاح الدين في تقرير أرسله إلى الخليفة العباسي ببغداد ما نصه « ووصلنا البلاد ــ يعني مصر ــ وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة . وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر . وبها راجل من السود يزيد على مائة ألف رجل كلهم أغتام أعجام . وبها عسكر من الأرض باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية »

هذه هي الظروف التي أحاطت بصلاح الدين حين جاء إلى مصر وتولى أزمة الحكم . فرأى بثاقب رأيه أن ينشئ إدارة للمخابرات ووكل إليها السهر على أمن الدولة في الداخل والخارج ، ففرضت رقابة شديدة علي كل من عرف بميوله الفاطمية من أدباء وشعراء وأمراء وكبار رجال الدولة السابقين .

وقد استطاع رجال المخابرات أن يجندوا بعض الافرنج وآخرين للعمل لحسابهم . وكان بين صلاح الدين وبلدوين ملك بيت المقدس رسائل مجاملة متبادلة بينهما وهدايا . وكان للملك الصليبي كاتب اسمه جورج يرسله بخطابات إلى صلاح الدين ظاهراً ، وفي الباطن ليتصل بأنصار الفاطميين ويرسم معهم خطط التآمر .

رسالة تحذير

وحينما جاء جورج ليضع اللمسات الأخيرة للمؤامرة تلقت المخابرات الأيوبية من عملائها في القدس رسالة تحذير ، جاء فيها أن جورج يحمل رسالة مخاتلة ، لا رسالة مجاملة ، ويحمل بلية لا هدية .

ولما وصل جورج قابله بعض رجال المخابرات بالترحيب وأكرموا وفادته واحتفوا به احتفاء عظيماً ، وأوهموه أنهم غافلون عن كل ما يصدر منه حتى اطمأن وخرج ليلاً تحت جنح الظلام وتقابل مع بعض المتآمرين واتفق معهم على أن يجتمعوا به في إحدى الأماكن . وقد دست المخابرات بعض الرجال فاختلطوا بهم وسمعوا مادار من أحاديث ونقلوها إلى المصريين . وسرعان ماصدر الأمر باعتقالهم ، والتحقيق معهم . فمنهم من أقر بذنبه طائعاً ، ومنهم من أقر بعد ضربه . وقدموا للمحاكمة وقد جاء في صحيفة الاتهام وهي بخط القاضي الفاضل :

« ولا تخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون إليه وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها . وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج ــ خذلهم الله ــ يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويزينون لهم الإقدام والقدوم » .

وقد صدر الحكم باعدامهم ، وكان منهم الشاعر عمارة اليمني .

وعلى إثر هذه الأحكام أدرك أنصار الفاطميين أن رجال الأمن لم يكونوا غافلين واشتد بهم الخوف فرحل فريق منهم إلى اليمن ومنها إلى الهند حيث استقروا هناك وهم طائفة البهرة . وفي ذلك يذكر صلاح الدين « استنجدوا علينا الافرنج . وشرعنا في تلك الطوائف فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم والذنوب الفاضحة لهم ، وبالسيوف المجردة والنار المحرقة حتى بقي القصر ــ يعني قصر الخلافة ــ ومن به من خدمه قد تفرقت شيعه وتمزقت بدعه » .

وهكذا أمن صلاح الدين على سلامة الجبهة الداخلية من الخونة ، واستعد لقتال الصليبيين . وقد حدث أن اجتمع بعض الفقهاء مع نفر من أرباب السيوف ، وأطلقوا ألسنتهم في صلاح الدين وشرعوا يتباحثون في نظام الحكم وهل من حق صلاح الدين أن يلغي الخلافة الفاطمية ، ويدعو للخليفة العباسي ؟فنقل رجال المخابرات أنباء هذه الاجتماعات والمباحثات للسلطان . واقترح

المسئولون عن أمن الدولة أن يسدي السلطان النصح لهؤلاء الفقهاء بالكف عن الكلام في مثل هذه الموضوعات . ومن لم يمتثل فانه سوف ينفى إلى مكان بعيد .

مهمة ناجحة

انصرف صلاح الدين إلى ميدان القتال . وكان العدو قد حاصر ثغر عكا من البر والبحر ، ومنع عنه السلاح والطعام والمال . وكان أهلها في حاجة شديدة إلى مثل هذه الضروريات . وهنا انبرى رجال المخابرات لأداء هذه المهمة الشاقة والخطرة . وكان في حوزتهم سفينة ضخمة من سفن الفرنج التي سبق أن وقعت في الأسر فشحنوها بالسلاح والطعام والملابس والأموال . وكلفوا بعض البحارة المسلمين بأن يتزيوا بزي بحارة العدو ، ويحلقوا لحاهم كما هي عادة البحارة الإفرنج ، ويعلقوا صلباناً ضخمة على صدورهم فلم يشك أحد أنهم صليبيون ووضعوا معهم بحارا يجيد اللغة اللاتينية . ثم انطلقت السفينة إلى ميناء عكا . فقابلتها إحدى سفن العدو ، وحذرتها من دخول الميناء لئلا تقع في أيدي المسلمين . فتظاهرت السفينة الإسلامية بأنها سوف تعود من حيث أتت . وفي تلك اللحظة جاءت سفينة صليبية قاصدة الدخول إلى الميناء ظناً منها أنه وقع في أيدي الصليبيين واشتبكت السفينتان في مناقشة طويلة فانتهزت السفينة الاسلامية الفرصة وحولت قلاعها نحو ميناء عكا ، وساعدتها الريح فأدت مهمتها على خير وجه وفرح بقدومها أهل الثغر .

وكان رجال المخابرات مكلفون بمراقبة حركات العدو خارج الحدود ، يبلغون حكومة القاهرة عن هذه الحركات أولاً بأول . وفي يوم من الأيام جاء الحمام الزاجل حاملاً نبأً خطيراً . وهو أن العدو سير أسطولاً في البحر الأحمر ، أو بحر الهند كما كانوا يسمونه أو البحر الحجازي . وأنه أغار على ثغر عيذاب فنهب وأسر ، وخرب ودمر . كما أغار على سواحل اليمن والحجاز وأن العدو قد أشاع الخوف والفزع بين الناس بل كان في نيتهم الإغارة على المدينة المنورة . وسرعان ما توجه الأسطول المصري بقيادة الحاجب لؤلؤ ، وبلغت مراكب الصليبيين عند رابغ وسواحل الحوراء وحطموها فتركها العدو . ونزل إلى الشاطيء واعتصم بالجبال . فطاردهم المسلمون وقضوا عليهم قتلا وأسرا بعد مطاردة استمرت خمسة أيام . وبلغت جملة الأسرى مائة وسبعين رجلا فقيدوهم بالسلاسل وأيديهم خلف ظهورهم ، وأرسلوا بعضهم إلى المدينة المنورة ليذبحوا فيها وأما الباقون فإنهم ساقوهم إلى مدينة القاهرة ودخلوها راكبين جمالاً ووجوههم إلى ذيولها . وقد طلب رجال المخابرات أن يذبحوا وألحوا في ذلك . ومما جاء في مذكرتهم ، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة ، ولا للشرع في بقائهم فسحة ، ولا في استبقاء واحد منهم

● المهمة الشاقة والخطرة التي قام بها رجال المخابرات عندما حاصر الصليبيون ميناء عكا !

● اهتم الأيوبيون بالتوجيه المعنوي فاتخذوا من القصص وسيلة للدعوة إلى الجهاد !

مصلحة . فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها .

ورجال المخابرات الذين طالبوا بقتل هؤلاء المعتدين كان معهم الحق كل الحق فهؤلاء لم يحاربوا جيشاً وإنما أغاروا على الآمنين وقتلوا ونهبوا وحرقوا ودمروا . فلم يكن من جزاء لهم سوى القتل .

وفي تقرير للمخابرات عن علاقة مصر بامبراطورية الروم ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقاً ، ولا ضر أن يكون عدواً ، وهذا دليل على أن رجال المخابرات المصرية كانوا على دراية تامة بما كانت عليه الدولة الرومانية الشرقية من ضعف وانحلال .

وفي تقرير آخر يسجل ما وقع من خلاف بين ملك قبرص وملك انجلترا ، ومكاشفة الأول للثاني بالعداوة والحرب ، وأن ملك قبرص أخلى السواحل من كل ما يمكن أن ينتفع به الإنجليز من طعام وكساء . وكان امبراطور الروم قد طلب مساعدة مصر ضد ملك قبرص ، فعارضت المخابرات في ذلك معارضة شديدة .

بل إن المخابرات منعت السلطان صلاح الدين من أداء فريضة الحج فامتثل لأمرها واستمع لنصحها ، وكانت قد بنت معارضتها على ، أن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن بقاء الافرنج على حالهم واختراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا إليه ــ والعياذ بالله ــ ويفرط من يد الاسلام .

الأيوبيون يهتمون بالتوجيه المعنوي

عني الأيوبيون بالتوجيه المعنوى فاتخذوا من القصص وسيلة لنشر الدعوة إلى قتال الصليبيين فعينوا القصاص في المساجد وفي صفوف الجيش ليقصوا على الناس أخبار المسلمين الأولين الذين أبلوا بلاء حسنا في سبيل نشر الاسلام فانتصروا على الامبراطوريتين الفارسية والرومانية انتصارا تاما فحطموا الأولى وقضوا عليها . واقتطعوا من الثانية كل ممتلكاتها في آسيا وإفريقيا .

وكان القصاص يذكرون للناس سير الأولين فيشعلون في قلوبهم الرغبة في التضحية والذود عن حياض الوطن والدين . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب من صلاح الدين يذكر له شيئا من أخبار الجهاد . وقد ألفت له عدة كتب في الجهاد . ذكر القاضي ابن شداد في كتاب « النوادر السلطانية » وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » .

وليس من شك في أن الدعاية للجهاد قد سيطرت على جميع مؤلفي ذلك العصر . فإذا وضع أحدهم كتابا في الأدب أفرد بابا خاصا للشجاعة وأخبار الشجعان وخصص بابا آخر للجهاد وثوابه وحشد فيه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

وقد عني الأيوبيون بإنشاء مدارس خاصة أطلقوا عليها « دور الحديث » وعينوا فيها كثيرين ممن عرفوا بسعة الرواية في الأحاديث . وقد روى القاضي ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه واسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتحامى عن الحضور في مجالسهم ، سعى إليه وسمع عليه . تردد إلى الحافظ السلفي بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة . وكان يحب أن يقرأ الأحاديث بنفسه ، بل إن صلاح الدين كان يتبرك بسماع الحديث وهو على ظهر جواده في ميادين القتال وساحات الوغى .

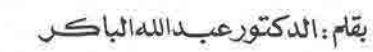
إن إدراك القدماء لقيمة التوجيه المعنوى وأثره في تقوية الروح المعنوية للأمة لا يقل عن إدراكنا له في هذه الأيام .

هذا الخطر الذي يهدد حياة الإنسان

الايدز

مرض العصر في الدول المتقدمة







بقلم: الدكتور عبدالله الباكر

تم التعرف على مرض الايدز في صيف عام ١٩٨١ ، عندما أصدر مركز الرقابة على المرض في أمريكا (C.D.C.) تقريراً عن خمس حالات من لوس انجيلوس مصابة بذات الرئة ، لها علاقة بنقص المناعة ، وأن هذه الحالات تمثل ظاهرة مرضية مختلفة عن ظواهر قبلها ، وحدثت في مجموعة شابة من الشواذ ، وأصدر تقريرا آخر عن ٢٦ حالة من مجموعة مشابهة في لوس انجيلوس ونيويورك مصابة بغَرن قابوزي « Kaposis Sarcoma » وهو نوع من السرطان ، ومنذ ذلك الوقت توالت الأحداث حتى أن هذا المركز أصبح يسجل ١٠٠ حالة جديدة كل أسبوع !

ولقد سجل هذا المركز ١٢٩٣٢ حالة حتى ٣٠ أغسطس ١٩٨٥ ، أكثر من نصفهم تم تسجيله في الأثنى عشر شهرا الأخيرة ، توفى منهم أكثر من ٦٤٨٠ حالة وكان ٧٥ ٪ منهم من الحالات التي شخصت قبل يناير ١٩٨٣ ، وهذه الحالات المسجلة يمثل الشواذ جنسياً ومتعاطو المخدرات بالابر ٩٠ ٪ من عددها !

ولقد نشرت أحدث خريطة تمثل نسب الاصابة ومعدلاتها في مختلف الولايات الأمريكية ، فرأينا الزيادة الخطيرة والواضحة في السواحل الأمريكية مثل كاليفورنيا ونيويورك وفلوريدا ، حيث تكثر المجموعة الشاذة « الشكل (١) » .

هذا ويتوقع أن يصل العدد إلى الضعف بعد عام ، فهذا العدد يمثل المصابين بالصورة الكاملة للمرض ، أما الذين يحملون الفيروس والذين يحتمل أن تكون نتائج فحوصهم للدم ايجابية فيقدر عددهم بمليون شخص « هكذا توقع د . كوران رئيس مركز الرقابة على الأمراض فرع الايدز » .

إن الأمر لم يعد محصوراً على أمريكا التي تمثل الحالات المسجلة فيها ٩٠ ٪ من الحالات في العالم ، بل تخطاها إلى دول أخرى حيث أن الفيروس لم يعد يعترف بالحدود ، فقد ظهر في مختلف الدول الغربية الأخرى تتقدمهم فرنسا حيث يوجد بها ٤٢٠ حالة من مجموع ١٢٧٤ حالة ، وقد بدأ في الشواذ جنسياً ، أيضا .

أما منظمة الصحة العالمية ، فقد ذكرت أنه في شهر سبتمبر ١٩٨٥ يوجد أكثر من ١٥٠٠٠ حالة في جميع أنحاء العالم .

ما هو مرض الايدز ؟

حتى الآن لا يوجد تعريف محدد لمرض الايدز ، إذ أنه ظاهرة كبيرة تشمل عدة أمراض أو أعراض للأمراض التي سببها اصابة فيروسية لجهاز المناعة المحددة في الجسم ، وحتى يعتمد تشخيصه لابد من وجود اصابة خطرة بالكائنات الانتهازية الطفيلية أو حدوث نوع غريب من السرطان « غ قابوزي » أو الاثنين معاً .

وهذا النوع من التعريف بناء على توصية مركز



● منظمة الصحة العالمية تؤكد أن هناك أكثر من ١٥ ألف مصاب بالإيدز في جميع أنحاء العالم!



ثلاث لقطات : الأولى لأحد المرضى أثناء إجراء الفحوص .. واللقطة الأخرى للتدريبات التي تتم من أجل اكتشاف أعراض هذا المرض الخطير .. أما اللقطة الثالثة فهي للقرد الأخضر الذي يعتقد البعض أنه السبب في انتقال الفيروس ، وتجرى دراسات عليه اليوم في أمريكا .. لتحضير الطعم المضاد للفيروس .

مراقبة المرض بأمريكا .

إلا أن فيروس الأيدز الذي تم التعرف عليه في المختبرات وأمكن فحصه حتى الآن .لم يأخذ اسماً واحداً ، فهو يسمى في أمريكا بناء على توصية مكتشفه الدكتور روبرت جالو HTLV-III-R. Gallo . وفي فرنسا يسمى LAV ، ومعناها الفيروس المصاحب لتضخم الغدد الليمفاوية وذلك بناء على توصية مكتشفه الدكتور لوك مونتانييه L. Montagnier ، وهو المكتشف الأول للفيروس (مايو ١٩٨٣) . وهناك اسم ثالث للمرض أيضاً .. أما الاسم النهائي فقد ترك تحديده لموافقة اللجنة الدولية لتصنيف الفيروسات .

وهذا الفيروس بغض النظر عن تسميته الآن ، يصيب جهاز المناعة المحددة ، وبالذات الخلايا الليمفاوية ت « T » والمساعدة منها بالذات ، وقد تصيب الخلايا ب « B » .. أحياناً .

ولادراك خطورة هذا الميكروب لابد من القاء الضوء على طريقة عمل خلايا المناعة الطبيعية المحددة في الجسم ، فخلايا المناعة المحددة هي الخلايا الليمفاوية « ت T » و « ب B » وللاثنين ارتباط وثيق والشكل « أ » يبين ذلك إذ نرى أنه في حالة وجود جسم غريب في داخل الجسم « ميكروب » مثلاً يتم التعرف عليه من قبل الخلية البلعمية « Macrophage » فتنذر الخلايا الليمفاوية ت T والتي تحس به هي أيضاً فتتكاثر هذه الخلايا تحسباً للخطر فتنتج أشكالاً مختلفة أهمها :

● خلايا « ت T » المساعدة وهي الخلايا التي تحدث توجيها في الخلايا الليمفاوية ـ B لانتاج الأجسام المضادة المعروفة بالجاماجلوبيولين التي تقوم بمهاجمة الجسم الغريب وإبادته .

● خلايا T المهبطة : وهي توقف انتاج الخلايا ب(B) : وتعتبر النسبة بين الخلايا المساعدة والخلايا المهبطة أحد المؤشرات لقوة وضعف المناعة المحددة .

● خلايا (T) تنتج موادا تعرف بالليمفوكاين ، والمثل المعروف لها مادة انترليوكين ــ ٢ (Interleukin) ولها دور في تقوية جهاز المناعة وقد استعملت في العلاج .

● خلايا (T) قاتلة للخلايا ولها دور كبير في مهاجمة الأجسام الغريبة داخل الخلايا وخلايا السرطان .

أما الشكل (١ ــ ب) فيمثل فيروس مرض الايدز الذي يهاجم الخلايا ت (T) المساعدة فيشل حركتها ويستوطنها ويستعملها في عملية تكاثره ويقطع صلتها بالخلايا ب (B) ، وكلما زاد عددها عن طريق حدوث التهابات أخرى كلما زاد نشاط الفيروس وتكاثر . لقد احتار العلماء في بادئ الأمر في قدرة هذا الفيروس على تخطي جهاز الانذار والتحسس ، إلا أنه أكتشف أخيراً أن الجزئ أو مولد المضاد على سطح الخلية ت (T) مشابه للجزئ المستقبل (Receptor) على الفيروس مما يسهل عليه دخول الخلية (T) ت بدون مشاكل .

أما الأشكال الشائعة الدالة على مرض الايدز :

١ ــ صورة المرض الكاملة . وهي تمثل التعريف الذي وضع بواسطة « C.D.C. » مركز مراقبة المرض الأمريكي والذي ذكرناه سابقاً .

٢ ــ مجموعة الأعراض المتعلقة بالايدز :
AIDS Related Complex

● تضخم الغدد الليمفاوية المنتشر .
● فقدان الوزن ــ ارتفاع الحرارة .
● اسهال مزمن ــ عرق غزير بالليل
● ضعف عام وعدم القدرة على التركيز .

الايدز

مرض العصر في الدول المتقدمة

- نقص الخلايا الليمفاوية بالدم.
- نقص الكريات البيضاء بالدم.
- فقر دم.
- نقص الصفائح الدموية الأولى.
- تغيرات في الحالة المناعية.
- طفح بالفم.

٣ ـ ظاهرة تضخم الغدد الليمفاوية المزمن: Chronic Lymphadenopathy Syndrome

وتمثل وجود تضخم في الغدد الليمفاوية في الأشخاص الشاذين جنسياً لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر بدون وجود سبب آخر لذلك، شريطة أن يكون هذا التضخم في مجموعتين أو أكثر غير مجموعة الغدد الليمفاوية الاربية (الحوضية).

٤ ـ ما قبل الايدز: الأشخاص الذين يعانون من أعراض متعلقة بنقص المناعة المكتسبة والذين ستظهر عليهم صورة المرض الكاملة في أغلب الأحيان.

مصدر المرض

لا يوجد تأكيد قاطع عن مصدر هذا المرض، لكن المعلومات المستقاة من غالبية الدراسات الأخيرة تبين أن هذا المرض يعتبر مشكلة صحية عامة في افريقيا الاستوائية، الوسطى بالذات، والهايبتي حيث أن هناك مجموعة منهم تعيش في أمريكا ينتشر بينهم المرض، إذ أن نسبة الحالات الموجودة في بعض مدن أفريقيا الوسطى بالامكان مقارنتها بالذي حدث في نيويورك وسان فرنسيسكو، وقد تبين أن لها علاقة بممارسة الشذوذ في احدى تلك المناطق أو أنهم مهاجرون منها، وهناك دراسة أخيرة من ترينيداد بينت أن المجموعة المصابة تنحدر غالبيتها من أصل افريقي مقارنة باختلاف الجنسيات في ذلك البلد.

إلى جانب ذلك فلقد وجد أن مجموعة من القرود بالذات، القرد الأخضر يصاب بنوع من الفيروس يشابه فيروس الإنسان، ويعتقد بأن قرب هذا الحيوان من الناس ـ وربما عن طريق العض ـ قد أدى إلى انتقال الفيروس الذي توطن فيه مع مرور الزمن، وعندما نزح هؤلاء الناس المصابون إلى المدن تم انتقاله للآخرين عن طريق الممارسة الجنسية الشاذة.

وسائل انتقال المرض

تم عزل عامل الفيروس من السائل المنوي والدم واللعاب والدموع ولكن الدراسات أثبتت حتى الآن أن العدوى تتم ـ فقط ـ عن طريق التعرض للسائل المنوي والدم ومكوناته، ولم تتبين أية علاقة بين اللعاب والدموع والاصابة.

إن وسائل إنتقال المرض تتلخص في التالي:

• الاتصال الجنسي: فقد أصبح مرض الايدز علامة بارزة في تاريخ الشذوذ الجنسي ومرتبطاً به سواء كان هذا الشذوذ مع نفس الجنس أو مع الجنس الآخر، ويشكل هؤلاء المصابون نسبة كبيرة تصل مابين ٧٥ ـ ٨٠٪ من مرضى الايدز، ويتم انتقال المرض هنا عن طريق السائل المنوي من خلال جروح وتهتكات سواء في الشرج أو المهبل أو الفم.

كيف تتم العدوى؟.. ومن هم الأشخاص والمجموعات المعرضة للإصابة بهذا المرض الخطير؟

هذا ولقد تبين أخيراً أنه بالامكان انتقال المرض عن طريق الاتصال الجنسي العادي، مثل اتصال المرأة بزوجها المريض أو من الجماعات في المجموعة الخطرة والتي نتائج فحص دمها إيجابيا، أو بطريق غير شرعي برجل آخر من المجموعات الخطرة، هذه هي الطريقة التي تصاب بها النساء، ومن النادر حدوث انتقال عكسي من المرأة للرجل عن طريق الاتصال العادي المشروع إلا في حالات الساقطات.

• مدمنو المخدرات: ينتقل اليهم المرض عن طريق استعمال الابر الملوثة والاشتراك فيها، وهم يشكلون ما لايقل عن ١٥٪ من الاصابات، وتعتبر النساء أكثر اصابة عن هذا الطريق.. هذا وقد بينت الدراسات أن الاسراف في تناول الكحول يقلل المناعة ويهيئ الجسم للاصابة، كذلك حدثت اصابات في الشواذ الذين يستنشقون الكوكايين بسبب تجريح الاستنشاق للغشاء المخاطي للبلعوم.

• نقل الدم أو مكونات الدم: جميع مكونات الدم وجميع العوامل سواء في حالة طازجة أو مجففة أو مجمدة تحمل في طياتها خطر انتقال الفيروس

ملحوظة: مضادات الأجسام وطعم الالتهاب الكبدي (ب) تعتبر سليمة حيث أنها تعرض لعدة تأثيرات اثناء عملية التحضير، ولا يوجد خطر من استعمالها حيث أن الدراسات أكدت ذلك، كذلك فان عامل المضاد للهيموفيليا المسخن أو المعامل لا يوجد خطر منه..

ويتضح أن الجماعات الذين ينقل اليهم الدم أو مكوناته من مصادر متنوعة معرضون للاصابة بشكل أكبر، لذلك تجد أن مرضى الهيموفيليا ٨، معرضون أكثر وكلما اشتد المرض بهم كان الخطر أكبر بسبب احتياجهم الشديد إلى كمية كبيرة من العامل الذي ينقص فيهم.

• انتقال الفيروس من الأم إلى طفلها: إن غالبية الرضع المصابين هم من أمهات مصابات بالمرض أو من المجموعات المعرضة لخطورة الاصابة، يتضح أن الانتقال يتم عن طريق المشيمة أثناء وجود الجنين داخل الرحم حيث تم استنتاج ذلك بسبب اصابة الرضيع عند الولادة أو بعد ذلك بمدة قصيرة جداً، حديثاً وصفت اصابة طفل تغيرا ايجابياً في دمه، نتيجة لاصابة والدته من جراء نقل دم بعد الولادة، ويعتقد أن الرضاعة قد يكون لها دور أو أي شئ في العلاقة الحميمة بينهما.

• بعد ذلك لايوجد ما يثبت أن العلاقات الاجتماعية الأخرى بما فيها السكن والدراسة والصداقة وغيرها لها دور في نقل المرض، كما أن الاصابة به لا تتم عن طريق المواد الغذائية ولا تنتقل عن طريق ناقل وسيط كالحشرات أو غيرها. أما بالنسبة للعاملين في القطاع الصحي فانه بالرغم من الضجة والخوف والهلع الذي أصابهم إلا أن الدراسات لم تثبت أن تعاملهم مع المرض أو وخز الابر في أصابعهم أو أي مكان آخر يؤدي إلى اصابتهم بالرغم من أن حالة واحدة قد سجلت لاصابة ممرضة في انجلترا بالمرض بعد شكة ابرة، وكانت المدة من شكة الابرة حتى ظهور الأجسام المضادة في الدم من ٢٧ ـ ٤٥ يوماً، وعلى كل يجب تنبيه الناس على أن الذين يعملون في الخدمات الصحية عموماً إن لم يكونوا من المجموعات الخطرة فإن إمكانية انتقال العدوى من خلالهم إلى مرضاهم أو لغير مرضاهم أمر غير وارد.

ومن أهم الأشخاص أو المجموعات المعرضة لخطر الاصابة بمرض الايدز:

١ ـ المصابون بالشذوذ الجنسي سواء مع نفس الجنس أو مع الجنسين في آن واحد.

٢ ـ المتعاطون للمخدرات عن طريق الحقن

٣ ـ المصابون بمرض الهيموفيليا بمختلف

اشكاله والذين نقل إليهم عامل التجلط قبل معاملته .

٤ ـ الذين نقل اليهم دم من مصابين ولم يكن قد تأكد خلوه من الفيروس .

٥ ـ زوجات المجموعات الأربع السابقة بعد اصابتهم والنساء اللاتي مارسن معهن الجنس بطرق غير شرعية

٦ ـ ممارسة الجنس بين الجنسين بطرق غير شرعية وبالذات من الرجال إلى النساء وأحياناً العكس كما حدث أخيراً

٧ ـ الأطفال الذين تنجبهم النساء المصابات من المجموعات السابقة .

الفترة الكامنة

يعتقد أن الفترة بين الاصابة وتشخيص مرض الأيدز كاملاً ربما تكون طويلة ، إذ أنها تبلغ في المتوسط فيمن نقل إليه دم مصاب ٢٩ شهراً في البالغين و ١٤ شهراً للرضع ، وفي دراسة حديثة تبين أن الفترة الكامنة ٤ سنوات ونصف بالنسبة لنقل الدم المصاب وبالنسبة للشاذين جنسياً كانت أكثر من ٣ سنوات . وهناك حالة طفل سجلت بعد أن ظهر عليه المرض بعد خمس سنوات ونصف من التعرض للإصابة .

الاصابة بالفيروس

تستمر الاصابة بالفيروس في الحيوانات لمدة طويلة وغالباً مدى العمر . أما الاصابة في الانسان فمن خلال الخبرة القصيرة يتضح أنها تستمر لسنين وقد تكون أيضاً لمدى العمر حيث أنه تم التمكن من عزل الفيروس بعد مرور سنين من الاصابة .

وهناك دراسة بينت أنه تم عزل الفيروس من عينات الدم التي أخذت من متبرعين بعد ٢٨ شهراً من التبرع ، ولقد كان جميع هؤلاء المتبرعين بدون أعراض ما عدا واحدا منهم عند التبرع .

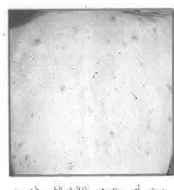
يبقى أن نعرف أن مجرد ايجابية فحص الدم ووجود أجسام مضادة للفيروس حتى بدون وجود أعراض المرض المذكورة أعلاه يعتبر تأكيداً لوجود العدوى وإمكانية عدوى الآخرين ، ولكن ما هو العدد المتوقع إصابته بالمرض من المصابين بالفيروس ؟

إن الذين يصابون بالفيروس يسيرون إلى طريق المرض ويتضح حتى الآن أنه أمر محتوم ولكن لا توجد طريقة تمكننا من معرفة الوقت أو الزمن الذي سيتم ذلك فيه . وفي دراسة أجريت في سان فرنسيسكو على ٤٧٤ من الشواذ جنسياً على مدى أربعة سنوات . ألقى العلماء بعض الضوء على ذلك حيث تبين أن المرض شخص في ٢,٧ ٪ منهم وان ٢٥,٨ ٪ منهم لديهم ما يؤكد حالة المرض المتعلقة



الاختبارات التي تجرى داخل المعامل

● مازالت العقاقير المضادة عاجزة عن التخلص نهائياً من الفيروس



من أعراض هذا المرض الخطير ظهور بقع على جسم المريض

بالايدز بينما وجدوا أن ٥٧ ٪ من الذين ليست لديهم اعراض كانت نتائج فحوص دمهم ايجابية .

إلى أين ؟

حتى الآن لم يتمكن مصاب واحد بمرض الايدز من الشفاء . هذا وقد قدر معدل الحياة بعد الاصابة بالمرض الكامل :

- في حالات غرن قابوزي ١٢٥ أسبوعا
- حالات الالتهاب الرئوي ٣٥ أسبوعا
- الأنواع الأخرى من العدوى ١٨ أسبوعا

ويتضح أن أعراض المرض الأخيرة والأسباب المؤدية للوفاة ناتجة من مضاعفات الاصابة من الفيروس حيث تتعرض أجهزة الجسم المختلفة إلى اصابات مختلفة بمختلف الكائنات الأنتهازية والسرطان بمختلف أنواعه ، والصورة المنشورة تبين غرن قابوزي والذي يختلف شكله عن الشكل الأصلي الذي ظهر عليه الغرن في السابق .

لقد أثبتت الاحصائيات أن ٤٦ ٪ من مرضى الأيدز يقضون حوالي ٣٠ ٪ من الأسابيع الباقية من حياتهم في المستشفيات وأن ٣٢ ٪ منهم يحتاجون لقضاء على الأقل نصف حياتهم الباقية داخل المستشفى .

التطعيم ضد الفيروس

إن التطعيم ضد الفيروس أمر ضروري الآن بعد الصعوبة التي يواجهها المجتمع في العلاج ، والهدف الأساسي منه هو منع حدوث حالات جديدة لا علاج المصابين . إلا أن النتائج حول هذا الموضوع ليست واضحة إذ أن الفيروسات المعزولة تختلف في تكوينها الوراثي بشكل واسع وتختلف فيها صفات مولد المضاد (Antigen) ، هذه الاختلافات هي التي تؤدي إلى عدم فعالية الطعم ولكن الدراسات تركز الآن على وجود منطقة بروتينية قوية مشتركة لمختلف الأنماط حتى يتم من خلالها امكانية توليد مضادات الأجسام المؤثرة . وهناك اعتقاد أنه بمجرد التوصل إلى ذلك سيكون انتاج الطعم على نطاق واسع باستخدام التقدم الذي تم في تكنولوجيا الخلية .

استراتيجية العلاج

تعتمد استراتيجية العلاج على محاولات وطرق مختلفة مستندة على ما هو متوفر من المعرفة عن المرض .

الايدز

مرض العصر في الدول المتقدمة

• استعمال العقاقير المضادة للفيروسات : وهذه تعتمد على قدرة هذه العقاقير على عكس التغييرات الانزيمية المصاحبة للاصابة بالفيروس وهذه العقاقير تؤدي إلى توقف الفيروس عن العمل الوظيفي ولكنها لا تؤدي إلى التخلص منه نهائياً لذلك يعود إلى عمله بعد سحبها اضافة على أنها قد تؤثر على الكلية .

• طرق زيادة مناعة الجسم : تستهدف إلى عكس التأثيرات الضارة التي يحدثها الفيروس في جهاز المناعة ومنها استعمال الانترفرون ، الانترليوكين ـ٢ ، استعمال خلايا لمفاوية جديدة ، زرع نخاع عظمي للحث على انتاج خلايا جديدة واستعمال جلوبيولين المناعة بكميات كبيرة ، وحتى الآن لم تثبت بصورة قاطعة فعالية أي من هذه الطرق لدرجة أن نقل نخاع عظمي من توأم غير مصاب إلى توأم مصاب قد فشل في اظهار أي نتيجة أو أي تغيير في مسار المرض المزمن .

• استعمال الطريقتين السابقتين معاً في محاولة لايقاف الفيروس وتقوية جهاز المناعة لم تحقق النجاح أيضاً حيث أن هناك تخوفاً من الاستعمال الطويل الأجل للعقاقير المضادة للفيروسات .

• علاج مضاعفات الايدز : هذه المضاعفات فيها أنواع تستجيب إلى العلاج ولكنها أيضاً تعود إلى حالتها الأولى بعد توقف العلاج بأسبوعين ، أما البعض الآخر فلا يستجيب أبداً ، وهناك ما يقرب من ١٠٠ نوع من الأدوية المستعملة حتى الآن وبدون أي نتائج تذكر .

الوقاية من المرض

وهكذا نرى أن العالم يواجه ظاهرة مرضية خطيرة تتفشى في فئة ضالة من المجتمع من الصعوبة كبح جماحها فهي قوية وبارزة في المجتمعات المتقدمة استناداً على فهم خاطئ للحرية ، حيث أن لها تجمعاتها وزعماءها ومنتدياتها الخاصة ومختفية مجهولة الحجم والقوة في الدول النامية الأمر الذي يشكل خطورة قد تكون أكبر لو انتشر المرض فيها . ولو كانت هذه الظاهرة استمرت أو أن هناك دلائل تبين أنها ستبقى في هذه الفئة لقلنا أنه عقابهم الذي يستحقونه ، ولكن الخطر بدأ يظهر في انتقال المرض إلى عائلات هؤلاء ثم إلى الأبرياء الآخرين . وما دام العلاج كما تبين لم يعط أي نتائج فإن الذي يبقى أمامنا هو الوقاية .

إن كل فرد يستطيع أن يوفر الحماية لنفسه أكثر بكثير مما يستطيع العلم أن يوفره له من الحماية في الوقت الحاضر وذلك باتباع ما يلي :

(١) الابتعاد عن الشذوذ الجنسي والاتصالات الجنسية غير المشروعة .

(٢) يجب الابتعاد عن المخدرات بكل أشكالها







لقطتـان للممثل الامريكي الشهير روك هدسـون : قبل المرض وبعده

وبالذات التي تؤخذ عن طريق الحقن الملوثة المستعملة من قبل عدة أشخاص .

(٣) على السيدات المصابات بالمرض أو الحاملات للفيروس حتى بدون أعراض أن يتوقفن عن الانجاب حتى لا ينجبن جيلاً مريضاً .

(٤) المرضى الذين يحتاجون إلى نقل دم أو مكونات الدم عليهم أن يتأكدوا من سلامة الدم المنقول لهم .

(٥) في حالة احتياج المريض لنقل الدم أثناء اجراء عملية ولا يوجد تأكيد لسلامة الدم يستحسن من جميع النواحي والضوابط أن يستفاد من طريقة نقل الدم الذاتي .

(٦) على مرضى الهيموفيليا أن يصروا على نقل عوامل التجلط المسخنة أو المعاملة بطرق تقضي على الفيروس .

(٧) يجب التأكد من أن المتبرعين بالدم والأنسجة والأعضاء والحيوانات المنوية للتلقيح الصناعي غير مصابين أو حاملين للفيروس وذلك عن طريق التحليلات المختبرية .

(٨) ينصح بعدم الاشتراك في فرش الأسنان وشفرات الحلاقة وأي أدوات شخصية قد تؤدي إلى التجريح ونقل الملوثات بالدم .

(٩) على العاملين أن يلتزموا بطرق السلامة التي توجد لها كتيبات عن كيفية التعامل مع المرضى ومع مخلفاتهم في المختبرات والمستشفيات .

(١٠) الادلاء بجميع المعلومات الخاصة التي تطلبها الهيئة الطبية عن العلاقات والأقارب وغيره إذ أن ذلك سيكون محاطاً بالسرية فمهمة الطب وشرف المهنة يستدعيان المحافظة على ذلك .

إن المشكلة التي نواجهها الآن ليست صحية فقط ، بل هي صحية اجتماعية وسياسية ، والقضاء عليها لن يتم بالتأكيد إلا بالتغيير في السلوك الآدمي وفي أسلوب حياة الأفراد ، وما أصعب المهمة التى نواجهها . إذ أن التدخل مهما كانت أشكاله لتغيير السلوك الآدمي ليس إلا كالسباحة ضد التيار .

عبدالله الباكر

شكل ١ (ا) : يوضح مسار المقاومة الطبيعية عند دخول فيروس للجسم (ب) المسار المغاير الذي يسلكه فيروس الايدز وتحطيمه للمناعة

تشاركني في الجنون الجميل!

شعر: عـــزت الطـــيري

(١)

وترحلُ
كل القطارات ترحلُ
كل المحطات ترحلُ
كل الفراشات صرعى
وكل العصافير جوعى
وكل الحقولِ .. موات
وتحضرُ ..
كل المسافات شبرٌ
وكل المدارات شعر
وكل المحبين يجتمعونَ
على الأمنياتْ
إلهي .. أدمْ نعمة الحبِ ،
ألهمْ فؤادي القصائدَ
والأغنياتْ

(٢)

أنا الآن أسألُ
مَنْ يطرد الوجعَ المتخثر في القلبِ
مَن ينقذ القمر المتعثر في السُحْبِ
من يترك الآن للأغنيات الأعنَّهْ
« من يُخرج الآنَ هذي الخيول المسنّه
من بساتيننا
من حشائش أيامنا المطْمئنَّه

(٣)

تشاركني في الجنون الجميل
تشاركني الرقة العاطفيه
تشاركني اللذة الفوضويه
وأنتَ الذي قلتَ : إن النساء إذا ما عشقنَ ،
يصرنَ قطيفا وكرْما من العنب الساحليِّ ،
ويسقين جرح الحبيب سلافة أرواحهنَّ ،
يقطِّعن أيديهنَّ ، وينقشنَ اسمَ الحبيبَ على الصدرِ ،
يأخذن زينتهنَّ وينسين أقراطهنَّ ـ إذا ما انتشينَ ـ
على مصطبات الهوى ...
ولكنَّ تلك التي أعشقُ الآنَ ، ترفض كل حديث الغرامِ ،
وترفض همسَ القصائدِ ، توقن أن الطريق إلى القلبِ
يبدأ من عند بيت أبيها ! ! !

(٤)

لماذا أحبك
أنت المقامر بالقلب ،
أنت المسافر في الغيبِ ،
أنتَ الأمينُ ، الحنونُ ، المدينُ ، المُدانُ ،
المواظبُ ، أنت المراقبُ ، أنت المحاصر بالطمي ،
والنار والأفعوان ، وأنت الرقيق المعذَّب في العشقِ ،

والعشق عذبنا بالعيون الجميلات . أرّقنا بالخصور النحيلاتِ ، أغرقنا في بحار التهجد باسم الحبيب الظلوم ، وخدّرنا بالطزاجة والدفء حين يرفرف صوت الحبيبة كالدمعِ ، كالفجرِ ، كالمطر المتساقط بعد رحيل الغيوم.....

(٥)

طيور التذكر
ترجع أيامنا الضائعاتِ ، وترسم دائرة للتأملِ ،
شمس الغروب . الشوارع موبوءة بالتسكع ،
سيارة الرش ، همس البنات اللواتي يوزعنَ أحلامهنَّ ،
ويخلفن ميعادهنَّ ، المقاهي ، وأمسيَّة الأربعاء ،
المفاعيل والفاعلات ، الشواطئ ، رائحة البحرِ ،
لافتة الانتظار ، المدرَّج ، كراسة الدرسِ ،
طير التذكر ، يرسم دائرة للتأملِ
يرسم دائرتينِ
ثلاثا
وأربعْ
أنا الآن أروعْ
أنا الآن أزرع ريحانة الشعرِ ،
أهدم مصطبةً للتقوقعْ
أنا الآن أروعْ
أنا الآن أروعْ
أنا الآن أرو...
أنا الآن أر......

الأفق الرحب

شعر: سالم زين باحميد
« اليمن »

وقفت على الخمسين والنفس لم تزل
كعاب ، تغني للحياة وللحب

وقفت على الخمسين ، والشوط واسع
سأمضي صعوداً ، ثابت الخطو في دربي

عركت زماني لم تثرني مواجعي
فلست أبالي بالجديب ، وبالخصب

هو العيش ، لا شيء يدوم بحاله
ولست أخاف الخوف ، أهتز للرعب

صبور أبي دائما ذو شكيمة
عرفتُ حياتي في السرور وفي الخطب

فسيان عندي كل شيء عركته
عرفتُ رغيف العيش ، والعيش في الجدب

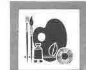
فلم أر خيرا من رضى ومحبة
وعيش اشتياق ، في بعاد وفي قرب

أرى الحب نبراس الحياة يزينها
هو الحب في الأعماق ينساب في القلب

اذا عرف القلب المحبة صادقاً
يظل شباباً دائما في هوى صب

هو الحب أكسير الحياة مقدس
به شبحُ الأرواح في أفق رحب

بقلم : جمــال قطــب





المتتبع لهذه السلسلة على صفحات (الدوحة) يجد أننا استعرضنا جميع مدارس الفن العالمي تقريباً ، منذ عصوره التاريخية الأولى ، مروراً بكلاسيكيات القرون الوسطى وفنون عصر النهضة وما تلاها من طرز النهجية والباروك والروكوكو .. وعودة الكلاسيكية الجديدة في فرنسا والحركة الرومانتيكية ومدرسة باربيزون التي كانت تعنى برسم المناظر الطبيعية .. ثم الواقعية .. ووقفنا طويلاً أمام الحركة التأثيرية بإشعاعاتها المبهجة وألوانها الدافئة المتلألئة لمدى أهميتها عالمياً ، ولأننا في منطقتنا العربية قد بدأنا نهضتنا الفنية الحديثة ــ بعد اندثار مدارس الفن الاسلامي التي سادت في عهود الازدهار الماضية ــ بهذا الأسلوب التأثيري ، وذلك عندما افتتحت أول مدرسة للفنون الجميلة في العصر الحديث بالقاهرة في أوائل هذا القرن . وبالتحديد في عام ١٩٠٨ وأوردنا عشرات من روائع الفن العالمي لأقطاب التأثيريين العالميين من العرب والأجانب .

وبين هذا وذاك ، وعلى مدى السنوات الماضية ، تدارسنا سوياً سير الفنانين وخواص نزعاتهم وثقافاتهم وانتماءاتهم المنهجية من خلال ما ننشره من لوحات على هذه الصفحات . ونلاحظ أن فنون عصر النهضة الذهبي الايطالي ، وفنون دول الشمال الأوروبي (الفن الفلمنكي) ، والفن الأسباني ، كانت أسبق من الفن الفرنسي والبريطاني .. حيث أن الحركة الفنية الفرنسية ، وكذلك الانجليزية ، لم تزدهر وتثبت أقدامها على أرض الابداع العالمي إلا في القرن الثامن عشر ، الذي كان بمثابة نقطة انطلاق التحولات الفكرية الأوروبية والتفتح الوجداني الشامل . كما نلاحظ أن فرنسا ــ منذ أوائل ذلك القرن ــ قد أخذت زمام المبادرة في الحركات الفنية والمذاهب الفكرية الجديدة ، وأصبحت باريس ملتقى ابداعياً ومركز إشعاع يقود العالم كله ، ولا سيما في القرن التاسع عشر ، ولذلك حظي الفنانون الفرنسيون بالنصيب الأوفر من استعراضاتنا السابقة.وعلى الضفة الأخرى من الجزيرة البريطانية ، وجدنا أن النهضة الفنية تأخذ طابعاً خاصاً ميزها عن باقي النزعات الأوروبية ، فبينما نرى أن فنون العصر الذهبي في ايطاليا يغلب عليها الطابع الديني والتحليق الروحي ، نرى أن فنون دول الشمال (الأراضي المنخفضة) تعنى بجمال الطبيعة وسمات الحياة الشعبية والزراعية .. وفي أسبانيا ، عندما وصلت الدولة في القرن السادس عشر إلى كونها قوة سياسية واقتصادية عظيمة رأينا أن فنها لم يصل إلى هذه الدرجة من الازدهار والرسوخ ، ولكن القوة الدافعة جاءت إليها من الخارج عن طريق فن الشمال (الفلمنكي) وفنون النهضة الايطالية وغيرها ، وبدأ الأسبان يعالجون أساليبهم الفنية بطريقتهم الخاصة التي استمدوها من هذه المصادر ، وفي فرنسا .. كان طابع فن القرن الثامن عشر (الروكوكو) هو الترف والنعومة والبذاخة الملكية .. ولذلك أطلق عليه اسم : فن البلاط .. ثم قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .. وأحدثت انقلاباً في كل شيء .. وبعدها توالت المدارس الفنية المستحدثة .. تلك التي قادت وراءها فنون الدول الأخرى كما ذكرنا .. أما في بريطانيا فلم تقم نهضة فنية حقيقية إلا في القرن الثامن عشر .. ويرجع الفضل في وضع أسس هذه النهضة آنذاك إلى الفنانين الأجانب من الايطاليين ومن دول الشمال الذين استدعاهم الملك هنري الثامن في القرن السادس عشر للعمل في بلاطه .. وبذلك أسسوا ما عرف بعد ذلك بطابع انجليزي خاص . كان يركز أساساً على خدمة السلطة الدينية خلال القرون الوسطى ، وتحولت أعمال الفنانين إلى فنون تطبيقية تلبي متطلبات الكنيسة الكاثوليكية وقصور الحكم . على أن مجال التصوير قد انكمش تدريجياً منذ أن حل المذهب البروتستانتي محل الكاثوليكي . فلم تعد الكنيسة ترحب أو تبيح ما كان مرغوباً من قبل . وكان أمراً حتمياً وقتئذ أن يبحث المصورون عن مجالات أخرى يمارسون فيها نشاطاتهم ، فاتجهوا إلى مصادر الالهام والجمال ممثلاً في الطبيعة وفي حسناوات العصر ، ورسم الشخصيات المرموقة .. ولم يكن المسيطرون على هذه الابداعات إلا الأجانب الذين كانوا يفدون على انجلترا بدعوة من ملوكها ورجالاتها المرموقين .. وظلت الأمور تسير على هذا الحال حتى ظهر فناننا وليم هوجارث (١٦٩٧ ــ ١٧٦٤) William Hogarth وكان أول من نجح في نشر الوعي الفني بين الجماهير .. ولا نتصور أن هذا الأمر كان سهلاً ميسراً ! فكما نعرف ، فإن الانجليزي بطبعه متحفظ لا يميل إلى التغيير بسهولة .. بل هو إنسان تقليدي يحب الالتزام ، كما أنه موضوعي يبحث عن المنفعة المباشرة ، ولذلك رأينا أن الإنجليز لم يتقبلوا في بادئ الأمر هذا التحول في تذوق الفنون الوجدانية ، إذ لم يألفوا من قبل إلا الفن التطبيقي الذي يعطي نفعه بصورة مباشرة في حياتهم .

وهنا ، اتجه هوجارث إلى مخاطبة الشعب من منطلق مشاكله الخاصة ، تماماً كما يفعل فنان الكاريكاتير في أيامنا هذه .. لقد أخرج لوحات كانت أقرب إلى المقالات النقدية اللاذعة .. ورسم سلسلة من اللوحات تكون في مجموعها قصة تتناول حياة الناس بالتحليل ، وتعد مجموعة الصور التي أسماها (الزواج العصري) .. أروع ما خلفه هوجارث .. وأعظم ما ترك أثره في مجتمعه البريطاني آنذاك . ولم يوقف الفنان عبقريته على رسم حسناوات عصره وعظماء قومه كما فعل غيره من مشاهير الفنانين الإنجليز من بعده ، ولكنه فنان الطبقات الفقيرة والوسطى .. وكانت معظم لوحاته نقدية تهكمية لاذعة يرسمها من تلقاء ذاته لإظهار رأيه وتحقيق أفكاره فحسب !

ولما كان فن التصوير يعتبر المصدر الرئيسي للرزق بين المصورين الانجليز ، وجدنا أن هوجارث يرسم بين الحين والآخر بعض الشخصيات من سيدات ورجال المجتمع البريطاني . ولذلك جمعت آثاره الفنية الرائعة بين اتجاهه الأساسي في لوحاته النقدية الهادفة ، وبين السمة التي تميز بها الفن البريطاني وهو رسم الصور الشخصية .

وعلى الصفحة المقابلة ، نرى إحدى لوحات هوجارث الشهيرة التي رسمها عام ١٧٤٠ وأسماها « بائعة الجمبرى أو الروبيان » وقد أسميناها مجازا « الغجرية » .. فلنتأمل هذه الرائعة التي أبدعها الفنان بعفوية وجرأة وانطلاق ، كما لو كانت رسماً تحضيرياً سريع اللمسات ، نابض الحيوية وكأن ألوانها لم تجف بعد .. إن سخونة التعبير العاطفي في هذه اللوحة قد جعل منها مثلاً رائعاً لتمكن الفنان وجرأته واقتداره على نقل انفعالاته مباشرة لسطح لوحاته .. ولينظر المعنيون بتذوق الفن وأسرار (التكنيك) ، كيف استخدم هوجارث اللونين الأحمر والأخضر في تناغم واتساق وتوافق مثير !

إن فرشاته المحملة بأشجانه وحرارة عاطفته ووجدانه ، تنطلق متحررة في سلاسة وسهولة .. ولكنه السهل الممتنع الذي لا يقدر عليه إلا الأفذاذ من فناني التاريخ الكبار !



فلسطين.. الجرح والطريق

شعر: معروف رفيق

الشاعر الفلسطيني الكبير معروف رفيق يصدر له بعد أيام ديوانه الجديد « فلسطين .. الجرح والطريق » ، ويسعد الدوحة أن تقدم هذه القصائد المختارة من الديوان الجديد :

ماذا تريدون؟

هل تعرفُ الدنيا حقيقة موقفي
ومدى طموحي أو طبيعةَ مطلبي
إني أريد مسافةً في موطني
آوي إليها بعد طول تغرُّبِ
قبراً ، يهدهِدُ جثتي ، ويضمّها
في موطن الآباء .. في مسرى النبي

نهبوا مركز الأبحاث الفلسطيني

نهبوا التراث وصادروا عقلي
وتناوشوه ، وأنكروا فضلي
سلبوا الثقافة وهي مفخرتي
يا مجرمون .. فحسبكُمْ قتلي
وثقافتي استُلبت فوا أسفي
يا ضيعةَ الموروثِ عن أهلي
من كان يحرق كلَّ ما تركوا
لينالَ من مجدي ومن أصلي
ويظن أن أصالتي نَفَدَتْ
ويزوِّرُ التاريخَ بالجهل
من كان يفعل ذا .. فقد عَلِمَتْ
كلُّ الشعوب ، أصالةَ النَّخلِ

فريق للمروءات يوم قصفوا مركز الأبحاث

قصَفوا الفكرَ فزادوه التماعا
احرَقوا الأقلامَ فازدادت بريقا
وصمدنا فكرةً وقادةً
وصنعنا من ضحايانا طريقا

وأفاق العجزُ من غفوته
وصحا العقل وقد كان غريقا
قدرة الانسان من تصميمه
شمعةٌ تشعل في الذل حريقا
ليس للذل حياةٌ بيننا
فلنشكّل للمروءات فريقا

رموز عربية ومسلمة في المعركة

الرمز لا يكفي ، ولكنّ الدلالةَ واضحةٌ
نبضُ العروبة لم يمت ، رغم الوجوه الكالحة
فأولئك الأبطال :
من يَمَنٍ وتونسَ والجزائرْ
من مصرَ من لاهورَ اذْ ركبوا المخاطرْ
ضربوا مثالا في التصدي
للطيور الجارحة
لكنّ هذا الرمزَ في معنى العقيدة والعروبة :
معناهُ في (فرض الكفاية)
أما الجهاد ففرْضُهُ
هو « فرضُ عَيْنْ »
فرضٌ ودينْ ..

رسالة عن طريق البريد البعيد

أخي الشاعر
أديب رفيق محمود

تحياتي
إليك أخي ببلدتنا الكئيبة
إلى الاخوان كلِّهمُ
إلى الأعمام والأخوال في السهل
على الجَبَلين في الوادي وفي التلِّ
إلى العمّاتِ والخالاتِ لو يسْمَعْنْ
إلى الزّهرات حولَ النار في كانون
إلى كل الأحباء
تحياتي ...

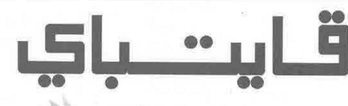
تحياتي كزوبعةٍ خريفيةْ
كاعصارٍ بزمجر في حنايا الأفق
يزور عوالما كُثرا
ويحملُ فوقها شوقي
يرى باريس أو روما
يرى برلين أو لندن
ويحمل دفء أشواقي
بظرف ضمّ أوراقي
لعلّ لعلّ يبلغكم
ليفرد تحت أعينكم
تحياتي ...

وأكتب في ثنايا الليل لو تدْري
واستوحي رُكامَ الليل إذا تعوي أعاصيرُهْ
وأسأل كل سانحةٍ
وأعصر كل جارحةٍ
لعلي أقطف الفكرةْ
لأزرعها بأوراقي
لأمهرها بأشواقي
لعلّ الظّرفَ يبلغكُمْ
ليفرد تحت أعينكم
تحياتي ...

ومها طالت الأيام
ومها اشتدت الآلام
سنبقى نحمل الصخرةْ
كما سيزيفَ يحملُها
ونحمل جرحَنا لو سال
وننشد ليلنا لو طال
سنبقى نحمل الصخرة
فلا نجزع ولا نحزن
فإن الصبرَ مذ أيوب علّمنا
عرفناه .. وخبأناه في مخزن
لنقبس منه حاجَتنا ، وبُلغتنا
فلا زلنا
على أكتافنا الصخرة
وبلِّغ كل من يسأل
تحياتي ...



لوحة لقلعة قايتباي يعود تاريخها إلى أيام الحملة الفرنسية



قايتباي

أهم القلاع على البحر الأبيض المتوسط



جزء من أرضية المسجد بالدور الأول في القلعة

بقلم : ليلى الحريري

دمر الزلزال العنيف الذي عصف بمدينة الاسكندرية عام ٧٠٧ هـ ضمن ما دمر ، منار الاسكندرية القديم الذي كان يقع عند الطرف الشرقي لجزيرة صغيرة اسمها فاروس تمتاز بموقعها الهام عند مدخل الميناء الشرقية للاسكندرية ، ورغم أن السلطان محمد بن قلاوون حاكم مصر في ذلك الوقت أمر بترميمه واعادته إلى صورته الأولى وقد تم ذلك بالفعل ، إلا أنه لم يصمد أكثر من بضع سنوات تهدمت بعدها جميع أجزائه عام ٧٧٧ هـ ١٣٧٥ م .

ومرت السنون ، تولى بعدها الحكم السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي الظاهري الذي قدم إلى مصر ولم يتجاوز العشرين من عمره . اشتهر السلطان قايتباي بحبه للفنون جميعاً وغرامه الشديد بفن العمارة على وجه الخصوص حتى أنه أقام لها شاد للعمائر كوظيفة أساسية من وظائف الدولة قامت بالاشراف على العديد من العمائر في مختلف بقاع مصر وخارجها أيضاً .

وحين توجه السلطان قايتباي عام ٨٨٢ هـ ١٤٧٧ م لزيارة مدينة الاسكندرية ، قصد إلى موضع المنار القديم الذي تهدم وأمر مهندسه قجماس الإسحاقي وهو أشهر من تولى منصب شاد العمائر في ذلك الوقت ، أن يقيم في هذا المكان ، وعلى نفس الأساس القديم برجاً عرف بقلعة أو طابية قايتباي استغرق بناؤها أكثر من عامين وتكلف ذلك ما يزيد على المائة ألف دينار وأوقف عليها الأوقاف الجليلة .

وتعتبر قلعة قايتباي من أهم الحصون الدفاعية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وقد أقيمت على ما يزيد عن أربعة أفدنة أي مساحة قدرها حوالي ١٧٥٥٠ مترا مربعا بنيت عليها الأسوار الخارجية والاستحكامات الحربية ، بينما بني البرج الرئيسي في الجهة الشمالية الغربية من تلك المساحة

والبرج الرئيسي عبارة عن بناء مربع ضخم من ثلاثة طوابق يزيد ارتفاعها عن سبعة عشر متراً بني بالحجر الجيري الصلد ذي القطع الكبير ، في كل ركن من أركانه الأربعة ، أربعة أبراج مستديرة يبلغ قطر كل منها ستة أمتار . أما الطوابق الثلاثة فيختلف كل منها عن الآخر اختلافاً واضحاً في التخطيط والارتفاع حيث يشغل معظم الطابق الأرضي مسجد ، كما يتكون الطابق الثاني من عدة حجرات تختلف في مساحتها وربما كانت للسكنى في ذلك الوقت . أما الطابق الثالث فيتكون من عدة حجرات صغيرة متشابهة تفصل بينها ممرات وكانت على الأرجح تستعمل كمخازن للأسلحة والذخيرة .

ونظراً للأهمية البالغة لقلعة قايتباي من الناحية العسكرية ، فقد اهتم بها سلاطين مصر وحكامها منذ انشائها وحتى وقتنا هذا . فحين تولى السلطان الأشرف أبو النصر قنصوة الغوري أمر البلاد في عهد المماليك أولاها اهتماماً خاصاً ورعاية فائقة .



واجهة البرج الرئيسي على البحر

باب القلعة الرئيسي



لوحة السلطان الغوري أعلى الباب

وعندما أحس بقرب الخطر العثماني زاد من قوة حاميتها وشحنها بالسلاح والعتاد وأصدر مرسوماً عسكرياً ينهى فيه عن اخراج السلاح منها بل وجعل الشنق والاعدام عقوبة كل من تسول له نفسه الاقدام على السرقة من داخل القلعة . وقد أمر بنقش هذا الأمر على لوحة من الرخام مثبتة بأعلى الباب المؤدي إلى الفناء وكتب عليها ... « بسم الله الرحمن الرحيم .. رسم بأمر مولانا المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قنصوة الغوري خلد الله ملكه ، أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح مكاحل ولابارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن يخالف ذلك من جماعة البرج من مماليك وعبيد وزرد كاشيه وخرج منه بشيء ، شنق على باب البرج وعليه لعنة الله . بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة » .

وعندما تولى الأتراك العثمانيون حكم مصر ، استخدموا جميع القلاع المنتشرة في مصر لحمايتهم مثل قلعة القاهرة ودمياط والبرلس وقلعة العريش وكان على رأس هذه القلاع قلعة قايتباي بالاسكندرية التي أقاموا على حراستها طوائف من الجند والمشاة والفرسان والمدفعية اضافة إلى جماعات من الطبالين ونافخي الأبواق وبعض المعماريين والنجارين .

وحين ضعفت قوة العثمانيين الحربية ، ضعفت وفقاً لذلك حامية قلعة قايتباي وبالتالي فقدت أهميتها الحربية . وظل الحال كذلك حتى استولى الفرنسيون على مدينة الاسكندرية عام ١٧٩٨ م فسقطت القلعة في أيديهم وإن ظلت محتفظة بشكلها وعمارتها الأولى .

واستقر الحكم في مصر لمحمد علي ، فكان أن اهتم بحماية الأمن في البلاد داخلياً مثلما اهتم بتحصينها ضد المعتدي الخارجي . واهتم بتحصين السواحل فأقام العديد من القلاع الجديدة اضافة إلى تجديد الحصون القديمة ومنها قلعة قايتباي بالاسكندرية فأمر بتجديد مبانيها المتصدعة ، وترميم أسوارها الخارجية ثم زودها بالأسلحة الحديثة وخاصة المدافع الساحلية .

وحكم مصر خلفاء محمد علي تباعاً ، واستمر اهتمام كل منهم بهذه القلعة القديمة حتى كانت سنة ١٨٨٢ م عندما اندلعت الثورة العرابية ضد الاحتلال البريطاني ، وهاجم الأسطول الإنجليزي مدينة الاسكندرية في اليوم الحادي عشر من شهر يوليه من نفس العام فهدم قلاعها وأصاب حصونها وأحدث بمبانيها تدميراً كبيراً نتيجة انفجار قذائف المدافع بداخلها خاصة في الواجهة الغربية منها .

وظلت قلعة قايتباي كما هي عليه من دمار وتهدم إلى أن كان عام ١٩٠٤ م حيث استرعت انتباه المعنيين بدراسة الآثار الاسلامية في مصر وعلى رأسهم لجنة الآثار العربية فمدت إليها يد الاصلاح وقامت بجمع المستندات التاريخية والأثرية لهذه القلعة مرجعها في ذلك الدراسات التي سبق وأن قام بها علماء الحملة الفرنسية على مصر والتي نشرت في كتاب « وصف مصر » كما اعتمدت أيضاً على الدراسات التي خلفها الرحالة كاسيوس ونشرها في كتاب صدر له في باريس عام ١٧٩٩ م .

ثم توقفت يد الاصلاح في هذه القلعة زهاء قرن من الزمان فوصلت إلى حال سيئة نتيجة تأثير العوامل الطبيعية وغيرها مما أدى إلى تآكل الأحجار الخارجية والداخلية في مبانيها وتهدم بعض أجزائها المطلة على البحر . إلى أن قامت هيئة الآثار المصرية منذ عامين وفي اطار سلسلة من المشاريع التي تقوم بتنفيذها لترميم وتطوير وتجميل المناطق الأثرية ، باعداد مشروع قامت بتنفيذه لترميم هذه القلعة الشهيرة التي وقفت شاهداً على صمود مدينة الاسكندرية في مواجهة أي اعتداء خارجي عليها وكانت بذلك خط الدفاع الأول البحري لحماية البلاد كلها .

العلم هو المستقبل

تقديم : لبنى الزيدي

الربوت «عامل النظافة»

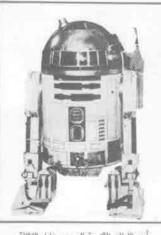
قد تصبح فرنسا أول بلد في العالم يستخدم الربوت في أعمال النظافة العامة فمن المعروف أن باريس تملك أكبر شبكة مترو أنفاق في العالم وتتكلف عملية تنظيفها حوالي مائتي مليون فرنك سنوياً .

ولذلك قررت الهيئة المشرفة على مترو أنفاق باريس استخدام ٥٠٠ ربوت ليحلوا محل ١٥٠٠ عامل نظافة خلال فترة لا تزيد عن عشر سنوات ومعنى ذلك أن الربوت سيخرج من المصانع والورش لينزل إلى الشارع ويعيش في وسط الناس وهو ما يتطلب منه أن يكون أكثر ادراكاً للبيئة التي يتحرك فيها وأن يكتسب قدراً أكبر من الاستقلال الذاتي .

ويجري الباحثون الفرنسيون تجاربهم وصولاً إلى جيل جديد من الربوت يستطيع التحرك بحرية واتخاذ القرارات المناسبة لكل موقف فضلاً عن تمتعه بحاسة الابصار واللمس مما يمكنه من الوقوف على الأشياء والتمييز بينها ، فسيتولى هذا الربوت اختيار خط سيره والتصرف بلباقة مع الجمهور بل وقد يضطر في بعض الأحيان إلى تغيير خطة عمله .

وإذا كان الباحثون لم يتفقوا بعد على شكل الربوت « عامل النظافة » ــ عدة نماذج مقترحة ــ فهناك إجماع على أنه سيزود بكاميرا تلفزيونية بدلاً من العينين وبهوائي خارجي للاتصال بمركز قيادته لاستقبال وإرسال الاشارات وبعدد من أجهزة الرصد بعضها يعمل بأشعة الليزر لتحديد المسافة بين الربوت والأجسام التي قد تعترض طريقه بسرعة مذهلة أما البعض الآخر فيعمل بالأشعة تحت الحمراء والموجات فوق الصوتية للتمييز بين الأجسام وتحديد موقعها . كما سيزود هذا الربوت بنظام الكتروني يمنعه من الاصطدام بالأجسام سواء الساكنة أو المتحركة .

أما ملايين الدوائر الالكترونية المتطورة التي ستقوم باستقبال ومعالجة كم المعلومات الهائل التي تجمعها حواسه أثناء عمله فستختفي وراء هيكل فولاذي صلب . كما سيزود بأقدام مفصلية لصعود ونزول الدرج .



أحد النماذج المقترحة للربوت « عامل النظافة »

أصغر نظام فيديو

يحافظ اليابانيون على تفوقهم في مجال التصوير بمختلف أنواعه الكيميائي منه والالكتروني فلقد انتجوا مؤخراً أصغر نظام فيديو متكامل . فهو يضم في قطعة واحدة الكاميرا وجهاز التشغيل ولا يزيد وزنه عن كيلو جرام واحد ، ويستخدم هذا النظام أشرطة فيديو ٨مم ويصل وزنه بعد إضافة البطاريات والشريط إلى ١٫٤كج .

وفضلاً عن صغر حجمه وخفة وزنه فهو يتميز بسهولة استعماله فلقد صمم بحيث يستطيع الهاوي استخدامه للحصول على أفضل النتائج فزودت العدسة بدوائر لضبط المسافات الطبيعية أو التركيز على الوجه . أما ضبط الاضاءة فيتم أتوماتيكياً ، وهناك طريقتان لضبط الاضاءة الأولى للضوء الطبيعي والثانية للضوء الصناعي .

وتعطي الكاميرا ساعتين من التسجيل فالشريط يتحرك بسرعة ١٫٤٣سم في الثانية كما تعمل البطاريات بشكل متواصل لمدة ثمانين دقيقة قبل أن تحتاج إلى إعادة شحن . وبعد الانتهاء من التصوير يمكن توصيل جهاز الفيديو مباشرة بجهاز التليفزيون لعرض الفيلم .



أصغر نظام فيديو (كاميرا وجهاز تشغيل) في العالم

معمل تحليل منزلي

تطورت تقنيات التحاليل الطبية في السنوات الأخيرة تطوراً كبيراً فأصبحت أقل تعقيداً وساعد على ذلك استخدام الأجهزة الالكترونية لتحديد نتائج الاختبارات بدقة متناهية .

ولعل الجديد في هذا المجال هو انتاج مجموعة من التحاليل والاختبارات لا تتطلب أي خبرة طبية بحيث يستطيع الشخص العادي حماية حالته الصحية وهو في منزله وتحديد نسبة الجلوكوز في دمه مثلا أو نسبة الكولسترول أو الصوديوم ... الخ

فالباحثون الألمان يقدمون لمرضى السكر جهازاً دقيقاً لقياس مستوى الجلوكوز في الدم إذ يقوم المريض بوضع نقطة دم على شريط بلاستيكي معالج كيمائياً وبعد دقيقة يدخل الشريط في الجهاز المبين بالصورة حيث يتم تحديد مستوى الجلوكوز في العينة بالتحليل الضوئي للتغيرات التي تطرأ على لون الشريط وتظهر النتيجة في شكل رقمي على شاشة صغيرة أعلى الجهاز .

أما بالنسبة لتحديد مستوى الكولسترول والبوتاسيوم والصوديوم في بلازما الدم ــ وهي من المكونات التي لها تأثير كبير على وظائف القلب والجهاز الدوري ــ فلقد ابتكرت احدى شركات التصوير الألمانية شريحة في حجم طابع البريد مغطاة بطبقة متناهية الدقة من المواد الكيمائية المستخدمة في الكشف عن التركيبات. ويتم إدخال هذه الشريحة بعد وضع عينة الدم عليها في جهاز تحليل الكتروني صغير الحجم وسهل التشغيل بحيث يعطي الجهاز نسبة الكولسترول والبوتاسيوم والصوديوم بسرعة ودقة كبيرتين .

الجهاز المنزلي لتحديد نسبة الجلوكوز في الدم .

شعاع الليزر وشعاع الماء

بدأ تيار الماء المضغوط ينافس شعاع الليزر في عمليات التقطيع الصناعي . فهو يندفع تحت ضغط ٤ آلاف بار من فتحة لا يزيد قطرها عن واحد على عشرة من الملليمتر وبسرعة ألف متر في الثانية أي ثلاثة أضعاف سرعة الصوت بحيث يكون هذا الشعاع المائي المندفع شديد التماسك وشبيهاً بشعاع ليزر سائل . (سرعة الصوت ٣٤٠ متر في الثانية) .

والمدهش أن الماء عند هذه السرعة لا يبلل المادة التي يقوم بتقطيعها . ويستخدم هذا الشعاع المائي في تقطيع أنواع مختلفة من المنتجات ابتداء من المعجنات والشكولاته إلى الصوف الزجاجي وقضبان الكربون والدوائر الالكترونية . وباضافة مواد كاشطة لتيار الماء المضغوط يصبح قادراً على تقطيع المعادن وهو مجال كان حكراً على أشعة الليزر . ومن ناحية أخرى يمكن تركيب شعاع الماء المضغوط في الذراع الآلية للربوت الصناعي مما يجعل هذه الأداة الجديدة أكثر فاعلية. ويتميز استخدام شعاع الماء بدلاً من شعاع الليزر مع الربوت بأن الأول لا يحتاج إلى تركيبات معقدة مثلما هو الحال مع شعاع الليزر إذ يكفي توصيل الأنبوب المندفع منه تيار الماء في طرف يد الذراع الآلي .

ولقد بدأت بالفعل بعض المصانع الأمريكية والفرنسية في استخدام شعاع الماء في تقطيع مكونات هياكل السيارات وألواح التيتان المستخدمة في صناعة الطائرات وقضبان الفولاذ .



شعاع الماء بدلاً من شعاع الليزر في تقطيع الدوائر الالكترونية



شعاع الماء والذراع الآلي للربوت يقوم بتقطيع نعال جلدية للأحذية



عام التحول في السينما المصرية

الجمهور يُضرِبُ عن مشاهدة الأفلام الرديئة و المخرجون الكبار يعودون إلى الشاشة بأفكار جريئة

مع نهاية عام ٨٥ .. تغلق السينما المصرية صفحة من تاريخها ، شهدت تحولاً خطيراً في مسارها .. في ذلك العام .. أعلن الجمهور رفضه للأفلام التافهة .. وجاء هذا الاعلان بطريقة عملية ، انعكست في الانخفاض الهائل بإيرادات تلك الأفلام .. وانسحبت الأفلام من السوق بعد أسبوعين فقط من عرضها الأول .. الشئ الذي لم يحدث منذ سنوات !!

بقلم : رؤوف توفيق

حدث ارتباك في دور العرض بالقاهرة .. ولأول مرة تغلق أبواب خمس دور عرض درجة أولى ، خلال شهر واحد ، وبحجة الاصلاحات والتحسينات .. وتضطر بعض دور العرض الأخرى ، أن تعيد تقديم أفلام قديمة !

ورغم كل البوادر ، التي كانت تشير إلى هذا التحول من الجمهور .. إلا أن الكثيرين من صناع السينما المصرية لم يتوقعوا أن يتم هذا التحول بتلك الطريقة الحاسمة ، والتي كلفتهم اجهاض أحلامهم بالثراء السريع !

غياب التخطيط العلمى

وأي صناعة في العالم ، لابد أن تعتمد على دراسات السوق ، واحتياجات المستهلكين ، ومؤشرات المستقبل إلا صناعة السينما في مصر .. فهي تعتمد على الاجتهادات الشخصية ! فليست هناك احصائيات دقيقة عن عدد المشاهدين ، ومتوسط أعمارهم ، وتوزيعهم الجغرافي على خريطة مصر .. وليست هناك معلومات جدية عن أذواق جمهور السينما ، وأي الأفلام يفضلها : كوميدية ـ اجتماعية ـ بوليسية .. الخ .. ومن هم النجوم الذين يسعون لمشاهدة أفلامهم ..

وباختصار .. ليس هناك أساس علمي يتحرك من خلاله رجال صناعة السينما في مصر ..

من هنا تصبح مسألة استقراء الواقع وتخطيط المستقبل .. مسألة شخصية تماماً .. يقوم بها المنتجون حسب قدرة كل منهم على فهم السوق !

ومع دخول عدد كبير من أصحاب رءوس الأموال إلى صناعة السينما ـ بهدف استثمار نقودهم وبعائد سريع ومجز ـ تحولت مهنة

سعاد حسني .. في دور فتاة خرساء في فيلم « عصفور من الشرق »



توفيق الحكيم يظهر بشخصيته الحقيقية في فيلم « عصفور من الشرق » يحاور بأسلوبه الساحر الممتع « نور الشريف » الذي يريد أن يعيد تجربة الحكيم في باريس وفي الريف المصري .

الانتاج السينمائي في مصر .. إلى مهنة بلا ضابط أو رابط ، وشهدت صناعة السينما في مصر خلال السنوات العشر الأخيرة .. نماذج غريبة من المنتجين ، أقحموا أنفسهم في لعبة الأفلام ، دون أن تكون لديهم أية فكرة عن السينما .. سوى أنها مجرد أضواء ومكاسب ! !

وعجزت غرفة صناعة السينما في مصر ، عن تحديد مواصفات المنتج السينمائي الذي يحق له العمل في هذه الصناعة .. وما زالت الغرفة ـ حتى كتابة هذه السطور ـ تؤجل الفصل في هذا الموضوع !

عـام التحـول في السينما المصرية



فريد شوقي ومديحة كامل في لقطة من فيلم «ملف في الآداب» إخراج عاطف الطيب

التجـارة الفاسـدة

وكان من نتيجة هذا الوضع المتردي .. أن امتلأت الساحة السينمائية في مصر .. بكثير من المغامرين والمضاربين ، ولأن رأس المال جبان .. فقد راهن أغلب المستثمرين الجدد على الجواد الرابح .. وهو الفيلم الكوميدي !..

والحجة التي كانت قائمة في ساحة الرهان .. أن المتفرج المصري يعاني من ضغوط كثيرة في حياته اليومية ، ولهذا فهو يذهب للسينما لكي يضحك ويتسلى وينسى همومه !

وانهمرت مجموعة هائلة من الأفلام التي توحي بأنها كوميدية .. ولكنها لم تكن تحمل من صفات الكوميديا سوى الاسم فقط وبدأ الجمهور يكتشف هذه الخدعة .. وأنه يذهب للسينما ولا يضحك ولا يتسلى .. بل تزداد حسرته على ضياع نقوده !! التي دفعها ثمناً للتذاكر.

وأسرع بعض المنتجين بتغيير اتجاههم .. فقد اكتشفوا جوادا جديداً يربح .. وهو الأفلام التي تنتقد سياسة الانفتاح الاقتصادي وما سببته من تأثيرات على المجتمع المصري ..

ولقد نجحت بعض الأفلام التي ناقشت هذا الموضوع .. وحصلت على تقدير المثقفين والنقاد .. وأرضت في نفس الوقت نفسية المتفرجين .. فما كان من هؤلاء المنتجين ، إلا أن تشعلقوا بهذا الخيط .. وانهمرت مجموعة من الأفلام تعرض لحكايات من الفساد ، والتهريب ، والثراء غير المشروع .. الحلال والحرام .. والشرفاء والنصابين.

وتاجرت تلك الأفلام بالقضية الاقتصادية التي هزت المجتمع المصري .. حتى أصبحت تلك الأفلام جزءا من التجارة الفاسدة !!

واكتشف الجمهور مرة أخرى هذه الخدعة ..

وقرر إعلان احتجاجه .. ومقاطعة تلك السينما ، وبدأت المؤشرات تؤكد انخفاض ايرادات جميع الأفلام .. حتى الأفلام الجيدة !

وكأن سوء الظن بالأفلام .. أفقد الشهية للتردد على دور السينما !

مواصلة الرهان الخاسر

ولأنه ليس هناك منهج علمي لدراسة السوق .. فقد بدأ المنتجون يفسرون ظاهرة انخفاض ايرادات أفلامهم .. كل بطريقته !

البعض اعتبرها حالة طارئة .. والبعض ألبسها الظروف الاقتصادية القائمة .. والبعض برزها بانتشار الفيديو الذي وصل للقرى والمقاهي الصغيرة .. والبعض قال انه مجرد سوء حظ !!

ولكن قليلاً جداً منهم ، من اعترف برداءة الفيلم الذي يقدمونه .. والدليل الذي يجعلهم يستبعدون هذا السبب .. أن الأفلام كلها هبطت إيراداتها .. الجيد والرديء !

وأمام الحلم بانتعاش السوق .. واصل هؤلاء التجار مراهناتهم على الجواد الذي لا يخيب على مر العصور .. جواد الكوميديا !

وإذا كان عادل امام ، قد رفع أجره إلى رقم لم تعرفه السينما المصرية من قبل .. فهناك نجوم كوميديا آخرون من الممكن أن يتحملوا مسئولية فيلم ، وبأجور أقل !

وهكذا صنعوا مجموعة من الأفلام قليلة التكاليف ، ولم ينشغلوا كثيراً أو قليلاً بالموضوع الذي يقدمونه .. وانما كان الهدف هو حشد مجموعة من ممثلي الكوميديا ، وتركهم أمام الكاميرات ليخترعوا الحوار والقفشات الضاحكة التي اشتهروا بها .

ولم يكن هذا في صالح ممثلي الكوميديا .. وبالطبع لم يكن في صالح الأفلام نفسها .. وسقطت تلك الأفلام .. صحيح أن أصحابها لم يخسروا كثيراً ، بل ان بعضهم جنى بعض الأرباح ! لكن الخسارة الحقيقية كانت من رحيل ثقة الجمهور في هؤلاء الممثلين .. والأهم هو اهتزاز الثقة بالفيلم الكوميدي ...

في بداية عام ٨٥ عرضت دور العرض بالقاهرة فيلم التريللا (سمير غانم) ــ فيلم مغاوري في الكلية (يونس شلبي) ــ فيلم الرجل الذي عطس (سمير غانم) ــ فيلم محطة الأنس (مجموعة من ممثلي الكوميديا) ــ فيلم هنا القاهرة (محمد صبحي)

وتراوحت مدة العرض من ثلاثة إلى خمسة أسابيع .

ولكن في الثلث الأخير من عام ٨٥ ــ عرض فيلم المجنونة (اسعاد يونس) ولم يستمر أكثر من أسبوعين فقط ، رغم أن هذا الفيلم قد يكون من أفضل أفلام تلك النوعية .. إلا أن رد فعل الجمهور كان حاسماً !

وقد سجلت أعلى الأفلام ايرادات ، تلك التي استمر عرضها من ١٢ إلى ١٥ أسبوعاً .. بينما كانت بعض الأفلام في العام السابق تزيد مدة عرضها عن العشرين أسبوعاً ..

ولأول مرة أغلقت خمس دور عرض درجة أولى أبوابها في القاهرة خلال شهر واحد هو شهر رمضان هذا العام .. برغم أن المعروف أن سهرات ليالي رمضان في القاهرة من بينها الذهاب إلى دور السينما .. ولكن يبدو أن الجمهور فضل الجلوس أمام التليفزيون .. فهذا أضمن وأوفر وأقل مشقة ! ونتيجة للانسحاب السريع والمفاجئ لكثير من الأفلام بعد أسبوعين أو ثلاثة من عرضها .. حدث ارتباك في جداول دور العرض .. مما اضطرها إلى اعادة عرض أفلام قديمة سبق عرضها من قبل مثل أفلام حمام الملاطيلي ــ أنف وثلاث عيون ــ أبي فوق الشجرة ــ المذنبون ..

وارتفعت كثير من الأصوات داخل صناعة السينما المصرية تعلن حالة الطوارئ .. وقال البعض ان السينما لم تعد مجالاً جيداً للاستثمار .. وانسحبت بعض رؤوس الأموال المغامرة ، وفي الحقيقة كان هذا في صالح السينما المصرية .. ولم يكن ما حدث سوى أزمة الخروج من طور إلى طور

عودة المخرجين الأربعة الكبار

فبينما كانت أصوات التجار المغامرين تندب خيبة أملها .. كانت استوديوهات السينما المصرية ومعاملها تشهد أكبر تجمع من السينمائيين المخلصين لرسالتهم، يعملون في اصرار وتحد، لاسترداد الجمهور المفقود. والسمعة الملطخة بآثام المغامرين!

ولأول مرة منذ سنوات طويلة .. يستعد المخرجون الأربعة الكبار في السينما المصرية لتقديم أفلامهم الجديدة ..

• المخرج صلاح أبو سيف .. يعود إلى العمل بعد انقطاع طويل ومنذ اخرج فيلم « القادسية » للسينما العراقية .. بدأ أخيراً يقف وراء الكاميرات في صحراء سقارة ليصور فيلمه الجديد « البداية » الذي اشترك في كتابة السيناريو له مع لينين الرملي ليحكي عن العلاقات الانسانية في لحظة مواجهة الخطر والمصير المجهول.

• والمخرج كمال الشيخ .. استقر أخيراً على الصورة النهائية لفيلم « قاهر الزمن » الذي يخطو به إلى مجال الخيال العلمي لأول مرة في السينما المصرية .. وقد ظل كمال الشيخ متردداً ازاء هذه التجربة لمدة تزيد عن ثلاث سنوات .. وكانت أكثر مخاوفه تتعلق بالجمهور وكيفية استقباله لهذه النوعية من الأفلام. ولكنه اكتشف كما قال لي، أن جمهور الفيديو في المنازل: من الممكن أن يساند هذه التجربة بالاضافة إلى جمهور المتعلمين الذين ما زالوا مرتبطين بعادة الذهاب إلى السينما .. وعلى هذا بدأ العمل في تصوير الفيلم لكي يكون جاهزاً للعرض في عام ٨٦.

• والمخرج توفيق صالح .. بعد أن عاد إلى مصر منذ أكثر من عام .. ظل يبحث عن الموضوع الذي يقدمه لجمهوره .. ويلتقي بالكتاب والفنانين في محاولة لتقديم فيلم يليق باسمه وتاريخه. ويليق بعودته .. وكان دائماً يصطدم بالمتغيرات الهائلة التي حدثت في صناعة السينما المصرية ومن نوعية الجمهور .. ولكن اصراره كان أقوى من الاستسلام. تحمس لرواية « قرية ظالمة » للدكتور محمد حسين هيكل ثم ظهرت مشكلة ارتفاع ميزانية الفيلم وصعوبة تمويله .. فقرر تأجيل هذا المشروع مؤقتاً .. وواصل البحث عن موضوع آخر .. حتى نشر نجيب محفوظ روايته الجديدة « يوم مقتل الزعيم » فعاد إليه حماسه واتفق مع (صلاح جاهين) على إعدادها سينمائياً .. ليبدأ تصويرها في عام ٨٦.

• والمخرج يوسف شاهين .. بعد خطوته للسينما العالمية بفيلم .. وداعاً بونابرت .. بدأ يستعد لفيلمه الجديد « اليوم السابع » ليصوره بين القاهرة وباريس.

جيل الشباب .. يتقدم.

وفي نفس الوقت الذي يعود فيه المخرجون الأربعة الكبار للعمل في وقت واحد .. يعود أيضاً مخرجون من جيل الشباب الذين حاولوا أن يغيروا وجه السينما المصرية:

• المخرج علي بدرخان .. بعد توقف طويل منذ فيلم « أهل القمة » ــ عام ٨١ ــ يعود للعمل من خلال قصة « سارق النعمة » لنجيب محفوظ .. وقد اختار لها عنوان سينمائياً « المواجهة » ليلعب بطولته أحمد زكي أمام سعاد حسني ويسرا ..

• والمخرج خيري بشارة .. انتهى من تصوير فيلمه الثاني « الطوق والاسورة » الذي يعود به للسينما بعد توقف ثلاث سنوات منذ قدم أول أفلامه الروائية الطويلة « العوامة ٧٠ » وكان فيلماً مشرفاً. أعلن بوضوح عن فكر سينمائي ومتطور. هاهو ينتقل بأفراد فيلمه الجديد إلى الأقصر ليجسد رواية الأديب « يحيي الطاهر عبدالله » ومن خلال ممثليه عزت العلايلي وفردوس عبدالحميد وشيرين ..

• والمخرج رأفت الميهي .. انتهى من اعداد فيلمه الجديد « للحب قصة أخيرة » ليناقش من خلاله العلم والشعوذة .. موضوع جرئ يواصل به رحلته السينمائية بعد الضجة الهائلة التي أحدثها فيلمه السابق « الأفوكاتو ».

• والمخرج محمد راضي .. يعود للسينما عام ٨٦ ليعرض فيلمه « الناس والجن » بطولة عادل امام ويسرا .. ويناقش فيه أيضاً مسألة الخرافات .. بعد أن قدم في آخر أفلامه « أمهات في المنفى » عام ــ ٨١ ــ شريحة للمتغيرات الاجتماعية نتيجة سياسة الانفتاح الاقتصادي ..

• والمخرج علي عبدالخالق .. يواصل خطه البياني المتصاعد .. فبعد آخر أفلامه « الكيف »



نور الشريف في دور « عصفور » الرجل الغامض في رواية نائب في الأرياف



ممدوح عبد العليم في أنجح ظهور سينمائي له في فيلم « مشوار عمر » حيث يلعب دور عامل بسيط

عام التحول في السينما المصرية

أول تجربة من نوعها للمشاركة بفنيين من السينما المصرية لتقديم الفيلم السينمائي الأول لجمهورية « مالديف » الاسلامية .. والفيلم بعنوان « يوسف وزينب » الذي يلعب بطولته فاروق الفيشاوي مع عدد من الممثلين المالديفيين ، الذين يواجهون كاميرات السينما لأول مرة .

• والمخرج عاطف الطيب .. الذي يفاجئنا دائماً بهذا التدفق الفني المتجدد .. فبعد رائعته « سواق الاتوبيس » ثم « الحب فوق هضبة الهرم » يقدم فيلم « الزمار » قصيدة سينمائية عن الباحثين عن الحق والعدل .. كتب مفرداتها اللغوية في حوار عذب الشاعر الراحل عبدالرحيم منصور .. وكان أول وآخر فيلم يكتبه .. ولعب بطولته نور الشريف ومحسنة توفيق وصلاح السعدني .

ثم يقدم المخرج عاطف الطيب فيلمه الثاني « البريء » من تأليف وحيد حامد .. ليعرض لمأساة القهر السياسي من خلال المعتقلات التي تمتلئ بأصحاب الرأي المعارض ، ومن وجهة نظر جندي حراسة ، شاب ريفي نقي إلى أقصى حد مخلص في عمله لأقصى حد .. أفهمه رؤساؤه : أن هؤلاء المعتقلين هم أعداء الوطن .. فتعامل معهم على هذا الأساس ، حتى اكتشف ذات يوم أن من بين المعتقلين الجدد ، أحد أبناء قريته ، شاب جامعي يعرفه تماماً ، ويحترمه جداً ، ويعتبره أوفى أصدقائه ومثله الأعلى .. فكيف يكون هذا الشاب



نبيلة عبيد وأحمد زكي في فيلم « شادر السمك » للمخرج علي عبد الخالق الذي يحلل من خلاله عملية صعود أحد التجار الصغار ليصبح صاحب الصوت المسموع في سوق السمك



فاروق الفيشاوي .. داخل بيت حقيقي في إحدى جزر « الماليف » ومن حوله ممثلون يقفون لأول مرة أمام كاميرات السينما .. في إحدى لقطات فيلم « يوسف وزينب »

والذي ما زالت أصداؤه مستمرة حتى الآن ، محققاً أرقاماً قياسية في الايرادات .. يقدم في أوائل عام ٨٦ فيلمه الجديد « شادر السمك » بطولة أحمد زكي ونبيلة عبيد ليحكي من خلاله مايدور في كواليس السوق وكيف يتحكم التجار في الأسعار وفي مصير صغار البائعين ..

• والمخرج محمد خان .. يدخل مرحلة جديدة من مراحل نضجه السينمائي ليقدم في عام ٨٦ ثلاثة أفلام انتهى من تصويرها ..

فيلم « مشوار عمر » ويعرض نموذجاً لشاب من الطبقة الجديدة التي ظهرت في مصر .. حيث الثراء بلامجهود ، والرغبة الجامحة في الاستمتاع بكل لحظة وأحداث الفيلم كله تدور في الطرق التي تربط القاهرة بالدلتا ، ثم بالبحر الأحمر .. عبر سيارة فارهة ، وسيارة أخرى للنقل .. ويقوم ببطولة الفيلم فاروق الفيشاوي ومديحة كامل وممدوح عبدالحليم .

وفيلم « عودة مواطن » الذي يدخل به الفنان يحيى الفخراني تجربة الانتاج الأولى له .. حيث يلعب الأخ الكبير الذي سافر للعمل في احدى الدول العربية ثم عاد إلى أسرته المكونة من أخوته .. فوجد كلاً منهم قد اختار طريقاً ولم يعد يجمعهم غير البيت القديم .. وقصة ذلك الفيلم كتبها الفنان المتميز « عاصم توفيق » صاحب التجربة السابقة مع محمد خان في فيلم « خرج ولم يعد » .

أما الفيلم الثالث للمخرج محمد خان .. فهو

من أعداء الوطن !؟؟ ويدافع عنه .. ويعصي لأول مرة أوامر رؤسائه .. وينال عقابه .. وتتفتح بصيرته ليدرك مدى الخدعة التي تورط فيها ، طوال الفترة الماضية ..

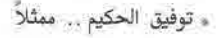
إن « أعداء الوطن » هؤلاء ما هم إلا زملاء وإخوة وأبناء للأرض التي ننتمي إليها .. ويعلن تمرده وغضبه على الذين استغلوا براءته ونقاءه .

أحد أجمل الأفلام التي قدمتها السينما المصرية خلال السنوات الأخيرة .. ومن المتوقع أن يكون هذا الفيلم « البريء » من أهم أفلام عام ٨٦ ..

وبنفس التدفق الفني .. ينهي المخرج عاطف الطيب فيلمه التالي « ملف في الآداب » .. ويبدأ في تصوير « أبناء وقتلة » ليحكي ما حدث لأسرة مصرية منذ عام ٥٦ ، بداية تأميم قناة السويس ، وحتى عام ٨٥ ..



محسن محيي الدين في فيلم « وداعا بونابرت » للمخرج يوسف شاهين



« توفيق الحكيم .. ممثلاً

ومن التجارب الفنية الجديدة التي تشهدها السينما المصرية عام ٨٦ .. أول فيلم يخرجه كاتب السيناريو (بشير الديك) في محاولة للتعبير عن أفكاره بالقلم والكاميرا معاً .. والفيلم بعنوان « الطوفان » ويلعب بطولته محمود عبدالعزيز وفاروق الفيشاوي ..

« ويعود الفنان التشكيلي يوسف فرنسيس إلى الاخراج السينمائي بعد فيلم المدمن .. ليقدم مغامرة جريئة في فيلم « عصفور من الشرق » متصوراً أن الكاتب توفيق الحكيم يعود إلى باريس بعد خمسين عاماً من زيارته الأولى لها .. ويقارن ما يراه الآن بما كانت عليه الصورة زمان .. ويلتقي بشاب ، « نور الشريف » ، القارئ العاشق لكل ما يكتبه توفيق الحكيم .. والذي يقرر أن يعيد تجربة الحكيم كما كتبها في رواية عصفور من الشرق .. وروايته « يوميات نائب في الأرياف » .

تجربة سينمائية جريئة .. يشارك توفيق الحكيم شخصياً في التمثيل بالفيلم .. ويلعب نور الشريف دورين مختلفين تماماً .. دور توفيق الحكيم في شبابه ، ودور « عصفور » الرجل الغامض في رواية « نائب في الأرياف » .. وتلعب سعاد حسني دور « ريم » دون أن تنطق بحرف واحد .. معتمدة على التعبير بوجهها فقط .

هذه بعض ملامح السينما المصرية في عام ٨٦ .. ولا شك أن الصورة مختلفة تماماً عن الأعوام السابقة .. وهذا يؤكد حقيقة قديمة ومتجددة دائماً .. أن الفنان يعطي أفضل ما عنده .. إذا شعر أن المناخ العام من حوله يحترم العمل الجيد ، ويقدره .

وشكراً للجمهور الذي أضرب عن مشاهدة الأفلام الرديئة .. فهذا الاضراب الذي تصور تجار الفن أنه أزمة .. لم يكن في الحقيقة إلا اعلاناً بميلاد جديد للذوق العام ، وللفكر والفن ..

رؤوف توفيق

أحمد زكى فى فيلم « البرىء » يلعب أهم أدواره السينمائية مجسداً شخصية الفلاح البسيط ، النقي ،

يقدمها: طلعت الشايب

كاتبة أفريقية
كان نكروما حبها الأول

آما آتا آيدوو Ama Ata Aidoo كاتبة من غانا وواحدة من أشهر أدباء إفريقيا نشرت أول أعمالها سنة ١٩٦٥ وهي مسرحية بعنوان « ورطة شبح » أما أعمالها التي تلت ذلك فتشمل مسرحية أخرى بعنوان « أنووا » ومجموعة قصصية بعنوان « لا توجد حلاوة هنا » ـ صدرا في ١٩٧٠ .

أول رواية لها « شقيقتنا كليجوي » وصدرت في ١٩٧٧ كما أصدرت مجموعة شعرية بعنوان « شخص ما يتحدث لوقت ما » في يوليو الماضي .

عينت آما آتا وزيرة للتربية في غانا ولكنها لم تستمر في المنصب طويلاً وتعيش الآن في زيمبابوي .

في عدد اكتوبر ٨٥ من مجلة الجنوب South التي تعنى بشئون العالم الثالث كان معها لقاء تحدثت فيه عن إفريقيا وعن الأدب وعن نفسها وهذه مقتطفات مما جاء به :

• كان عمري خمس عشرة عندما اتخذت قراري وحددت طريقي . أذكر أنني قلت مرة لمدرستي إنني أريد أن أكون شاعرة .. شاعرة وليست كاتبة .. الكتابة عمل منفرد مثل العزف المنفرد .. اهتمام شخصي،كما هي هم شخصي في ذات الوقت .. وكما تستهلك الوقت تستهلك الكاتب . وإصراري على الكتابة ترك بلا شك ظلالاً سيئة على حياتي الشخصية كامرأة .

• ليس من السهل أن تكون كاتباً إفريقياً ... فما بالك إذا كنت كاتبة ؟ المتاعب ستكون مضاعفة أو مزدوجة كما يقولون في غانا .. كل الأدب المعاصر والنقد موجه تقريباً إلى الرجل ..

منذ فترة ليست بالبعيدة زار أستاذ ألماني المكان هنا وألقى محاضرة طويلة عن الكتابة الإفريقية .. لمدة ساعتين تقريباً لم يذكر اسم كاتبة واحدة .. وعندما سئل اعتذر ببساطة قائلاً : آسف .. ولكن ذلك كان أمراً طبيعياً .. !

• معظمنا ـ كتاب إفريقيا ـ نكتب بلغات لا تصل إلى شعوبنا . التاريخ نفسه جعل من المستحيل أن يكون الفنان أو المبدع محبوباً من أبناء مجتمعه . إذا كنت تكتب بالإنجليزية في غانا أو نيجيريا أو زيمبابوي بينما ٧٠ ٪ من المواطنين لا يفهمونها .. فكيف يحبونك ؟ إنهم لا يعرفون شيئاً عنك .. والعلاقة بين القلة التي تفهم اللغة التي تكتب بها وبينك هي علاقة « الاحترام ـ الخوف » الصلة بمن يسمع عنك موجودة فقط في صالات الدرس حيث أنت مجرد نص في كتاب ..

الكاتبة الافريقية اما آتا آيدوو

إنهم حتى لا يختارون أعمالك عن قصد ..

• نعم .. هناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم أدب العالم الثالث .. إنه يتناول الثقة المفقودة .. الفقر .. يعكس البيئة وحياة الناس وطموحاتهم .. رواية من غانا بالقطع سوف تكون أقرب إلى رواية صادرة في سيرلانكا منها إلى رواية من إنجلترا وإذا كانت مجتمعاتنا لا تزال ترزح تحت نير الإحساس بالظلم الناتج عن علاقات مع الغرب تمتد بعمق السنوات الخمسمائة الأخيرة .. فكيف يستطيع الكاتب أن ينتزع نفسه من هذه الدوامة ؟

على أية حال لا يجب أن تكون أعمالنا مجرد انعكاس لبؤس بلادنا لأن جزءاً من العبء الذي يحمله الكاتب هو كفاحه ليخلق من وسط ركام الفوضى التي يعيشها أشياء ذات معنى .. وأن يجعل الأشياء أكثر بهجة .

• ليس لدينا حتى الآن تقاليد نقدية أو معايير نقدية إفريقية خاصة بنا قائمة على أخلاقيات نابعة من بيئتنا .. الآن الموجود جماعة قليلة من المتأفرقين الغربيين يصدرون أحكاماً على هيئة مراسيم عن الأدب الافريقي ويعلنون ربما من تكساس أو لندن تصنيفاتهم لأعمالنا .. « هذا جيد . وهذا رديء » .

في الموسيقى،هناك صوت للموسيقار الافريقي .. أما في الأدب فلم يحدث نفس الشيء .

أما عن أسباب عزلة الكاتب الافريقي فأهمها فقدان الاتصال المباشر بالناس .. والسؤال المطروح الآن هو : هل نتوقف عن الكتابة لأننا لا نستخدم اللغات المحلية ونكتب باللغات الأوروبية؟

منا من لا يملك لغة إفريقية بحكم المولد والنشأة والتاريخ . فهل يتوقف عن الكتابة أيضاً ؟

أنا اعتقد أن الكتابة بأية لغة أفضل من عدم الكتابة على الإطلاق ... كما أن على المسلحين بلغة إفريقية الكتابة بها .

• أنا واحدة من الناس ولدت على وعي سياسي .. كان والدي سياسياً .. أذكر أن عمري كان عشر سنوات عندما شاهدت كوامي نكروما لأول مرة ... بعد عشر سنوات أخرى كنت أراه كثيراً وأسمعه أكثر .. وكان قد أصبح قائداً وطنياً ..

لا أعتذر عن قول أنه كان بالنسبة لي مثل الحب الأول .. كان بطل زمانه الذي نسجت حوله الجماهير الحكايا الأسطورية حتى قبل الاستقلال . أبرز سماته كانت رؤيته إلى خارج حدود غانــا .وحتى يومنا هذا لا أستطيع أن أفاضل بين شخصية نكروما السياسي الطموح الذي حاول أن يكون قائداً في إفريقيا وبين شخصية نكروما الحالم الذي كان كله إصرار على أنه بدون إفريقيا موحدة فإننا محكوم علينا بالفناء كشعب ..

كل ما كان يقوله كان يبدو وكأنه حتمية تاريخية .. والآن بدأ الناس يعودون إلى أحلام نكروما،فعلى وجه التحديد منذ ١٩٦٦ لم تستطع إفريقيا أن تجد طريقاً آخر .. ونظرة واحدة إلى القارة وإلى قياداتها الحالية تريك أنهم ليسوا قادرين على تجاوز حدود « اقطاعياتهم » .

• لم أستمر في الحكومة لمدة طويلة ـ ١٨ شهرا فقط ـ عانيت من اشكالية كوني كاتبة ووزيرة في نفس الوقت .الذي أعرفه هو أنني عندما كنت وزيرة لم أتمكن من الكتابة .. كان كل جهدي موجهاً من أجل العمل ولم أشبع ظمئي إلى الكتابة .

هل يمكن أن يكون الانسان مبدعاً منتجاً وفي نفس الوقت يمتلك الطاقة العملية المطلوبة للتعامل مع قضايا سياسية ساخنة بالطريقة الصحيحة ؟

بالتأكيد لم أكن الأولى التي تتعرض لهذه التجربة .. كان هناك سنجور... وأوجستينو نيتو... كان شاعراً أيضاً ..

إن رؤية الفنان للمجتمع وللحياة ممتدة .. جذورها تضرب في المستقبل .. وأنا مستقبلية إلى درجة كبيرة .. ولكنك في المنصب الرسمي تجد نفسك مطالباً بأن تتعامل مع اليوم الذي أنت فيه .. وإن كان ليس بالضرورة أن يتعثر كل كاتب أو فنان في موقع السلطة في هذه الاشكالية .... لقد بدأت أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الاشكالية لم تكن سواي أنا ! .. « آما آتا آيدوو » .

الجينز والديسكو والأفلام الأمريكية في بكين



رقص الديسكو الذي كان يعتبر شيئاً كريهاً ومبتذلاً منذ عامين فقط في الصين أصبح شيئاً مألوفاً ولم يعد انتشاره مقصوراً على أوساط الشباب بل جذب العديد من أبناء الجيل القديم الذين يعتبرونه أسلوب ترويح عن النفس ووسيلة للاحتفاظ بلياقتهم البدنية أيضاً.

وليس رقص الديسكو سوى نموذج للثقافة الغربية التي وجدت طريقها إلى الصين منذ فتحت أبوابها للعالم الخارجي في أواخر السبعينات.. حيث يمكنك الآن الاستماع إلى أشهر عشر أغنيات أمريكية مذاعة من راديو بكين كما تستطيع أن تشاهد أفلاماً غربية مثل «كرامر ضد كرامر»، «على البحيرة الذهبية»، «ذئب البحر» أو تراقب شرلوك هولمز وهو يحل ألغاز قضية تلو الأخرى على شاشة التلفزيون: في الشوارع أيضاً تستطيع مشاهدة الجينز والملابس الغربية على أجسام الناس مما يعطيك صورة تتعارض تماماً مع الصورة القديمة المألوفة وموجة «الكل أزرق» التي ظلت سائدة في الصين لسنوات طويلة.

في العاصمة بكين وحدها ثلث المحلات الخاصة بالأزياء أصبحت تتفنن في انتاج الجينز وتقلد موديلات هونج كونج والولايات المتحدة.. قرية واحدة اسمها «هوانج زيك» في ولاية «زهي شانج» استطاع صانعو الجينز فيها تكوين ثروة من انتاج وبيع الجينز إذ يكفي أن تعرف أن هذه القرية أنتجت ٢،٤ مليون بنطلون في عام ١٩٨٤ فقط.

ويقول المراقبون إن جميع مظاهر الثقافة الغربية سواء الديسكو أو الأزياء ستبقى عرضة للرقابة الحكومية الصينية وسوف يتوقف استمرارها على مدى النجاح الذي تحققه في ملاءمة الذوق الصيني وخدمة أهداف المجتمع.

وعندما زارت فرقة الرقص الإنجليزية Wham بكين وجوانج زهو في العام الماضي سرعان ما نفدت التذاكر من الأسواق وامتلأت صالات العرض بالمشاهدين ولكن معظمهم كما قالوا بعد ذلك أصيبوا بخيبة الأمل أو كانوا على الأقل في حيرة شديدة ربما لتعارض الأوركسترا مع أذواقهم أو مقاييسهم الفنية. وأياً كان الأمر فقد نسيت الفرقة وضاع أثرها تماماً ولم يعد يذكرها أحد إلا في مجال نقد «الاستيراد الأحمق للثقافةالغربية غير المقبولة».

ورغم أن الاحتكاك الصيني الغربي بدأ منذ عدة قرون من خلال تجارة البحر وعن طريق «خط الحرير» الشهير الذي كان يبحر فيه «ماركو بولو» فإن النظرة دائماً إلى الغرب من قبل الصينيين كانت ترى أنه أقل شأناً رغم المعلومات القليلة عنه. هذه النظرة من قبل أمة ظلت تعتبر نفسها طيلة ثلاثة آلاف سنة مركزاً للحضارة..

ولكن بدء تدفق البضائع الغربية والثقافة معها بالطبع جاء في منتصف القرن التاسع عشر عندما ضربت سفن الغرب بمدافعها أبواب الصين لتفتحها على مصاريعها، كذلك اهتزت الثقة الشديدة بالنفس نتيجة حرب الأفيون وإبرام المعاهدات غير المتكافئة فأدى الخوف من «اليانج دارن» أو السادة الأجانب، والذعر من تكنولوجيا هؤلاء الأجانب وثقافتهم بالصين إلى التعلم من «البرابرة»..

وأثناء عملية النقل والتعلم من الغرب انتهج الصينيون أسلوباً عملياً لهضم واستيعاب كل ما هو مفيد لهم وصرف النظر عن كل ما عدا ذلك. هذا الأسلوب هو تماماً ما لخصته فيما بعد عبارة ماوتسي تونج الشهيرة: «فلتكن كل الأشياء الأجنبية في خدمة الصين»..

ومنذ عام ١٩٤٩ أصبحت الصين معزولة عن الغرب بسبب الحصار المضروب حولها من الولايات المتحدة والدول الغربية، ثم في الستينات أصبحت معزولة أيضاً عن الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الشرقي: هذه العزلة التي أدت إلى نقص المعرفة بالتطورات الحديثة وما يدور في العالم الخارجي. ولم ينكسر طوق هذه العزلة إلا في أواخر السبعينات حين بدأت الصين تعكف على التحديث وفتحت أبوابها أمام التقدم التقني القادم من الغرب؛ ومعه الأفلام والأدب والموسيقى والفنون والأزياء... حتى مودات تصفيف الشعر بهرت الصينيين وأشعلت فضولهم. وتفتحت شهية المواطن الصيني لنماذج الثقافة القادمة من خارج الحدود ولم يكن غريباً أن يكتب أحد سائقي الحافلات في بكين إلى رئيس مكتب الثقافة التابع لبلدية المدينة يطلب المزيد من الثقافة الأجنبية فيقول:

«لقد عشنا في صحراء ثقافية من سنة ١٩٦٦ إلى سنة ١٩٧٦. ونحن لكي نبني بلدنا يجب أن نتعرف على جميع أنواع الثقافات التي طورتها البشرية». ولفترة ليست بالقصيرة ظل الحماس والتوق للثقافة الأجنبية ينمو لدرجة أن البعض أصبح يعتقد أن كل ما هو قادم من الغرب جدير بالنقل والتعلم ولكن الكثيرين انتقدوا هذا الاتجاه واعتبروه مجرد «عبادة عمياء لكل ما هو أجنبي»..

وسرعان ما ظهرت الآثار السلبية للانفتاح غير المنضبط... في الفترة ما بين عامي ١٩٨٠، ١٩٨٣ ارتفع معدل الجريمة (رغم أنه ظل أقل بكثير مما هو عليه في الغرب) وبدأت تجارة الصور العارية وكتب الجنس في الانتشار وانزعجت الحكومة وانزعج الشعب فقامت الدولة بحملة واسعة في عام ١٩٨٣ للتصدي لكل مظاهر «التلوث الأخلاقي» وأنزلت بالمخالفين عقوبات صارمة حيث حكم على واحد من باعة الصور العارية بالسجن لمدة ١٠ سنوات مثلاً.. وفي أقل من شهرين هبط معدل الجريمة من ٤٠٪ إلى أقل من ٠،٠٥٪.

وعموماً أدت الحملات المنظمة ضد «التلوث الأخلاقي» إلى تهدئة حمى عبادة الأشياء الأجنبية ومكنت الناس من التمييز بين نقاط الضعف ونقاط القوة في مظاهر الثقافة الغربية.

وفي الحقيقة فإن عملية تنقية أو غربلة الثقافة الغربية كانت مستمرة طوال الوقت توجهها القوانين والقيم الأخلاقية التي رسخت منذ آلاف السنين وتكاد تكون نار الفضول قد خمدت في تبادلهم الثقافي مع الغرب..

وتأكيد القيم الأخلاقية يمكن رصده من الثمانينات عندما أثارت لوحة جدارية رسمت في مطار بكين جدلاً شديداً بسبب عري بعض الأجسام فيها.. حيث تم تغطية الأجزاء العارية من اللوحة بطبقة جديدة من اللون لينتهي الجدل في هدوء..

كذلك في حالات كثيرة يتم تعديل العناصر المقبولة من الثقافة الغربية لتناسب المجتمع الصيني وتأخذ النكهة الصينية... فهذه مثلاً رائعة شيكسبير «روميو وجوليت» تتحول إلى «دراما من التبت» على المسرح الصيني وهذه «عطيل» تتحول إلى أوبرا في بكين بطريقة تعكس الإصرار على المحافظة على الهوية الثقافية الصينية حتى وهم يفتحون أبوابهم للثقافة الغربية.

مراسيم الهوى

شعر: محمود صقر

قال المُغنّي وانكفا
والدمعُ من عينيه سالْ
هذي مراسيمُ الهوى
قتلٌ وقتلٌ ونوى
وجراحٌ في الضمير

* *

قال المُغنّي
كيف أسلوها وفي الصدر صراخ
كيف أسلوها ودنياي نواح ونواخ
كيف يبدو العمر قفراً دون راحْ
كيف ... كيف

* *

قال المُغنّي
واحتسى الحزنَ كأسا
وتغنّى بالجراح
وتمنّى ما تمنّى
طيفُها المغبونُ يأتيهِ
مساءً أو صباحْ
كهديلٍ
أو نُواحْ

* *

قال المُغنّي
حُزنُها حزني بلادٌ من أنينْ
وتواشيحُ غرام

* *

قال المُغنّي
ألأغدو صادقا
أبيع من أحببت
ولأغدو راضيا
أو عاشقاً أبيع مَنْ عشقتْ

* *

قال المُغنّي وانكفا
والدمعُ من عينيه سال
هذي مراسيمُ الهوى
قتل وقتل ونوى ....

حل مسابقة حاول أن تعرف للعدد ١١٨

الصورة الأولى : قوس النصر يقع فى مدينة باريس ولقد أمر ببنائه نابليون بونابرت .

- الفائز : عبد المحسن سالم الرملى ـ ليبيا .
- الفائز : صالح سليمان بدره ـ السعودية .

الصورة الثانية : جيمس وات مخترع الآلة البخارية .

- الفائز : محمد طريف فرعون ـ سورية .
- الفائز : على محمد الشيخ ـ السودان .

الفائزون باشتراك لمدة سنة

١ ـ حافظ محمد ابراهيم سومرو ..... باكستان
٢ ـ محمد عوض الله عوضين .... قطر
٣ ـ يحيى طاهر .... إيران
٤ ـ جوهره سعيد قاسم ....
الجمهورية العربية اليمنية
٥ ـ علاء الدين مبارك سليم .... ليبيا
٦ ـ زادني محمد المختار .... المغرب
٧ ـ نواف يوسف الشبعان .... البحرين
٨ ـ نمير يحيى عبد الرازق .... العراق
٩ ـ حمزاوى محسن .... الجزائر
١٠ ـ صالح سعد سالم التريمى ....
اليمن الديمقراطية

حل استراحة الدوحة للعدد ١١٨

١ ـ أصل وصورة : الأنف ـ الشارب ـ الحاجبان ـ الأذن ـ الذقن ـ الشعر ـ الجبهة .
٢ ـ لعبة الظلال : رقم (١)
٣ ـ لوحة لم تتم : الفنان محمود الليجى
٤ ـ لأقوياء الملاحظة : تفاحة ـ بقرة ـ حذاء ـ كتكوت ـ قطة ـ إبريق شاى .
٥ ـ يخلق من الشبه أربعين : رقم (٥)
٦ ـ دورى الكاريكاتير : رقم (٧)
٧ ـ المثل يقول : لبس البوصة تبقى عروسة
- جاءت الحزينة تفرح لم تجد لها مطرح

أسماء الفائزين في استراحة الدوحة للعـــــــدد ١١٨

١ ـ محمود منصور خطاب ...... ج . م . ع
٢ ـ عصام عبد الله الخطيب ....
الجمهورية العربية اليمنية
٣ ـ أمين آدم عبد الحميد .... ليبيا
٤ ـ عائشة أحمد عزاز .... السودان
٥ ـ فاطمة يوسف الأنصارى......... البحرين
٦ ـ خالد يحيى الحصين.......................
الجمهورية العربية اليمنية
٧ ـ أمجد ماجد حسن ....الأردن
٨ ـ بشير أحمد جبر.................. قطر
٩ ـ غسان زهير صادق .... الكويت
١٠ ـ جمال كامل الشفره .... قطر
١١ ـ هياء دخيل الله مقلح........... السعودية
١٢ ـ ماجد صبحى العطار.......... ج . م . ع
١٣ ـ عادل محمد عبد الله .... السودان
١٤ ـ عماد عزت أمين.............. ج . م . ع

استراحة الدوحة

مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة :

عدوي



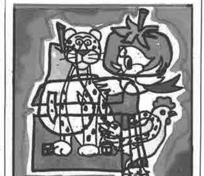
أصل وصورة





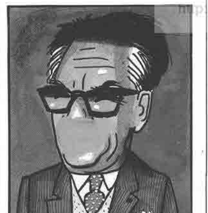
• بين أصل وصورة هذا الرسم الكاريكاتيري للفنان السعودي طلال مداح هناك سبعة اختلافات طفيفة .. هل تستطيع التعرف عليها لتحصل على جائزة

لأقوياء الملاحظة فقط!



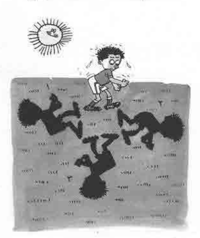
• أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة هل تستطيع التعرف عليها ؟ .. إذا عرفت الحل ارسله الينا لتحصل على جائزة ...

لوحة لم تتم



• هذه اللوحة لم تتم لرائد من رواد السينما العربية ، هل تستطيع إكمالها والتعرف على شخصية هذا الفنان لتحصل على جائزة ؟

لعبة الظلال



• حاول أن تساعد هذا اللاعب فى العثور على ظله الحقيقى ، فى انتظارك جائزة

هات أجمل تعليق :



• هل تستطيع أن تجد تعليقا خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى ؟ .. حاول وارسله إلينا فى انتظارك جائزة

المثل يقول



• هذا الرسم الكاريكاتيرى يعبر عن مثل شعبى عربى معروف .. حاول أن تتعرف على هذا المثل الشعبى لتحصل على جائزة

يخلق من الشبه أربعين



• الصور الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية الكاتب الاسلامى المعروف خالد محمد خالد .. من بين هذه اللوحات واحدة فقط تشبهه تماما .. وفى البقية اختلافات بسيطة .. هل يمكنك التعرف عليها لتحصل على جائزة ؟ .



بقلم
عبد الله الجفري



خائف من الاصغاء!

• خائف أنا من هذا «الاصغاء» الذى يفعله «الداخل» فى نفسي !

حزين أنا .. أمام هذا «التوقف» المفاجيء والصدامي الذي ألزمت به أفراحي ، وغربتي ، وابتساماتي ، وأدمعي !

الانسان يتعب ..

الانسان لا يحتمل المطاردة فى مساحات طويلة .. فيتمنى أن تلوح أمامه «محطة» يتوقف عندها . يستعيد أنفاسه . يستعيد ذكرياته . يلتفت خلفه ليرى عمره !

لكن هذا الانسان يضيق بالتوقف . يمل انتظار خطوات جديدة يواصل بها مطاردة مسافات العمر والأيام !

وبلا توقيت .. يغادر الانسان المحطة . يتنازل عن لحظات توقف للراحة وللرؤية .. ويعدو من جديد ، ويلهث من جديد .

ويتعب من جديد .. ويتطلع إلى محطة أخرى !

* * *

شهور تتعاقب .. تستطرد أيامها ، وتتفاوت نسب الاحساس بالسعادة فيها ، أو بالتعاسة !

لكن .. هناك «حصيلة» ذلك .. تتحكم عندما يستيقظ «الداخل» في نفس الانسان ، ويطلب الاسماء . يطلب كشف الحساب ، والأرباح ، والخسائر !

وفي لحظات ذلك «التوقف» .. تتردد أصداء الرغبة . والأمنية . والخفقة . ودواعي النفس الرافضة لوحدتها

تقول تلك الأصداء حينذاك :

— متى يسفر صبح النفس ؟!

متى تتحرك نجمة الليل المتوقفة ؟ ومتى تبدو هذه النجمة شجاعة الخطوات ؟!

ولقد ترددت تلك الأصداء بعد التوقف أمام «محطة» كان «داخل» النفس — لحظتها — يصغي . كان الحزن واجما بـ «التوقف» المفاجيء والصدامي !

* * *

إذن .. ما أسباب «التوقف» وما دواعي هذا الاصغاء ؟!

الليل موجوع يا صمت النجمة !

ظلال القمر .. فقدت النطق ، وتلاشت ، وضاعت ..

فالى أين الخطوات .. وعلى أي درب ؟!

خائف كل واحد .. عندما يصغي «الداخل» النفسي .

اندهشت حين تساءلت : لماذا يركض الناس .. لماذا لا يتوقفون كل يوم في منتصف لياليهم ، ويصغون إلى صوت من داخلهم ، ويتأملون ما فعلوه ، ويفكرون في كل ما كسبوه ، وما خسروه ؟!

الناس .. لا يطيقون الوحدة ..

وحدة المكان ، أو وحدة الدقائق ، أو وحدة النفس والأعماق !

إن حرصهم مرهق . وهم يحاولون ملء مكانهم بأناس حولهم ، وملء دقائقهم بعمل .. بتفكير .. بـ «شرود» يطاولون به الأنجم ، ويرتفعون إلى كوكب «الزهرة» !

إنهم يحاولون — أيضا — ملء نفوسهم بسجن آلامهم ، وحساسيتهم ، ورقتهم .. بنشوة أفراحهم ، وغرورهم ، وتفاؤلهم !

وهذا الارهاق فى حرصهم .. يدفعهم دائما إلى مزيد من الجري ، وإلى مزيد من تكثيف المشكلات ، وإلى مزيد من غربة النفس والألم !

كان الناس يخافون من الكلام .. أما اليوم فقد أصبحوا يخافون من الاصغاء ، ومن الصمت ! !

* * *

• وقفة :

• أيها النسيان المفروض :

أنت تتهاوى في قلوب الذين لم يكذبهم خفقهم !

إنني أرفضك واقعا مفروضا .. لأنك لست الحقيقة !

مرة .. أرادك بطل رواية «غادة الكاميليا» لكي يهرب من تصرف أكبر من مقدرته ، وصور هذه الارادة المجسدة للهروب .

لكن بطل الرواية مات بذلك الداء .. والأحياء يرفضون الموت على هذه الصورة ! !